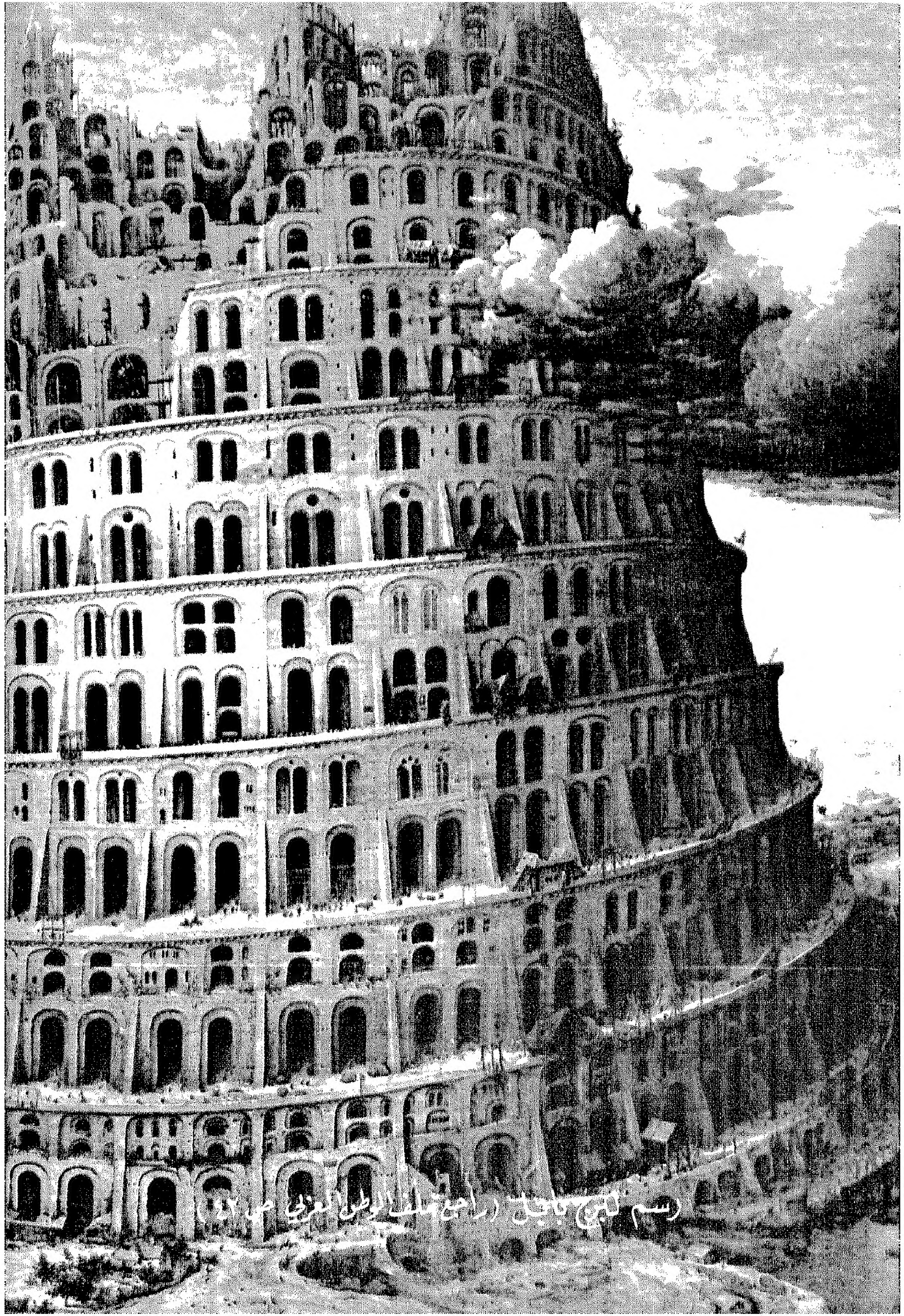
معركة سادوفا ١٨٦٦

■ ثلاثة لقاءات مع عبدالناصر ■ ابتهاج قدورة رائدة النهضة النسائية

■ الأسس العثمانية للشرق الأوسط الحديث



(رسم لبرج بابل (راجع ملف الوطن العربي ص ٤٢)

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة الثانية
العدد الخامس عشر
كانون الثاني (يناير) ١٩٨٠
صفر ١٤٠٠هـ

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

رئيس التحرير: فاروق البربير — المستشار: د. أنيس صايغ

المدير المسؤول: محمد مشموشي

ص.ب: ٥٩٠٥ - بيروت، لبنان
بناية أبو هليل - شقة ١١
شارع السادات - تلفون: ٨٠٠٧٨٣

الإعلانات
تمام: الشركة العربية لإنماء الإعلان
ص.ب: ١١/٦٨٨ - بيروت، لبنان

الإنتاج:
مطبعة المتوسط ش.م.ل.

التوزيع:
الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات

ثمن النسخة

لبنان	٤ ل.ل.	سوريا	٦ ل.س
العراق	٧٠٠ فلس	ليبيا	٨٠٠ درهم
السعودية	٧ ريال	الكويت	٥٠٠ فلس
الاردن	٥٠٠ فلس	أبوظبي	٨ درهم
دبي	٨ درهم	قطر	٧ ريال
البحرين	٧٠٠ فلس	المغرب	٥ درهم
مسقط	٨٠٠ بيزة	بريطانيا	جنيه استرليني

الإشتراكات

في لبنان	٥٠ ل.ل
المؤسسات والدوائر الحكومية	١٥٠ ل.ل
في الدول العربية	٧٥ ل.ل
في أفريقيا وأوروبا	١٠٠ ل.ل
دول العالم الأخرى	١٥٠ ل.ل
المؤسسات والدوائر الحكومية في العالم العربي	٢٠٠ ل.ل

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
A MONTHLY ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM
SADATE ST. ABOU HLEIL
BLG. P.O.B. 5905
Tel.800783
BEIRUT, LEBANON

VOL. 11
No. 15. Jan. 1980
PRICE : 4 L.L.
ANNUAL SUBSCRIPTION :
$ 75 IN NON-ARABIC
SPEAKING COUNTRIES

في هذا العدد

● المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة. ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الاجتماعية للكتاب. تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط.

الموضوع — الصفحة



معركة سادوفا - ١٨٦٦
(راجع المقالة صفحة ٥٤).

● المقالات والدراسات تُرسَل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة: ص. ب ٥٩٠٥ في بيروت.

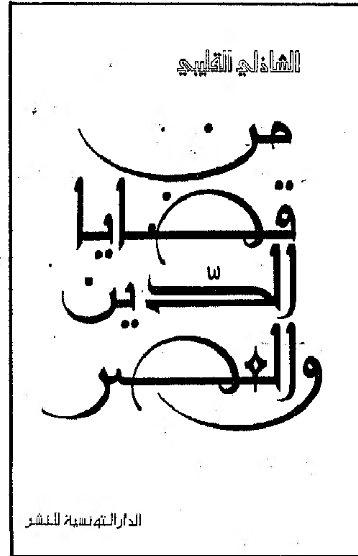
● المقالات والدراسات التي تنشَر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.

● المواد الواردة إلى المجلة لا تُرَدّ إذا لم تُنشَر.

الإصلاح والتطور

الأستاذ الشاذلي القليبي أمين عام جامعة الدول العربية

يكتسب موضوع «الملاءمة بين القيم الاسلامية ومقتضيات العصر» أهمية قصوى في هذه المرحلة من تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ومساهمة الأستاذ الشاذلي القليبي أمين عام جامعة الدول العربية، هي من المساهمات الحارة في هذا الموضوع. ومجلة تاريخ العرب والعالم إذ وقفت عند أهمية وحرارة هذه المساهمة يسرها أن تعيد نشر «الإصلاح والتطور» التي هي جزء من خطاب الافتتاح للندوة الإسلامية الثالثة التي التأمت بالقيروان بمناسبة الذكرى النبوية الشريفة ٦ ربيع الأول ١٣٩٧، ٢٤ شباط (فيفري) ١٩٧٧. والتي سبق ونشرت في كتاب: «قضايا الدين والعصر». عن الدار التونسية للنشر عام ١٩٧٩.





القضية الرئيسية، اليوم، بالنسبة إلى المجتمع الإسلامي، إنما تتعلق بكيفية الملاءمة بين القيم الإسلامية ومقتضيات العصر.

تلك قضية جوهرية، شاملة لكافة مظاهر حياتنا الإجتماعية، وهي، أيضاً، قضية مصيرية: لا تقتصر على حاضر المجتمع الإسلامي بل تتجه إلى مستقبله، لتستكشف آفاق تطوره، لا إصلاحه، فنحن لا نؤمن بالاصلاح، بل نؤمن بإمكان التطوير، بل بلزوم التطوير في إتجاهات معينة، لتقريب الشقة بين الدين والمجتمع.

وفي نظرنا أن أغلب المشاكل التي نعانيها اليوم ناتجة عن اتساع الفتق بين المجتمع والدين، وتغلب الاعتقاد عند الكثيرين أن في الإمكان إرساء أوضاع إجتماعية صحيحة – أي مستقرة وحية – دون لجوء إلى الدين.

وهنا لا بد من تحرير مسائل ثلاث:

الأولى انه لا يمكن الحديث عن «المجتمع الإسلامي» بالأفراد، بل نحن مضطرون إلى صيغة الجمع، لاختلاف البلدان الإسلامية، من حيث الأوضاع الإجتماعية، والثقافية، والتاريخية. لذلك فسوف نلتزم صيغة الجمع، فنتحدث عن «المجتمعات الإسلامية»، في تعدد أنماطها، وإختلاف مظاهرها.

من مواليد ١٩٢٥، بتونس العاصمة، حائز على اجازة في اللغة العربية من السوربون، درّس في المعاهد الثانوية، ومعهد الدراسات العليا حتى ١٩٥٨ ثم عين مديراً للإذاعة (١٩٥٨) ثم كاتب دولة للشؤون الثقافية والأخبار ثم وزيراً للشؤون الثقافية ووزيراً للاعلام. انتخب اميناً عاماً لجامعة الدول العربية في ٢٨ جوان – جزيران ١٩٧٨. له مؤلفات عدة وهو عضو بمجمع اللغة العربية بالقاهرة.

أما المسألة الثانية ، وهي من الأهمية بمكان ، فتخص مفهوم الإصلاح واعتقادنا أن مفهوم الإصلاح لم يعد يفي بجملة المعاني والعمليات التي نقصدها ، عندما نتحدث عن حاجة المجتمعات الإسلامية إلى تغيير أوضاعها ، والملاءمة بينها وبين تعاليم الدين ، من جهة ، وبينها وبين مقتضيات العصر ، من جهة أخرى ، معاً ودون فصل . لذلك فإن المجتمعات الإسلامية تبدو ، اليوم ، إلى النهوض الشامل والتطور الحثيث الجاد ، أحوج منها إلى الإصلاح ، مهما بلغت مكانة «الإصلاح» عند السلف ، ومهما كان في نفوسنا جميعاً ، وقعه ورنة لفظه .

أما المسألة الثالثة ، وهي الأكثر أهمية ، فهي تتعلق بكيفية اعتبار ماضي الأمة الإسلامية ، وضرورة الميز بين التعاليم الدينية وجملة الأوضاع التي كانت عليها الأمة . فبقدر ما يتحتم الرجوع إلى التعاليم – بالفهم والفقه الصحيح والتدبر – فإن الرجوع إلى الأوضاع السالفة متعذر ، لأن سنة المجتمعات التغير ، وليس من المنطق أن نروم الرجوع إلى أوضاع زالت أسبابها التاريخية وعللها الإجتماعية .

لذلك ، فإن الذي ينبغي أن نقصد اليه ، ليس هو الإصلاح الذي يعني إرادة الرجوع إلى أنماط معينة ونماذج مخصوصة ، بل هو تطوير الأوضاع الحالية ، باحتذاء التعاليم الدينية ، عندما يكون ذلك لازماً ، وبالاستيحاء من جوهر مقاصدها الأخلاقية ، وزكي نفحاتها الروحية ، فيما عدا ذلك .

ومن هذه الوجهة ، فإنه يجدر بنا أن نعتبر بناء المجتمع الإسلامي عملاً متواصلاً ، قوامه الاجتهاد البشري ، بحسب الواقع والظروف ، وطبقاً لروح الاسلام ، كما تؤخذ من سنة الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، ومن خلال سلوك خلفائه الذين أسسوا الدولة وسنوا القوانين . بناء المجتمع الإسلامي ، إذن ، عمل مستمر ، لا ينقطع .

وأهم ما اتسم به روح الإسلام أمران : الاجتهاد الذي حرض عليه الرسول تحريضاً ، وجعله من واجبات الحكم ، وجعل فيه للحاكم الأجر ، وإن أخطأ . ومعنى الاجتهاد ، من قبل الحاكم ، يشمل كافة جوانب الحياة الإجتماعية ، بما فيها من تنظيمات ، وتشريعات ، وابتداعات ، من أجل المصلحة العامة .

أما الأمر الثاني ، فطلب العلم ؛ وهو ، بعد التقوى وفعل الخير ، أفضل ما يقوم به المسلم .

فإن تدبرنا المعنى الحقيقي الذي اليه يدعو الدين ، بحثه على الاجتهاد ودوام طلب العلم ، فإنا ندرك أن سنة المجتمع الإسلامي إنما هي التطور الدائب الذي لا ينقطع ؛ ولا يكون ذلك إلا بدوام اعمال الفكر وطلب المعرفة . وبذلك تأويل القاعدة المأثورة : الدين صالح لكل زمان ومكان . وفي ذلك أيضاً خير مصداق للقول المأثور : «اعمل لدنياك عمل من يعيش أبداً » . .

فإن كنا باتفاق على أن الذي تحتاج اليه المجتمعات الإسلامية إنما هو نهوض شامل بكامل طاقاتها ومختلف أوضاعها ، فإنه يمكن أن ننظر في انطلاقة الأمة الإسلامية في عهد الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وفي عهد الخلفاء الراشدين ، والمصلحين من أولي الأمر بعدهم ؛ فنستوحي منها أسرار القوة التي بها أصبح المسلمون أمة متماسكة ، وبنوا دولة راشدة ، ومجتمعا مزدهراً .

وأهم ما كانت به قوة المسلمين الأول أن التنظيمات الإجتماعية لم تقم على أسس موضوعية – بلغت ما بلغت من الصحة والمتانة – بل أقيمت على أسس روحية ، وأعد لها في نفوس البشر قواعد ثابتة راسية ، تمكنها من الصمود أمام الأنواء وتقلب الأحوال . وبهذه الأسس الروحية نعني ما أوقده الاسلام في المهج من قيم ومبادئ ، بها كانت مناعة المجتمع الإسلامي .

ونكتفي بالإشارة إلى أهم هذه المبادئ ، وفي مقدمتها روح الكد التي ندب إليها الدين : فقد جعل أول واجبات المسلم الكد في الحصول على الرزق ؛ ونهى عن الاتكال على الغير ، أو الاعتماد على الجاه

أو النسب . ولقد بلغ الإسلام في الإشادة بالكدّ إلى أن فضله على الانقطاع إلى العبادة . وبذلك يكون المجتمع الاسلامي متجهاً بكليته إلى العمل والكد ، في سائر ميادين الحياة . وإنما تغيرت الأمور ، لما أعرض الناس عن هذا المبدأ .

ومن أركان الإسلام العدالة الإجتماعية التي تجعل المسلمين في مأمن من هضم حقوقهم المادية ، وتفرض لكل عمل أجره ، كاملاً وافياً ؛ فتضمن بذلك التعايش بين مختلف الفئات الإجتماعية ، على قاعدة التكامل ، صدقا وعدلاً ، مشتركة في النهوض بأعباء المجتمع ، كل فئة حسب طاقاتها .

ويزيد في تدعيم صرح هذا المجتمع الإسلامي ما يقوم عليه من تضامن إجتماعي يفرض على المجموعة العناية بضعفاء الحال ، إما بتمكينهم من وجوه طلب الرزق ، وإما بمدّ يد المساعدة ، إلى من ثبت عجزه ، بطرق شرعية ، عجزا طارئاً أو دائماً .

أما الركن الرابع الذي ضمن للإسلام الرفعة والتقدم ، فهو المساواة بين كافة المسلمين ، شعوباً وقبائل وأفراداً ، مع نبذ الفروق القائمة ، لا فقط على النسب ، بل أيضاً على العرق : فلم يفرق بين الأسود والأبيض ، كما انه لم يجعل الناس طبقات باعتبار أنسابهم . فقضى بذلك على سبب هام من أسباب البغضاء بين الأفراد ، والشحناء بين الفئات ، والعداوة بين الشعوب .

وإنما ، بالمساواة والتضامن والعدالة ، تتفادى المجتمعات التفاضات المستضعفين في الأرض : فتضمن ، بين كافة الطبقات ومختلف الشعوب ، تواصل السعي والكد ، من أجل الرزق ، ومزيد الخير والرفاه للجميع ، دون ميز ولا ظلم .

ولئن اشتهرت هذه المفاهيم ، اليوم ، بانتسابها إلى المذاهب الملقبة بالاشتراكية ، فقد كانت ، في الحقيقة ، ومنذ البدء ، من روح الإسلام ، وعماد فلسفته الإجتماعية . ولكن سرعان ما تنكرت لها مجتمعاتنا ، ولم يعد يؤبه لها ، فتلاشت بين أيدينا ، حتى ظن البعض منا أنها من ابتكار أمم غيرنا .

وأشد ما نخافه على قادة الفكر عندنا أن ينقادوا لما تسرب إلينا ، عن طريق الثقافات الغربية ، من مركبات خفية تجعلهم يعزفون ، باسم المنطق ، عزوفاً لا شعورياً ، وبدون حجة ، عن إحلال الدين المكانة التي هو بها جدير في التنظيمات الإجتماعية .

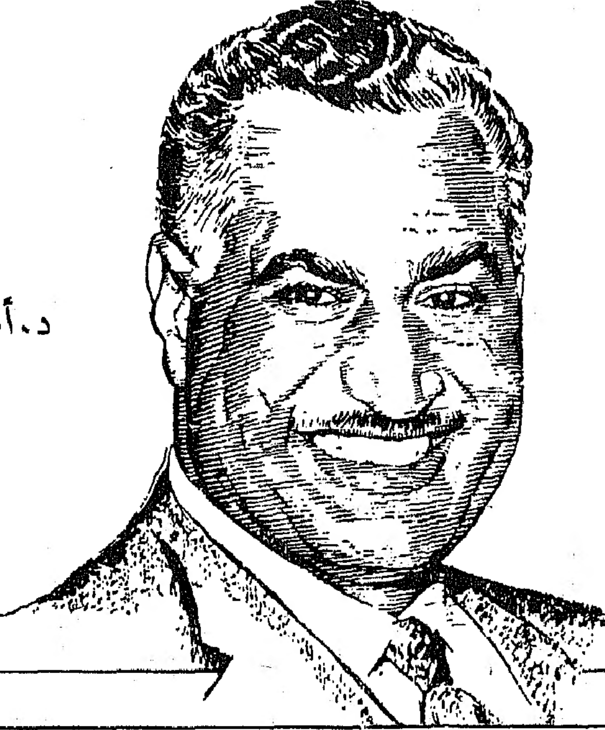
فلننظر فيما عليه البلاد التي ظنت أن لها أن تستغني عن الدين وضوابطه ، ولنتعظ بما تردت فيه من آفات العنف والفتن ، بسبب انتهاك كل الحرمات . ففي ذلك عبرة بأن البشر يفقد من انسانيته ، إذ ما فقد الايمان بسلطان أعلى يتجاوز البشر .

ولعله قد آن الأوان لإعداد العدة لمؤتمر إسلامي ، يضم ، إلى جانب فقهاء الدين ، ثلة من رجال الفكر والسياسة وعلماء الاقتصاد والإجتماع ، وذلك لضبط منوال إسلامي للتنمية : لا يتقيد بالنماذج الغربية أو الشرقية الغالبة اليوم على بلاد العالم الثالث ؛ بل يستنبط من واقع شعوبنا وتالد روحها مواقف وطرائق يمكن لسائر المجتمعات الإسلامية أن تجتذبها بتصرف واجتهاد ، لتحقيق التطور الإجتماعي والازدهار الاقتصادي ، دون ما طمس لتقاليدها الروحية ، ولا إغضاء من قيمها الأخلاقية ، ولا تنكر للمحيط الثقافي والحضاري الذي يكتنف شعوبنا .

ففي الإسلام ، إن نحن أحسنّا النفاذ إلى حقائقه الجوهرية ، واستجلينا ما يحمله إلى البشر من قيم وتوجيهات ، خير منطلق لمجتمعاتنا ، كي تقوى على معالجة قضايا العصر ، والظفر لها بحلول ملائمة ، بحسب اختلاف الظروف والأوضاع . ■

بمناسبة ذكرى مولد الرئيس جمال عبد الناصر (١٦ك٢ - يناير - ١٩١٨)، هذه الذكريات الخاصة، يسجلها الدكتور أنيس صايغ، لتضيء جوانب في شخصية الرئيس قلّ من يعرفها.

ثلاثة لقاءات مع عبد الناصر



د. أنيس صايغ

الحديث عن جمال عبد الناصر، أي حديث، لا يمكن أن يتحرر من بعض العاطفة تحرراً كاملاً، وخاصة بالنسبة إلى كاتب رأى في عبد الناصر مُعلماً (بضم الميم وفتح العين) ومَعْلماً (بفتح الميم وتسكين العين)، ولم يكن مجرد قائد لمسيرة وزعيم لأمة.

والحديث ذكريات عن ثلاثة لقاءات مع الرجل الكبير، يعود اقدمها إلى ربع قرن من الزمان (١٩٥٤)، وثانيها بعده بتسع سنوات (١٩٦٣) وآخرها بعد ذلك بست سنوات (١٩٦٩).

وكانت كلها لقاءات خاصة وبسيطة وعادية، بين قائد الأمة وبين مواطن لا يمثل إلا نفسه ولا يحمل مسؤولية رسمية في أي قطر عربي، ويدور فيها الحديث عفوياً متحرراً من الرسميات والبرامج، ويتشعب الكلام إلى حيث يشاء صاحباه، ويطول بمقدار رغبة القائد، بحيث بلغ مجموع الجلسات حوالي عشر ساعات، إمتدت بين ساعات الليل المتأخرة وساعات الفجر المبكرة، ولا يحدد موعدها إلا قبل وقت قصير. ولم يقصد لأي حديث منها أن يكون للنشر. ولم يكن فيها محاضر ولا أشرطة ولا تدوين من أي نوع كان.

كان ضيف عبد الناصر في اللقاء الأول كاتباً ناشئاً، حديث التخرج من الجامعة، يعد أول بحث تاريخي له، في العلاقات السورية المصرية عبر التاريخ، يرغب في التعرف على آراء عبد الناصر، الجديد في تحمل مسؤوليات مصر والعرب، في هذه العلاقات، وفي سياسة مصر العربية بوجه عام.

وكان الضيف، في اللقاء الثاني، استاذاً في

إحدى أكبر جامعات العالم (كمبردج) وقد صدرت له عدة دراسات ، أطلع عبد الناصر على بعضها وأبدى الكثير من الملاحظات وعبر عن اهتمامه بها ، وخاصة ما كان يتعلق بالقومية العربية عموماً وبالفكرة العربية في مصر خصوصاً . وقد رغب الكاتب أن يلمس عن كثب أثر الانفصال في تفكير القائد الكبير.

أما في اللقاء الثالث فقد كان الضيف مديراً لمركز أبحاث المقاومة الفلسطينية ، متفرغاً لفكر المقاومة وللجانب البحثي من نشاطاتها وهو عمل اثار اهتمام الرئيس العربي وتابعه عدة سنوات متابعة حميمة ، وكانت له ملاحظات وارشادات ، وتوجيهات وطلبات ، ولا أعلن سراً إذا قلت الآن . وبعد سنوات من التخلي عن تلك المسؤولية ، انه لا يكاد يوجد مسؤول فلسطيني واحد عني بإنتاج المركز عناية جمال عبد الناصر (ربما باستثناءات قليلة في مقدمتها الأخ أبو عمار والأستاذ الشقيري) .

وتشاء الصدف أن يتم كل من تلك اللقاءات في أعقاب صدمة كبيرة للقيادة الناصرية : مشكلة تحديد سياسة الحكم الداخلي في مصر (مع جماعة محمد نجيب) ١٩٥٤ ، ومشكلة الانفصال (١٩٦٠) ونكسة ١٩٦٧ . لكن الصدفة الحقيقية هي أن كل لقاء إنما تم في ظروف عصيبة مرت بها القيادة وشغلت بالها بشكل مباشر . فقد جرى اللقاء الأول بعد ساعات من صدور أوامر الرئيس باعتقال الصحافي إحساب عبد القدوس ، المحسوب حتى ذلك الحين على عبد الناصر ، لنشاطات غير صحافية قام بها ضد القائد . وجرى اللقاء الثاني يوم فشل الحركة العسكرية في سورية وهرب ضباطها الموالين للناصرية إلى مصر (تموز/يوليو ١٩٦٣) وهي حركة أهتم لها الرئيس المصري وتتبع خطواتها لحظة فلحظة . أما اللقاء الثالث فقد جرى ليلة العدوان الاسرائيلي على مطار بيروت في الساعات الأخيرة من العام ١٩٦٩ .

وبالرغم من هذه الخلفية المزعجة كان الرئيس العربي الكبير هادئاً كل الهدوء في الجلسات الثلاث ، وكأن لا مشاكل داخلية ولا عدوانات ولا نكسات . ولعل هذه هي واحدة من أهم صفات الرجل : هدوء الأعصاب ، والثبات أمام المشاكل والأزمات . لقد عرف الغرب أكثر من مسؤول سياسي أو عسكري ، يواجه المشاكل (والانهزامات ، والانكسارات أحياناً)



الرئيس عبد الناصر يحيي الجماهير .

بالالتهاء المؤقت بممارسة هواية بعيدة جداً عن جو السياسة والحرب (لعب التنس، أو العزف على البيانو، أو قيادة السيارات أو اليخوت).

لكننا اعتدنا، في وطننا العربي وفي تاريخنا القديم والحديث، على نوع آخر من تصرفات المسؤولين في مواجهة الأحداث الخطيرة، أقلها وأبسطها التوتر والتشنج والاضطراب وفقدان السيطرة على الاعصاب. إلا جمال عبد الناصر. لقد شهدت بعيني وفي ثلاث مناسبات، الارادة الحديدية والأعصاب الفولاذية والنفس المرتاحة. وكان حديثه في الجلسات الثلاث حديث استاذ الجامعة مع مريديه: يسأل ويجيب، ويعقب ويعلق، وكان لا هم له ولا غرض إلا في حدود الجلسة نفسها بعيداً عن أي أجواء عاصفة خارج قاعة الإجتماع. وكأني به كان يعتبر الحديث الثقافي رياضة يمارسها في الأزمات لتنقية الفكر وإراحة الأعصاب والتهيؤ لمواجهة المصاعب من جديد في اليوم التالي.

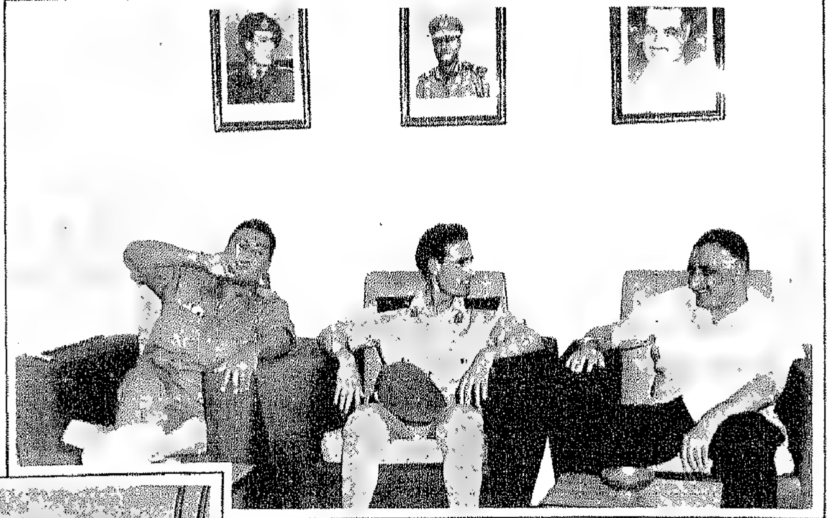
اشتهر عن عبد الناصر انه يعرف الكثير. وقد ساهم في هذه المعرفة الشاملة والواسعة خلفية مهنية (كأستاذ سابق في الكلية الحربية) ومكتب خاص يزوده يومياً بالقصاصات والترجمات والتعليقات. لكن الفضل الأساسي انما يعود إلى رغبة الرجل، بل نهمه، في المطالعة: المطالعة المركزة والمبرمجة والهادفة إلى المزيد من الثقافتين النظرية والعملية.

ومن هنا نشأ عنده حب الاستفسار. إنه كالطفل الملحاح الذي يريد أن يعرف كل شيء. يسأل بلا حرج. يسأل عن كل موضوع، ولا يقنع بالجواب بل يواصل التساؤل إلى أن تستفيض في الرد وتشفي غليله. ويخيل اليك أحياناً انه يعرف الجواب ولكنه يريد أن يتأكد من صحة الجواب أو من صحة معرفته للجواب. ويكاد ينسيك انه هو المعلم وانت الدارس، وأن رأيه هو المطلوب وليس رأيك أنت. لكنه لا يجامل. ولا يسكت عن الرأي غير المقنع أو غير الشافي. بل يعارض وينتقد بشدة وبصراحة تصل أحياناً إلى حد التعنيف، أو ما قد يبدو وكأنه تعنيف وهو على أي حال تعنيف «أبوي» ارشادي أشبه بملاحظات الأستاذ لمريديه.

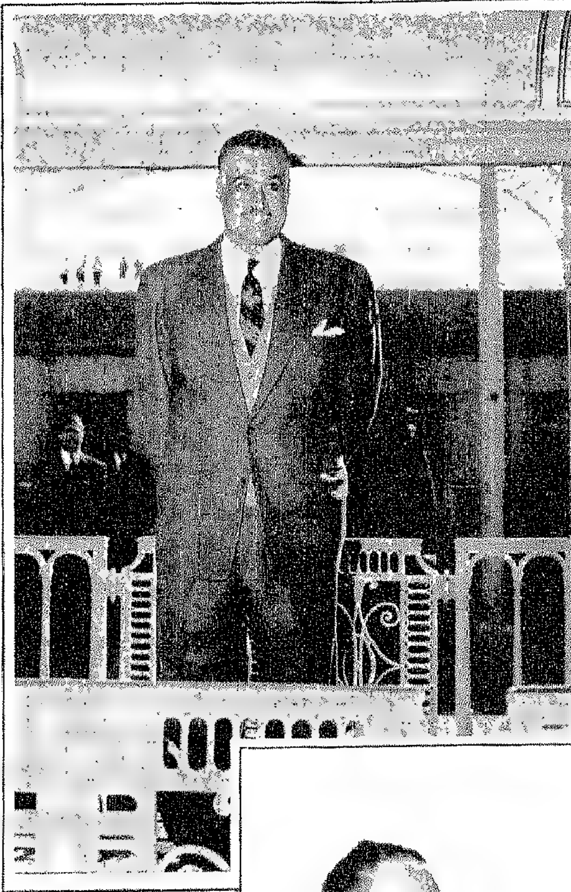
يفاجئك، أول الجلسة، بانه يعرف عنك، وعن خلفياتك السياسية والفكرية (بل والخاصة والعائلية أحياناً). فترتاح بمقدار ما تُشدَه وأنت تسائل نفسك السؤال المزدوج: كيف له أن يعرف كل هذه التفاصيل عنك، وهل أنت مهم عنده إلى هذا الحد حتى يعرف كل التفاصيل، ويزداد تساؤلك إلحاحاً عليك وحدة، وانت تجلس قبالته، إذا كنت أنت (كما كنت أنا) مواطناً عادياً، وليس مسؤولاً في دولة أو حزب، ولا تمثل جماعة رسمية، مجرد رجل فكر يرغب في الاطلاع على أفكار زعيم الأمة.

أنت مؤلف، تدرس العلاقات السياسية والتاريخية بين بعض الأقطار العربية، إذن فهو محدث لبق في التأليف وفي هموم البحث وجمع المعلومات واستخراج النتائج، وفي الروابط المختلفة بين أقطار الوطن العربي، قديمها وحديثها، على مختلف الاصعدة (من اقتصادية وثقافية ونفسية وسياسية وجغرافية). أو أنت استاذ في جامعة أجنبية، تود الاستفسار عن رأي الزعيم بعروبة مصر. اذن فهو حريص على بيان الفوارق بين الجامعات العربية والجامعات الأجنبية، وكيف يمكن للأولى أن تستفيد من تجارب الثانية ونظمها وأساليبها. كما أنه مهتم بمعرفة دور الأساتذة العرب هناك، وكيف يمكن الافادة منهم تربوياً واعلامياً. وفي الوقت نفسه لا يدع لك مجالاً للشك بعمق وشمول ايمانه الكامل والتام بعروبة مصر، ذلك الأيمان الذي لا يمكن أن يزعزعه انفصال ولا يهزه طعن من الخلف. فعروبة مصر عند جمال عبد الناصر حقيقة راسخة وليست مجرد قرار سياسي. وهي واقع وليست مادة للاستفتاء والتأرجح بين القبول والرفض. وهي مصير محتوم وليست وليدة ظروف آنية معينة. أو أنت مسؤول أبحاث وموجه فكري، اذن فهو يتعاطى معك شؤون البحث وشجونه، وكأنكما تعملان في مؤسسة فكرية واحدة. ولا يهمه، مثلما لا يهمك، آنذاك، الانغماس في التفاصيل والعلاقات السياسية والحزبية بين جماعة وأخرى، بقدر ما يهمه، الكلام عن مصادر البحوث، وكيف يمكن تعزيزها، وكيف يمكن الحصول على مواد أكبر للمعلومات عن العدو الاسرائيلي بأسرع وقت، أوكيف يمكن ترجمة الصحف العبرية، أو رصد الاذاعة الاسرائيلية،

الرئيس عبد الناصر وإلى جانبه الرئيسان قذافي ونميري .



الرئيس عبد الناصر في قطاره الخاص



بأفضل السبل . وحينما يتطرق الحديث إلى موضوع الاعلام العربي ، بحكم عملك واهتماماتك ، تراه خبيراً بالاعلام وكأنه يتعاطاه من مواقع مباشرة ، خبرة أشك أن بين اعلامي جامعة الدول العربية والأقطار العربية كلها من يجاريه فيها .

بعد هذا كله ، لا يهمه ان تعرف انه يعرف .

بل يهمه أن يعرف ما أنت تعرف ولا يعرف هو ، أو أن يعرف ما لا يتأكد منه تمام التأكد . لهذا الغرض يجادلك ويناقشك مطولاً ، وتمضي عقارب الساعة ، وينطوي الليل ويطلع الفجر وأنت تجلس أمامه تستمع له ويستمع لك . وتكاد تنسى ، في غمرة الحديث الشجي ، انك تسرق ساعات أكبر مسؤول عربي ، وواحد من أكبر مسؤولي العالم ، وأن الرجل



دلهي الجديدة : ١٩٦٦/١٠/٢١ . في مؤتمر القمة : الرئيس عبد الناصر والسيدة نهرو في حفل استقبال دعا إليه الرئيس تيتو .

الذي «تتفلسف» أمامه إنما هو نفسه الذي يقلق العالم ويخيفه ويشغل بال سياسييه ومفكريه ومخبريه بافعاله وبنواياه وبأفكاره.

وعندما تخرج من عند الرجل، بعد كل واحدة من تلك الجلسات الطوال، تحتار أين تصنف جمال عبد الناصر، في خانة التواضع أو الكبرياء، بينما لا تحتار أبداً في تصنيفه بأي صفة أخرى. فاذا كان الحكم عليه يتعلق بالشجاعة، أو المعرفة، أو الصدق، أو القوة، أو غير ذلك من الصفات، الأمر معروف ومبتوت فيه ولا يحتاج إلى تفكير لاعطاء الجواب.

ذلك أن تواضع العلماء يبدو في جلوسه معك، ونقاشه الطويل، واستقباله اللطيف، ووجهه البشوش، وملاحظاته التشجيعية، وشكره المستمر لك على عملك وإنتاجك وكأنك صاحب فضل عليه.

لكن كبرياء الأسد تطل من عينيه وتلمحها في حركات يديه (يدان طويلتان وكفان سميكان يتناسبان مع قامته) وفي نبرات صوته (وهو أكثر حناناً في الجلسات الخاصة منه في اللقاءات الجماهيرية من وراء المايكروفون). انه معلم وهو يعرف انه كذلك. انه سيد الموقف. انه الزعيم في أي حفل أو مجموعة أو جماعة. لا أتصور جمال عبد الناصر كان يصلح لأن يكون الرجل الثاني، نائب الرئيس، في أي مكان أو عمل أو نظام، لقد خلق ليكون الرجل الأول، بل المسؤول الوحيد. صفاته اعطته هذه الأهلية. وقد عرف هو ذلك واستغله إلى أبعد الحدود. فكان، منذ ربع قرن على الأقل، الرجل الأول والمسؤول الوحيد على المستوى القومي العربي، مثلما كان كذلك وقبل عدة سنوات، على مستوى التنظيم العسكري السري. ولعل في هذا بعض التفسير لخلو المكان بعده، وللفراغ الذي شعرنا ولا نزال نشعر به في أكثر من مجال. وليفهم القارئ كلامي وليتأكد منه ما عليه إلا أن يتأمل ملياً في صورة من مئات الصور التاريخية له وهو يقابل كبار رجالات العالم وعمالقة البشرية في زمانه، في السياسة أو الحرب أو الفكر.

يتغنى الاميركيون، وخاصة علماء السياسة والإجتماع والنفس من أساتذة الجامعات، في وصف وتحديد الصفات المحببة للجماهير التي تجعل انساناً ما زعيماً جماهيرياً محبوباً في بلد ما في زمان ما. وهي ذات قوة مغناطيسية تجذب الناس، كل الناس، إلى رجل معين يدينون له بالولاء والطاعة ويسيرون وراءه باحترام ومحبة ورهبة وقبول. ويسرد لك العلماء اسماء العشرات من هؤلاء الزعماء وجلهم من قادة الدول، الذين وصلوا إلى سدة الحكم بالانتخاب الحر أو بالبطش والعنف.

لكن جمال عبد الناصر تفوق على هؤلاء جميعاً. فهو لم يجذب الجماهير فحسب، ولم يجمع حوله رعاياه في مصر فقط. لقد لفت زعامته الوطن العربي بأسره. وجذبت شخصيته جماهير العالمين الإسلامي والثالث، وفرض احترامه حتى على الشعوب التي يناصبه قادتها العداء.

لقد كانت له القدرة على تحريك مشاعرك، وعلى اقناعك واستمالتك. بشكل عفوي وطبيعي بعيد جداً عن التكلف، أكثر من أي زعيم سياسي أو غير سياسي عرفناه في عصرنا هذا.

ولعل هذه القدرة كانت تتجلى في لقاءاته الخاصة وجلساته الحميمة أكثر منها في الاحتفالات العامة والمهرجانات الواسعة حيث يلعب التخطيط والتصوير والانارة والمايكروفون دوراً اصطناعياً إلى حد ما. والدليل على صحة زعمي هو أن انطباعات رجال الثقافة والعلم والفكر عنه، بعد مقابلاته الهادئة والشخصية لهم، لم تكن بأقل إيجابية من انقياد الجماهير والقواعد الشعبية العريضة في أعقاب مهرجان حافل.

ليس غريباً، بعد هذا، انه ما من رجل واحد حرك العرب، أمة وتاريخاً، مثلما فعل جمال عبد الناصر. ■



– أن الحق بغير قوة ضائع .. وإن أمل السلام بغير إمكانية الدفاع عنه إستسلام...

«جمال عبد الناصر»

السيّدة ابتهاج قدّورة رائدة النهضة النسائية في القرن العشرين



د. فائزة علي سعد الدين

لا بد لمن يؤرخ للنهضة النسائية المعاصرة من أن يرتدّ إلى حياة الرائدات اللاتي حملن المشاعل في حالك العصر لينرن بها المسار. ومن أعلام المناضلات صاحبات السبق في بعث يقظة المرأة العربية إلى حقوقها وواجباتها: منجبة، ومنتجة، ومواطنة، الزعيمة الرائدة السيدة «ابتهاج قدورة» التي وإن تحفّى النصف الأول من القرن العشرين بسيدات بعثن وعي المرأة العربية إلى حقوقها وواجباتها لكنها كانت أبعدهن أثراً، وأبقاهن ذكراً في حياة المجتمع النسائي حتى أنها لتعتبر بجدارة ممثلة لتاريخ النهضة النسوية المعاصرة في لبنان، وفي شرقنا العربي، بل عالمياً. وقد قال بحقها فريد جبران:

«ابتهاج مفخرة السيدات ظهرت في طليعة النهضة النسائية فتاة جميلة الخلْق والخُلق تحمل رسالة سامية»[1]. وأكّد زعامتها اللبنانية والعربية رئيس مجلس الوزراء اللبناني الحاج (حسين العويني) بقوله: «فهي بحق تدعى زعيمة لبنان والبلاد العربية»[2]. وثنت على ذلك الأديبة السيدة (عنبرة سلام الخالدي) إذ تقول: «أصبحت السيدة ابتهاج قدورة مؤسسة ضخمة علتْ في لبنان فتطلعت إليها أنظار المرأة في جميع الأقطار العربية[3]». وأقرت فيمن أقروا بعافيتها كل من الأديبة اللبنانية المهجرية المعروفة السيدة «سلمى صايغ»، والسيدة «أمينة السعيد» صاحبة مجلة «حواء»، ورئيسة تحرير «دار الهلال» حالياً، فتقول السيدة سلمى صايغ ما يلي: «إذا ما خطر في بال أحدٍ أن يحصى ستات الستات في الدنيا فالسيدة ابتهاج قدورة دون ريبة إحداهن»[4]. وتقول السيدة أمينة السعيد «إن السيدة ابتهاج قدورة غنية عن التعريف في العالم العربي بل وفي المجتمع النسائي المستنير»[5].

ولما كان من يتابع سيرة «ابتهاج قدورة» يجد فيها مؤسسة ضخمة، وسجلاً حافلاً لتاريخ الحركات النسائية وتطوراتها بحيث يعسر تقديرها قدرها في حدود مقالنا هذا دون الوقوع في مخاطر النظرة الجريئة التي تشوه الحقائق عادة، وتحول دون إدراكها على ما هي عليه، لذلك سنقدم للقارئ منظوراً عاماً حول نضال الزعيمة «ابتهاج قدورة» بحصر الحديث في اطار المنهج التالي:

١ – مولد ابتهاج ونشأتها وثقافتها.

٢ – لمحة موجزة حول الجو العام يأتي على الوجه التالي:

(أ) ما قبل «ابتهاج».

(*) د. فائزة علي سعد الدين (رمضان).

– بكالوريس في التربية (الولايات المتحدة الأميركية) بدرجة تفوق. ماجستير في التربية (جامعة عين شمس) بدرجة تفوق.

– دكتوراه فلسفة في التربية – مناهج وطرق تدريس. – توجه خاص نحو تربية المرأة وتنمية البيئة والبحث العلمي.

(ب) ما حول «ابتهاج».
٣ – لقطات من نضال «ابتهاج» الاجتماعي.
٤ – لقطات من نضال «ابتهاج» السياسي تأتي على الوجه التالي:
(أ) نضالها من أجل نيل المرأة حقوقها السياسية والمدنية كاملة..
(ب) نضالها الوطني.
٥ – وفاتها.

١ – مولدها ونشأتها وثقافتها:

ولدت الزعيمة اللبنانية في بيروت عام ١٨٩٣م[٦]. إبان السيطرة العثمانية، وتقاسم الفضل في ظهور هذه الزعيمة الرائدة أبوان كريمان: فوالدها البيروتي الدكتور «أديب قدورة» أول طبيب مسلم في مدينة بيروت – في حدود اطلاعنا –، تخرّج عام ١٨٨١م من الكلية السورية الانجيلية (الجامعة الأميركية) في وقت كان الطب يعتمد في الغالب على الحلاقين والحجامين، وحصل عام ١٨٨٢م على معادلة كولوكيوم في هذه الشهادة من كلية الطب في القسطنطينية وفقاً للإجراءات القانونية المتبعة آنذاك[٧]. أما والدتها فسيدة دمشقية من أسرة (الأيبش) والمعدودة من فضليات زمنها[٨].

والسيدة «ابتهاج» أخت لخمسة أولاد هم: فريدة، ونادرة التي توفيت في ريعان الصبا، والصيدلي مصطفى مؤسس صيدلية قدورة المعروفة على (السور) (وهو السور القديم لمدينة بيروت) منذ عام ١٩٠٠م وذلك بعد دراسته في الجامعة اليسوعية، ثم في استنبول، والدكتور حليم الذي تخرّج من الجامعة اليسوعية ثم باريس والذي أصبح نائباً في المجلس التمثيلي اللبناني لمدة دورتين، والدكتور نادر قدورة خريج الجامعة الأميركية وباريس والمانيا وطبيب الأشعة المعروف في البلاد العربية آنذاك[٩].

وهكذا يتضح لنا مما سبق ذكره في الفقرتين السابقتين أن فطرة «ابتهاج» ومواهبها الفذة النابهة تغذت في رحاب مدرستها الأولى، بيتها العامر بالمجد والعلم، أما مدرستها الثانية فهي مدرسة الأمريكان للبنات التي دخلتها منذ الصف الأول الابتدائي وأتمت جميع صفوفها، ونالت على طراوة عمرها ورصانة



السيدة ابتهاج قدورة عند تخرجها من كلية الامريكان وهي لم تتجاوز السادسة عشرة من العمر.

سلوكها شهادتها النهائية عام ١٩٠٩م[١٠] بتفوق مرموق أنزلها منزلة شرف فكانت خطيبة حفلة التخرج حيث ألقت كلمتها حول «دور المرأة في الهيئة الاجتماعية» رأى فيها رئيف أبو اللمع افتتاحها لمعركة السير بخطى ثابتة نحو التجديد المتزن في حياة المرأة[١١].

وتشوقت السيدة ابتهاج إلى آفاق أبعد من الكلية الأميركية فقلبت نظرها فيما يحيط بها ووقفت على مفترق الطرق تفكر في وسيلة تنمي ثقافتها، وتقيض لها دراسة أعلى لتكون إحدى الفرادى الموهوبات المتسللات إلى الدراسة الجامعية، لكن الأوضاع العامة آنذاك لم تكن مستعدة لفتح مثل هذا الباب أمامها فعكفت على مكتبة والدها تعلّ منها وتنهل في السرّ والعلن، وتنشر مقالات في الصحف تحت أسماء مستعارة تودعها ما فاضت قريحتها وأحاسيسها وتطلعاتها. لكن طموحها وتعطشها للمعرفة لم يقفا بها عند هذا الحد بل حملاها على متابعة دراستها في بيتها نهمة ظمأى على يد أخصائيين، فتفقهت بأمور الدين والدنيا، وأجادت ثلاث لغات قراءة وكتابة وحديثاً وخطابة وهذه اللغات هي العربية والانكليزية والفرنسية[١٢] خاطبت بها أفذاذ السياسة وجهاً لوجه، وجرى قلمها الأدبي على مختلف المواضيع والخطب



دولة الرئيس الحاج حسين العويني في حفلة تكريم السيدة ابتهاج قدورة التي اقامتها رابطة الجمعيات النسائية الخيرية الاسلامية لاحياء بيروت عام ١٩٦٤م.

السياسية والقومية والاجتماعية والتربوية والأدبية والاقتصادية كما سيتضح في حديثنا اللاحق ولمن أراد الاستفاضة في ذلك فيمكنه الرجوع إلى مقالاتها في المؤتمرات المختلفة المحلية والعربية والعالمية[١٣].

ومما يجدر ذكره أنه بالرغم مما أعطته الرائدة ابتهاج من قلبها وعاطفتها وصحتها ووقتها للعمل الاجتماعي وللنضال السياسي فقد بقيت سيدة بيت من الطراز الأول تتقن الحديث والاستقبال والخياطة والتطريز، وتنسيق الزهور والعزف على البيانو، وتمثل الذوق الرفيع في المآكل والملبس، كما اتصفت بحضور النكتة وسرعة البديهة وهدوء الطبع ورقة الألفاظ، والتضحيات والعطاء في سبيل أسرتها والسهر بجانب سرير أمها أو أحد أفراد عائلتها[١٤] وفي ذلك تقول الأديبة اللبنانية سلمى صايغ عضو العصبة الأندلسية في المهجر ما يلي:

«وهذه بهجة الساعات والأيام ابتهاج قدورة الصورة الحية لبر البنات بأماتهن، إنها مخطوبة مذ سمعتْ بأسمها أذني إلى سرير أم مريضة، هي ذي تطل بذلك الاطلاع الواسع، والديبلوماسية الفذة، والتهذيب الرفيع، وذلك التحليق العالي الصحيح فوق ما نسميه التعصب الديني، وما يلابسه من حفيظة وضغينة وتدجيل»[١٥].

٢ - الجو العام:

إن الزمن وأحداثه أمران بالغا الأهمية في رسم إطار نضال الزعيمة ابتهاج لذلك سنتعرف على الجو العام بايجازنا لوضع المرأة العربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبذكرنا للأحداث الهامة التي عاصرتها الرائدة ابتهاج.

(أ) ماذا كان وراء ابتهاج:

عرف القرن التاسع عشر بعصر انحطاط المرأة ومواتها والحكم عليها بالشلل المصطنع، وقد بدأ تعليم الفتاة في بلاد الشام - بوجه عام - في منتصف القرن التاسع عشر بمباشرة الإرساليات الأجنبية غالباً، الأمر الذي أيقظ وعي السوريين في الساحل والداخل إلى افتتاح مدارس خاصة بالذكور وأخرى خاصة بالإناث، وكان من نتاج ذلك تأسيس جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية عام ١٨٧٨م، ثم توالى بعدها إنشاء المدارس الوطنية والأجنبية التي التحقت بها بنات الصفوة في المجتمع، علماً بأنه لا عبرة بواحدة من

ألف تعلمت، لكن لا مندوحة لنا عن القول أن هذه المدارس كانت سبباً في نهضة نسائية مرموقة في مطلع القرن العشرين كما ساهم في إيقاظ وعي الفئة التي تعلمتْ أقلام العناصر الأدبية والسياسية المناصرة للمرأة سواءً أكانت مجددة أو محافظة[16]، وكذلك جهود النساء العربيات اللاتي خدمن العلم والأدب تأليفاً وترجمة[17]. ورغم كل ذلك كانت المرأة إجمالاً تعيش في عزلة تامة عن العالم ثقافياً واجتماعياً وقانونياً تجهل انسانيتها جهلاً مطبقاً، والنظرة السائدة إليها يمثلها المثل الدارج «المرأة ناقة ولو هددت»[18]. حتى ان الصحافة لم تجرؤ آنذاك وبعد ذاك على كسر طوق التقاليد وذكر جهود المرأة بدليل ما نقرأه من خلال سطور المقتطف التالي للأديب نصير المرأة جرجي نقولا باز حيث يدعو في إحدى الصحف الصادرة في مطلع القرن العشرين الصحافة إلى أخذ دورها الملائم بالنسبة للمرأة في نشر وترديد خطابات الأديبات المعروفات دون ذكر لأسمائهن ومن بينها الزعيمة ابتهاج على ما أعتقد إذ يقول:

«وفي الأمس كانت حفلة جمعية الأمور الخيرية للبنات المسلمات في ناديها المؤسس منذ عامين، وهي ذات مدرسة ابتدائية سيكون لها شأن إن دامت الهمة مبذولة فيها ودام التقدم رائدها والاخلاص والتحرر باعثين عليها فتشرفت آذان مدعويها بأحاديث فئة مستنيرة منها أديبتان معروفتان، ولا أدري من يردد حديثهم من معشر الصحفيين.[19]».

إن مسببات تخلف المرأة كثيرة نسوق مثلاً منها: التخلف الحضاري الذي أصاب المنطقة العربية طوال عهود الاستعمار، ورجعية بعض الأفكار التي احتفظت بنفوذها القوي على الجماعة خاصة في الأرياف والمناطق الزراعية، والانحطاط الفكري الذي ألقى بظلاله على المفاهيم الروحية وأخرجها عن روح المعاني التي وجدت من أجلها[20]، هذا مع العلم أن الدين سبق جميع الحركات الاصلاحية في العالم في تحرير المرأة وتمكينها من اداء وظيفتها في المجتمع دون عوائق، يضاف إلى الأسباب السابقة رضاء جميع الديمقراطيات في العالم عن استئثار الرجل بالسلطة وانفراده بها.(21)

ومهما تكن المسببات فالتوسع في إحداث المدارس، وأقلام أنصار المرأة المجددين منهم والمحافظين، وأقلام الشعراء والسياسيين والأدباء أدت إلى حركة نسائية مرموقة تشبه الطفرة بالقياس إلى ما كان يسود وضع المرأة آنذاك والنظرة إليها، وفيما يتصل بأوضاعها وشؤونها من قوانين أو مواصفات أو أعراف، وقد مهدت هذه الطفرة لرائدتنا وواجهتها ومعاصراتها المناضلات من السيدات بمصاعب نشطن إلى تذليلها.



دولة الرئيس عبد الله اليافي في منزل السيدة ابتهاج قدورة يقلدها وسام الاستحقاق في حفل من السيدات تقديراً لنضالها.

(ب) وماذا كان حول ابتهاج؟

تأثرت حركة النهضة النسائية في لبنان في ازدهارها وركودها بالأحداث السياسية والاجتماعية المحلية العربية والعالمية، ومن أهم هذه الأحداث التي أخذت مجراها في القرن العشرين، وعاصرتها الزعيمة ابتهاج وتأثرت في نضالها بمدها وجزرها أحداث كالتالية: تأسيس جمعية تركيا الفتاة ولجنتها التنفيذية «الاتحاد والترقي» التي عمدت إلى تتريك العناصر في البلاد عن طريق المرأة بالذات، كما دعت إلى الطورانية، وفوقية العنصر التركي الأمر الذي أذكى الشعور القومي بشكل غير مباشر، وأزّم الحالة السياسية في الداخل وأدى إلى انقلاب النوادي والجمعيات الأدبية المؤسسة قبل إعلان الدستور العثماني عام ١٩٠٨م إلى نوادٍ وجمعيات سياسية علنية وسرية .مثل جمعية الفنون والعلوم، العلمية السورية، الجمعية السرية، الجمعية الشرقية، رابطة الوطن

العربي، كما أدى إلى تأسيس جمعيات ونواد وأحزاب سياسية جديدة في كل من بيروت ودمشق واستنبول وباريس بقيادة خيرة المثقفين من الأحرار، مثل جمعية الإخاء العربي العثماني، المنتدى العربي، حزب اللامركزية الاداري العثماني، الجمعية القحطانية، العربية الفتاة، الاصلاح، العهد... الخ. وقد أقيمت المؤتمرات العربية التي من أهمها مؤتمر باريس عام ١٩١٣ الذي تماشى مع فكرة وأهداف الجمعيات الآنفة الذكر على اختلاف طوائف واتجاهات مؤسسيها وأعضائها - من حيث الانصهار بفكرة القومية العربية - التي تأثرت بها الزعيمة ابتهاج وتبنتها وأعربت عنها في محاضراتها في المناسبات المختلفة، ومن حيث المطالبة بإجراء الاصلاحات في البلاد العربية، وإنشاء لامركزية عربية في كل ولاية عربية للنظر في حاجاتها، واعتبار اللغة العربية لغة رسمية، وحصر الخدمة العسكرية للعرب ضمن الحدود العربية[٢٢].

يضاف إلى ما سبق ذكره من أحداث بداءة الحرب العالمية الأولى وما رافقها من توجه عربي بعيد عن الدولة العثمانية استخدم حياله جمال باشا السفاح الحاكم العام على سوريا والقائد العام للجيش الرابع المرابط في سوريا، وأحد غلاة الاتحادين - سياسة التجويع والأفقار، ومصادرة الخيول والبغال والمحاصيل والمواد الغذائية والكسائية والوقود ومواد البناء وغيرها والقسر في مبادلة العملة الذهبية بالعملة التركية البخسة الثمن، وفرض الضرائب مما أدى إلى موت مئات من الناس جوعاً بعد أن عزّ عليهم قشر البطيخ والخبز واللحم والخضار، أو مرضاً بعد انتشار الأوبئة والأمراض السارية كالتيفوس نتيجة لفقدان العناية الصحية والأدوية، وأضاف جمال باشا إلى قسوة الطبيعة ورهبة السلطان تسليط سيفه على رقاب الأحرار وأنفسهم فأصابهم بالقتل والنفي والتشريد وعلق مشانقهم دون محاكمة[٢٣].

ومن الأحداث الأخرى التي عاصرتها ابتهاج معاهدة (سايكس بيكو) الناقضة لاستقلال العرب، والمجزئة لوحدتهم والموجهة لصالح الصهيونية، ووعد بلفور بالوطن القومي الصهيوني بفلسطين العربية، وانتصار الحلفاء، وانسحاب الأتراك من سوريا ولبنان، وإقامة فيصل حكومة عربية في دمشق، ورفع العلم العربي في بيروت، وعقد المؤتمر السوري العام بدمشق والذي أكّد على وحدة واستقلال سوريا وفلسطين ولبنان، والمطالبة بالغاء (معاهدة سايكس بيكو)، وبعثة كرين - كنج لاستطلاع رأي أهل البلاد في حقيقة النقمة على الاستعمار وممثليه وأعوانه، ومعاهدة (سان ريمو) التي تقاسمت بموجبها فرنسا وانكلترا بلاد المشرق العربي، واحتلال المرأة الغربية لبعض مناصب الدولة، وقيام لجنة شؤون المرأة العالمية، ونهاية الحكم الفرنسي على لبنان وبداية الحكم المشترك، والمعاهدة اللبنانية الفرنسية، ومشروع تقسيم فلسطين، والحرب العالمية الثانية، والاستقلال اللبناني، ثم تعليق الدستور اللبناني من قبل الفرنسيين، واعتقال الشيخ بشارة الخوري وصحبه من أعضاء الحكومة، وقيام شرعة الأمم المتحدة التي أبرمها البرلمان اللبناني، ووثيقة اعلان حقوق الانسان، وجلاء الجيوش الفرنسية عن لبنان، وإسهام لبنان في الأحداث العربية، ونكبة فلسطين والاعتراف للمرأة السورية بحق انتخاب ممثلي الشعب في الندوة النيابية، وثورة جمال عبد الناصر وإستعادة قناة السويس، والوحدة بين سوريا ومصر، ثم الانفصال وحرب الأيام الستة التي احتلت اسرائيل بنتيجتها الضفة الغربية لنهر الأردن وسيناء ومرتفعات الجولان.

بعد طوافنا السريع السابق المتعلق بوضع المرأة العام في النصف الثاني في القرن التاسع عشر، والأحداث التي عاصرتها الرائدة العربية ابتهاج سننتقل بالقارئ إلى لمحة حول نضال الزعيمة الاجتماعي.

٣ - لقطات من نضال ابتهاج الاجتماعي:

سمت خصائص الزعيمة النسائية الكبيرة لكل ما فيه نصرة الانسانية والوطنية لذلك أبت أن تقبع في النعمة والرفاهية والدلال وأن تحلم، على زهرة العمر والجمال، بفارس الأمل والشباب، وحولها أحداث وأوجاع اجتماعية ووطنية وإنمائية هتافة في أعماق نفسها. لقد كان العمل الاجتماعي المتواصل خاطباً لودّها فأتته بكل شبابها وقوتها على النضال لاعتقادها اعتقاداً راسخاً بأهمية العمل الاجتماعي وضرورته لكل فتاة.



فخامة الرئيس بشارة الخوري وعلى يمينه ابتهاج قدورة رئيسة اللجنة النسائية لدار الايتام الاسلامية.

وتحدثك عن ذلك باحساس ملتهب، وفي ذلك تقول:

«إن العمل الاجتماعي واجب كالحقوق تماماً، وكل فتاة ينبغي أن تخصص جزءاً من وقتها لكل ما يتعلق برعاية الطفولة والتمريض في المستشفيات ولكل قضايا بلدها»(٢٤).

ان المتأمل في قول الزعيمة السابقة يرى فيه دعوة صريحة، ونظرة ثاقبة إلى إصلاح مفاهيم التعليم في كافة المراحل التعليمية وضرورة بنائها على دعامة أساسية، من دعائمها وهي الجانب الاجتماعي القائم على الاحتياجات والمشكلات المحلية اللبنانية الملحة وكيفية الوفاء بمواجهتها لها توصلاً إلى التحسين النوعي في المجتمعات التي تخدمها، توصلاً إلى المحبة والسلام اللذين لن يترعرعا إلا في ظل التأكيد العملي الاجرائي على ايجاد الحلول للمشكلات الاجتماعية القائمة في البيئات المحلية اللبنانية المختلفة.

حملت الرائدة الاجتماعية علم العلم، ونادت بوجوب إلزام تعليم الانثى لتصبح زوجة صالحة وأماً حكيمة مستنيرة تستطيع أن تنشئ جيلاً يحمل مسؤولية الحرية والاستقلال. معتقدة ان الاصلاحات الشعبية تبدأ بتعليم وتربية المرأة باعتبارها العنصر الأول المسؤول عن الطفل ديمومة الانسان الأول في إنسان المستقبل، ورمز الخلود في هذا الوجود وعلى رعايته وتوجيهه والاعتناء به وتربيته تربية سليمة يتوقف وجود المواطن الصالح، بالاضافة إلى اعتقادها أن كفاح القلة من أمثالها في مختلف الميادين يبقى ضائعاً أو محدوداً إذا لم يتواصل الجهد، وما لم يتصف بالشمول. لذلك تجدها دأبت على المساهمة البانية في تأسيس الجمعيات النسائية والسهر المستديم عليها والجود بالنفس والمال والكفالة المصرفية لاحتياجات بعضها عندما دعت الحاجة إلى ذلك وقد نما إحساسها الاجتماعي مبكراً بدليل انها بدأت تأسيس جمعية «يقظة الفتاة العربية»، في سن لا تجيز لها الحصول على ترخيص لتلك الجمعية فتوجهت هي وصديقاتها المندفعات إلى العمل إلى إحدى كريمات سيدات بيروت السيدة «نجلاء بيهم» وحصلت على الترخيص بتأسيس الجمعية المذكورة باسمها. ومن نشاطاتها الاجتماعية مع طائفة من السيدات اللبنانيات اللاتي عرفن بالوعي والوجاهة وحب الخير والمصلحة العامة تأسيس النشاطات التالية:

- جمعية يقظة الفتاة العربية لتعليم الفتيات اللاتي لا يستطعن إلى ذلك سبيلاً.
- ملاجئ لاحتضان الصغار ضحايا الحرب

العالمية الأولى وتعليمهم العلوم والحرف، وقد بلغ من حدبها عليهم وعنايتها بهم انتقال عدوى التيفوس إليها الذي كاد يودي بحياتها.

– أول ناد ثقافي نسائي أطلق عليه «نادي جمعية الأمور الخيرية للفتيات المسلمات» أقيمت فيه حفلات شهرية حضرها كبار الشخصيات من الرجال والنساء، وتوالى على منبرها الخطباء، وكذلك الخطيبات اللاتي اسمعن أصواتهن من وراء حجاب في البداية، وقد أنشئت في هذا النادي مكتبة للمطالعة، وتعلمت فيه الفتيات الموسيقى والرسم والتصوير، ومثلت عليه خير المسرحيات.

– اللجنة النسائية لدار الأيتام الاسلامية وتسلم عمادتها منذ عام ١٩٣٠ حتى عام ١٩٥٢.

– جمعية النهضة النسائية في بيروت بهدف تنشيط اليد العاملة وتشجيع الصناعة الوطنية وإقامة المعارض تبعاً لذلك، والعناية بالصحة حيث أنشأت مستوصفاً بالمصيطبة وافتتحت مدارس لمحو الأمية عن المرأة في القرى النائية في الجنوب، وانشئ بجانب كل منها مركز لتعليم الخياطة، وسائر الأشغال اليدوية.

– لجنة مخاطبة وزراء المعارف لالتماس إصلاح مناهج التعليم.

– المجلس النسائي اللبناني الذي انضم فيما بعد إلى الاتحاد النسائي العربي، وقد تسلمت أمانة السر، ونيابة رئاسته ورئاسته في فترات مختلفة وقد انتخبت رئيسة للاتحاد النسائي العربي بالتزكية عام ١٩٤٩م بعد وفاة الزعيمة المصرية هدى هانم شعراوي وتناولت رئاستها مدة ثلاث عشرة عاماً في الفترات الواقعة بين: ١٩٤٩ – ١٩٥٧، ١٩٦٢ – ١٩٦٧.

تأسيس جامعة نساء لبنان توحيداً لجهود النسوة اللاتي تظاهرن استنكاراً لاعتقال الشيخ بشارة الخوري ورياض الصلح وعبد الحميد كرامة... والتي أصبحت فيما بعد جزءاً من الجمعيات بعد اتحادها وتسميتها المجلس النسائي اللبناني الذي كانت أول رئيسة له.

– رابطة الجمعيات النسائية الخيرية الاسلامية لأحياء بيروت، والتي ضمت الجمعيات العشر التالية:

ورئيساتها المدرجة أسماؤهن:

● التعاون الاجتماعي لمحلة الطريق الجديدة، السيدة أمينة حلمي فروخ.

● الجمعية الخيرية النسائية لمحلة زقاق البلاط، السيدة جلسم طبارة.

● نصرة البائس لمحلة الأشرفية، السيدة زهراء بيضون.

● إغاثة المريض لمحلة رأس النبع، الآنسة نعمت جارودي.

● الثقافية الخيرية لمحلة البسطة، الحاجة فاطمة قرنفل.

● إقالة العاثر لمحلة المصيطبة وبرج أبي حيدر، السيدة وداد عانوتي.

● الترفيه عن الفقير لمحلة الصنائع، والزيدانية، الحاجة فاطمة القصار.

● الجمعية الخيرية لرأس بيروت العلوي المريسة، السيدة نعمت جنبلاط ملك.

● الجمعية الخيرية لسيدات دار المسنّين وضياء الحق، السيدة حامدة الشيخ الهبري.

● جمعية معونة المحتاج، رمل الظريف، السيدة صفية جبر.

ومما هو جدير بالذكر أن مشروع العيلة كان في إطار كل جمعية من هذه الجمعيات حيث حرصت كل منها على رفع مستوى العائلات الفقيرة صحياً ومادياً واجتماعياً وتربوياً، كما أُتبع بكل منها مشغل لتعليم مهنة الخياطة والتطريز، ودور حضانة وأمومة، وقد ألحقت بالرابطة حضانة وروضة وقسم ابتدائي نموذجي في منطقة الحرش يلتحق بها الطفل من ٣ شهور مساعدة للأم العاملة وللأم المتعبة وهي برعاية بدائل قادرة على تربية الطفل ورعايته، وقد رغبت الأعضاء بتسمية هذه المدرسة النموذجية باسم الرائدة ابتهاج لكنّ تواضعها وجهدها الصامت دفعها إلى الاعتذار عن قبول تلك التسمية، لكن الأعضاء أصروا على تسميتها «بهجة الأطفال» تيمناً باسم التحبب الذي كانت تنادى به، اعترافاً بما لها من فضل وأيادٍ بيضاء على الرابطة نذكر منها على سبيل الإشارة لا الحصر كفالتها للبيت الذي تم شراؤه للرابطة من أحد البنوك لما يزيد عن ثلاث سنوات وعلى مبلغ ٧٥ ألف ليرة لبنانية.

مكتفيين بهذا القدر من الحديث حول نضال الزعيمة الاجتماعي متناولين وجهة أخرى توجهت إليها

الرائدة ابتهاج يتمثل بها نضالها السياسي.

لقطات من نضال ابتهاج السياسي:

كان صوت الرائدة ابتهاج أول صوت نسائي ارتفع في شرقنا في القرن العشرين مطالباً بحقوق المرأة المدنية والسياسية، التي أعطتها التشريعات والدساتير للرجل الأمي، ومنحتها للسارق والفاسد والمحتال وحرمت منها المرأة أم الرجل وزوجته وأخته، كما أعلنت السيدة ابتهاج رأي المرأة المواطنة في الأحداث السياسية الهامة التي مرت بلبنان والوطن العربي والتي أشرنا إليها في حديثنا السابق في هذا المقال والمتعلق «بالجو العام»، لذلك سنقدم فيما يلي لقطات من نضال ابتهاج السياسي.

(أ) نضال ابتهاج في سبيل نيل المرأة اللبنانية حقوقها السياسية والمدنية:

كان الدأب في النضال لتحرير المرأة ورفع شأنها من مزايا الزعيمة فقد دعمت بكل قواها حق المرأة بإمكانية مجاراتها للرجل في كافة الميادين بالاستناد إلى كفاءاتها: كما آمنت أن عليها رسالة ينبغي أن تؤديها إلى جانبه، فتساهم معه في النضال القومي تجنباً لاصابة المجتمع بالشلل النصفي لافتقاره إلى عناصره الأساسية، كما رأت في الجمهورية الديمقراطية أسماً فقط ما لم يتمتع الجنسان وعلى قدم المساواة في الحقوق السياسية، هذا مع مطالبتها للمرأة بكل ما عليها من التكاليف والتبعات تجاه زوجها وأطفالها وبيتها ومجتمعها ووطنها، داعية إلى كل ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة، والمتابعة بنفس طويل، وصبر لا ينفد مستندة – في اعتقادنا – في كفاحها ودعوتها إلى الأمور التالية:

– تربيتها الروحية التي أرشدتها إلى أن الدين قد صفّى قضية المرأة تصفية نهائية إذ اعتبر المرأة أو الرجل إنساناً يقف كل منهما مع الآخر على قدم المساواة، ويتمتع في حقوق هذه الانسانية بما يتمتع به الآخر سواء بسواء.

– ممارسات أساليب التنشئة السليمة في أسرتها والقائمة على أساس المساواة في الحقوق والواجبات ودونما تمييز بين ذكر وانثى.

– شرعة الأمم المتحدة التي صدقها البرلمان اللبناني دون أي تحفظ.

– وثيقة إعلان حقوق الانسان.

– القرارات التي أصدرتها لجنة شؤون المرأة في دورتها الثانية والثالثة والتي أيّدها وأقرّها مندوب لبنان لدى المجلس الاقتصادي والاجتماعي وأبرمتها الجمعية العمومية.

– المادة السابعة من الدستور اللبناني والتي تنص على مساواة كل اللبنانيين لدى القانون، وعلى تمتعهم بالحقوق المدنية والسياسية وتحملهم الفرائض والواجبات العامة دونما تفريق بينهم.

وبالرغم من الدعائم السابقة التي قام عليها إيمان ابتهاج بما تفعل من أجل المساواة في الحقوق المدنية والسياسية لا غنى لنا عن القول أن حركة المطالبة بهذه الحقوق منيت بالركود بعد الحربين العالميتين لأسباب كثيرة نرى منها: انصراف الرجال والنساء عن كل اهتمام بالاصلاح إلى الكفاح ضد مفاجآت الاستعمار ومؤامرته السافرة والمستترة، ومحاولاته لانتزاع استقلال البلاد، وإشغالها في المشاغل الداخلية التي تبقيها في حالة تخلف مستديم، وانكماش أولئك الذين يأخذون على الغرب تساهله وتسامحه مع نسائه وتطرفهن في الحرية المعطاة لهن، وخشيتهم ان يكنّ عوناً للأجنبي المحتل على نشر قشور مدنيته التي لا تتلائم مع القيم والعادات اللبنانية العربية، لكن الزعيمة ابتهاج مع ذلك لم تفقد العزم ولم تيأس ولم تهمل قضية المرأة خلال الحربين العالميتين وبعدهما، ومن نشاطاتها تلك، الوثيقة التاريخية التي قدمتها إلى فخامة رئيس الجمهورية عام ١٩٣٦م بوصفها رئيسة للاتحاد النسائي في لبنان بعد اطلاعها على نصّ المعاهدة اللبنانية في الصحف، وعلى المادة ٦ و٦ مكرر تلك الوثيقة التي قدمتها وفاقت في مضمونها كل الوثائق الأخرى التي قدمت بصدد الحقوق السياسية للمرأة، والتي ورد فيها ما يلي:

«قلتم يا فخامة الرئيس: «لي الشرف أن أثبت لفخامة رئيس الجمهورية الفرنسية بأن الحكومة اللبنانية تضمن لجميع تبعيتها بدون تمييز المساواة في الحقوق المدنية والسياسية» وأنا أتساءل هنا: «هل المرأة من أصل لبناني، وهل المولودة والمقيمة في لبنان تدعى تبعية لبنانية أم لا؟ فإذا كانت كذلك فقد نالت

اعترافاً صريحاً من فخامتكم بمساواتها بالرجل في الحقوق المدنية والسياسية، وإلا تكون قد اعتبرت تبعية أجنبية، فأتساءل حينئذٍ إلى أية جنسية تنتمي هذه المرأة؟». (٢٥)

فأجابها الرئيس «إده» على الفور بأن الدستور اللبناني ضمن لها هذا الحق، إلا أن قانون الانتخابات حصر الحقوق السياسية بالذكور دون الإناث(٢٦).

وتصدت عام ١٩٤٣ للرد على حجج معارضي الاعتراف بالحق السياسي الكامل للمرأة، وكانت يومها أيضاً رئيسة للاتحاد النسائي العربي في لبنان، فجاءت بالجواب الراجح التالي:

«إن النيابة ليست وظيفة ولا مهنة، وهي في الحقيقة ليست سوى انتداب، فكما أن النائب لا يتخلى عن أعماله أثناء تمرسه بالنيابة، فالمرأة كذلك لن تتخلى عن عملها في البيت أثناء تمرسها بالنيابة، إن المرأة لا تتنازل عن مركزها في البيت مطلقاً، ولا تتخلى عن واجباتها عندما تحاول أن تخدم بيتها الأكبر اجتماعياً وسياسياً»(٢٧).

وواصلت النضال فأقامت الاجتماعات والندوات، والمؤتمرات مع بعض من زميلاتها ونخبة من الرجال المناصرين والمؤمنين بنيل المرأة لحقوقها، وتزعمت رفع العرائض، ففي عام ١٩٤٣م رفعت مذكرة باسم الاتحاد النسائي طالبت فيه بحقوق اللبنانية السياسية، فتبناها عشرة نواب، قدموا عام ١٩٤٤م اقتراحاً في المجلس يمنح المرأة حقوقها الانتخابية والتمثيلية كاملة ،لكن المجلس النيابي رفض هذا الاقتراح، فعاودت الموضوع بإلحاح عام ١٩٤٩م مستثارة العواطف بوثبة المرأة السورية غير المرتقبة في ذلك العام بالذات بالاعتراف بحقها في ان تنتخب ممثلي الشعب في الندوة النيابية، ونتيجة لمثابرة الزعيمة ابتهاج يدعمها الاتحاد النسائي وأصوات النساء في كل مناطق لبنان، اقترحت اللجنة التشريعية في المجلس النيابي الاعتراف التدريجي بحقوق المرأة السياسية، فقوبل هذا الاقتراح بالاحتجاج الشديد، وتوجهت السيدة ابتهاج بمظاهرة كبيرة في آذار – عام ١٩٥١م، ودخلت إلى المجلس النيابي على رأس وفد يمثل الاتحاد النسائي اللبناني، وسلمت مذكرة إلى رئيس المجلس تضمنت احتجاج المرأة على ذلك الاقتراح الأبتر، وتجاوبا من المسؤولين مع ذلك صدّق مجلس الوزراء على مشروع قانون ينص على المساواة الكاملة بين الجنسين في الانتخاب والتمثيل، لكن مشروع القرار بقي غير ساري المفعول، فافتتحت السيدة ابتهاج عام ١٩٥٢ اجتماع الهيئات النسائية الذي رعته عقيلة رئيس الجمهورية، وحضره ممثلون عن الهيئات والكتل والنواب، والقت كلمة بليغة أوضحت فيها أهداف المرأة وحقها المقدس في المساواة بالرجل، وفي عام ١٩٥٣م، وافق المجلس الوزاري على اعطاء عامةٍ حق الانتخاب دون الاجبار فيه. ورداً على ذلك الإقرار الرسمي تشكل وفد نسائي لبناني ممثل لمختلف مناطق لبنان وقام بزيارة القصر الجمهوري حيث القت الزعيمة كلمة جامعة(٢٨) مناسبة.

ومما يجدر ذكره انه في نفس عام اعطاء المرأة حق الانتخاب انتخبت المناضلة ابتهاج وزميلتان لها هما السيدتان لور تابت والين ريحان عضوين في المجلس البلدي فقطفت المرأة أولى ثمرات جهادها بهذه المبادرة الرسمية من الحكومة اللبنانية التي تعترف بمساواة المرأة والرجل في مهمة رسمية(٢٩).

وثمة زاوية أخرى رنت اليها ابتهاج وارتقبتها أيضاً أعين الفتاة الجامعية وهي المساواة في الوظائف حيث وجه اليها اتحاد الجامعيات اللبنانيات في ١٩٦٠/٩/٢٦ – بصفتها رئيسة جامعة الهيئات النسائية – مذكرة ناشدتها فيها دعمها لمساواة المرأة في فرص العمل، فتبنت تلك المذكرة عملاً بالمادة الثانية من الدستور اللبناني التي تنص على أنه لكل لبناني الحق في تولي الوظائف العامة لا ميزة لاحد على الآخر الا من حيث الاستحقاق والجدارة(٣٠)

(ب) نضال ابتهاج الوطني:

ابت ابتهاج المدافعة عن حقوق المرأة المدنية والسياسية وقد رأت احرار الشعب اللبناني العربي وأعلام الرأي والسياسة ثائرين منافحين عن الحمى وقضاياه القومية فشاركت في هذا النضال الوطني بوعي واقتدار وشعور فياض أحلها مكانة مرموقة وقلدها رتباً فخرية عالية(٣١).

تلاقى في ردهات بيتها ونوادي ما ساهمت في تأسيسه من جمعيات، الساسة والكبراء والأدباء والشعراء والأجانب من الرجال والنساء وكانت من بينها تنطلق جذوة مختلف الأحداث السياسية فهي التي تنظم وترتب ما ينبغي القيام به. ثم تعرض بنغمتها الخاصة التي لا تعرف فرض الآراء بل تعرض عرض أولئك الذين وضعت على أكتافهم التبعات فيقومون بها ثم يجيئون وادعين سائلين الرضا والموافقة والاعتراض ليصلحوا الهفوات ولينزلوا عند رأي الجماعة(٣٢).

إنها أول فتاة ناضلت ضد الأتراك بعروبة متفتحة نمت في عروقها زادها ضغط الحكم التركي وتتريكه للعناصر النسائية نمواً وتوقداً ومن مواقفها مثولها أمام جمال باشا اثناء زيارته لملاجئ الأطفال والقاؤها كلمة أمامه باللغة العربية. اثارت دهشته لعدم القائها باللغة التركية أخذاً بسياسة تركيا الفتاة. وكلف احد مرافقيه أن يوجه اليها بعض الأسئلة التي أجابت عليها بجرأة وثبات وحكمة وعزة قومية أقوى من الغطرسة التركية وسياستها التتريكية. وفيما يلي الأسئلة وأجوبتها:

– هل أنت من رعايا الدولة العثمانية؟

نعم.

– هل تعرفين اللغة التركية؟

كلا.

– هل تجيدين لغات أخرى غير العربية؟

نعم الانكليزية والفرنسية.

– لماذا لا تتكلمين التركية وأنت من رعايا ومواطني الدولة العثمانية؟

استأذنت سعادة الباشا بسؤال تطرحه فأذن لها بذلك فقالت.

سعادتك مسلم فلماذا لا تعرف لغة قرآنك ودينك؟

ومرت لحظات رهيبة برفيقاتها وبأعيان الطائفة الاسلامية مرافقي الباشا المعروف بغطرسته وجبروته وروحه التعسفية التي تطبق القانون. لكن بدل رهبة تلك اللحظات رؤيتهم جمال باشا يربّت على كتفها اعجاباً بجرأتها وبسرعة بديهتها وببلاغتها وموضوعيتها قائلاً: سنلتقي في العام القادم وأجدك تتحدثين التركية وتجدينني أتحدث العربية.(٣٣).

ومن مواقفها الوطنية تخطيطها لمقابلة لجنة كريف-كنج عام ١٩١٩م رغم ما اتخذه الفرنسيون من تدابير للحيلولة بين الأحرار وبين الوصول إلى اللجنة، واستقبالها للجنة التي زارت المناضلة ابتهاج في النادي النسائي في ٨ تموز ١٩١٩ واستمعت الى تمثيل المرأة المسلمة اللبنانية برئاسة ابتهاج قدورة ومذكرتها التي جاءت تحت عنوان تمنيات المرأة العربية(٣٤) طالبت فيها ببرنامج دمشق الذي يتضمن ما يلي:

«طلب الاستقلال العام لسوريا بحدودها الطبيعية ورفض كل حماية ووصاية، ومنع المهاجرة الصهيونية، وعدم تجزئة سورية، وتأليف حكومة ديمقراطية حرة برئاسة سمو الأمير فيصل، وتنظيم قانون أساسي تراعى فيه حقوق الأقليات، والاحتجاج على المادة ٢٢ من عهد جمعية الأمم القائلة بإدارة الولايات المتحدة المحررة للانتداب، وأنه إذا كان لا بد من إصرار مؤتمر الصلح على انتداب دولة إلى سورية، وبناء على تصريحات الرئيس ويلسن المتضمنة ان الدولة المنتدبة تكون لنفع الشعب لا لنفسها، ترى اللجنة أن تطلب هذه المساعدة من أمريكا البعيدة عن المطامع الاستعمارية في سوريا وبشروط معينة على أن لا تمس هذه المساعدة الاستقلال السياسي بل تكون عبارة عن مساعدة فنية علمية لمدة عشرين سنة فقط، وإذا رفضت أمريكا ان تقوم بهذه المساعدة فلْتقم انكلترا بنفس الشرط»(٣٥).

ويضيف (هوارد) بأن مذكرة ابتهاج قدورة لم تقتصر على برنامج دمشق بل طالبت بحق سوريا في فرص التنمية والتطوير لتحتل مكانها بين أمم العالم المسؤولة؛ ويعلق أيضاً بأن تلك المذكرة وما جاء فيها تمثل لحظات حاسمة قد تعود بالمرأة اللبنانية إلى الوراء أو تقدم بها إلى الأمام لأنها هذه هي المرة الأولى التي تطرح فيها المرأة اللبنانية العادات والتقاليد الشرقية التي تحول بين المرأة المسلمة وبين مشاركتها في الشؤون العامة(٣٦).

وبما هو حقيق بالذكر إعجاب اللجنة بذكائها وطلاقة لسانها بالانكليزية وحجتها وجرأتها ووقوفها على خفايا السياسة ولما عادت اللجنة إلى بلادها حاملة الرأي والانطباعات حول ما أحسّت به وشاهدته



السيدة ابتهاج قدورة في لقاء صدفي مع سيادة الرئيس جمال عبد الناصر في التظاهرة النسائية إلى دار الرئيس عبد الناصر بعد المؤتمر الأفروآسيوي عام ١٩٦١م.

بنفسها من مظاهر الثورة والوعي كان اسم ابتهاج قدورة من أبرز الأسماء في خواطرها وأوراقها.

وتناول حسها الوطني الجانب الاقتصادي فساهمت في فكرة البعث الصناعي في لبنان وتنشيط اليد العاملة وإقامة المعارض التي عقدت في الأعوام التالية: ١٩٢٤، ١٩٢٧، ١٩٢٨، كما شاركت مع وفد اللبنانيات الذي سافر إلى دمشق بصفة رسمية مطالباً بدعم الصناعة الوطنية واستبدال أسماء المصانع العربية بالأسماء الأجنبية على حاشية المصنوعات الوطنية وقد نجحت هي وصحبها من المناضلات في تحقيق هذه الدعوة (مسيحيات ودرزيات ومسلمات) وفي تغيير اتجاه المستهلكين السلبي نحو المنتجات الوطنية[٣٧] إلى تغيير ايجابي رافض لكل ما هو أجنبي.

ولم يكن الرجال وحدهم هبة لبنان لتحقيق الوحدة والتآخي والتفاهم وحسن النية نحو بعضهم البعض فقد حرصت ابتهاج حرص أولئك الأحرار العقلاء أصحاب النظرة التربوية الوطنية السليمة على ان مشاهدة النشئ للمرأة وهي نصف المجتمع تدعو إلى الوحدة الوطنية وتشارك عملياً في سبيل تحقيقها تدفعهم ليشاركوا هم أيضاً بإخلاص وبإحساس خالص وتحقيقاً لذلك فقد قامت السيدة خانم حسامي قدورة زوجة أخيها الصيدلي مصطفى قدورة ووالدة الصيدلي أديب قدورة بتوجيه دعوة إليها وإلى رجالات البلاد وأعيانها وقادتها الروحيين والمدنيين عام ١٩٤٣م للالتقاء في بيتها في شارع المكحول - رأس بيروت، حيث نظموا مسيرة شعبية شارك فيها الرجال والنساء.

وتوجه الشيخ منها إلى الكنيسة والمطران إلى الجامع حيث جرى تبادل الكلمات الداعية إلى الاخاء في الله والوطن، ثم اتجهت المسيرة نحو السراي الصغيرة التي كانت قائمة في ساحة البرج يتقدمها رجال الدين من مسيحين ومسلمين والأعلام اللبنانية تخفق بها الأيدي تحت وهج الشمس وجميعهم ينشدون الأناشيد الوطنية فقابلوا رئيس الوزارة الذي تأثر لهذا المشهد الوطني الرائع وللدور الوطني الذي تلعبه المرأة اللبنانية في الحياة السياسية عن كفاءة تامة ونضال جريء[٣٨].

ومن الوجهات الأخرى التي اتجه اليها نضال ابتهاج الوطن اهتمامها البالغ بالقضية الفلسطينية وتلبيتها للاستغاثات المؤثرة للمرأة الفلسطينية، ومن مآثرها مما يتعلق بذلك رفعها بتاريخ ٢٦ ايار/١٩٣٨ باسم

الاتحاد النسائي الذي كانت ترأسه، احتجاجاً شديد اللهجة إلى الحكومة البريطانية بواسطة قنصل بريطانيا في بيروت(٣٩).

ووجهت في ٧ تموز ١٩٣٨ بصفتها رئيسة للاتحاد النسائي اللبناني كتاباً جامعاً باسم سيدات العراق ولبنان وفلسطين إلى السيدة هدى شعراوي رئيسة الاتحاد النسائي العربي المصري فوضتها فيه باسم هذه الأقطار الدفاع عن قضية فلسطين لدى الهيئات الدولية، والمطالبة بحقوقها أمام لجان الانتداب، والمؤتمرات النسائية الدولية، أو أية هيئة يمكنها أن تنصر القضية الفلسطينية وتؤمن لها الحل العادل(٤٠)، واضعة بذلك أسس مكاتب الدعاية في سبيل فلسطين في كل مكان.

وعند نزوح الفلسطينيين عام ١٩٣٨م أرتأت بعض السيدات الفلسطينيات أن تسمع السيدة اللبنانية صوت المرأة العربية بشأن قضية فلسطين في مؤتمر عاجل، ولكن رأت سياسة ابتهاج الحكيمة أن مؤتمراً ابن ساعته يعقد في دمشق أو بيروت لا يأتي بالأكل الطيب في استفزاز الرجل تجاه كارثة تستنفره إليها المرأة ما لم يسبقه دعاية منظمة، وما لم يحضره مراسلو الصحف، وأصحاب الرأي من الرجال، واقترحت بناء على ذلك عقده في القاهرة، فأجمع الأعضاء على رأيها .ووجهت حينها كتاباً بذلك إلى السيدة هدى شعراوي التي استجابت لرغبة ابتهاج وكأنهما على موعد، وعقد أول مؤتمر نسائي في القاهرة في ١١ تشرين الأول عام ١٩٤٤م لكن مرض ابتهاج المفاجئ اقعدها آسفة عن حضور المؤتمر لكن مثلتها والقت كلمتها بالنيابة ابنة أخيها الصيدلي مصطفى السيدة زاهية قدورة التي كانت آنذاك تعد لنيل درجة الدكتوراه في جامعة القاهرة(٤١).

تناول المؤتمر بشكل خاص القضية الفلسطينية، واتخذت في نهايته مقررات كان لها صدى عالمي، كما انبثق عن هذا المؤتمر اتحاد جمعيات كل قطر عربي في هيئة واحدة ثم في هيئة عربية عليا جمعت في حناياها الصفوف النسائية في كل أرض عربية، وعرفت هذه الهيئة باسم «الاتحاد النسائي العربي العام»، الذي أصبح يتكلم باسم المرأة العربية وقضاياها السياسة والخاصة، كما أبرز هذا المؤتمر حسب رأي المناضلة ابتهاج تفوق المرأة في النضال السياسي على الرجل بدليل اندهاش الجماهير العربية من أول حركة نسائية عربية منظمة ومتحدة للدفاع عن قضية فلسطين(٤٢).

وفي عام ١٩٦١م ترأست وفد لبنان النسائي للمؤتمر الأسيوي الافريقي الذي عقد في القاهرة للبحث في قضيتي الجزائر وفلسطين، والقت كلمة عبرت فيها عن وجهة نظر المرأة اللبنانية واستمرار نضالها حتى ينال القطران استقلالهما وحتى يجلو عنهما الاستعمار بأشكاله المختلفة، ثم توجهت بعدها هي ورئيسات الاتحادات النسائية الافرو اسيوية لزيارة الرئيس عبد الناصر الذي استقبلهن على غير موعد وبكل ترحاب مثنياً على جهودهن، مشجعاً لهن على الاستمرار في النضال حتى تتوصل الجزائر الى استقلالها وحتى تعود الأرض السليبة إلى أصحابها(٤٣).

وواصلت ابتهاج دعوتها للمرأة العربية لكي تعمل كل ما في وسعها من أجل قضية فلسطين حتى أن آخر اجتماع عقد في بيتها كان يوم الثلاثاء قبل وفاتها بأربعة أيام، لاستعراض ما ينبغي عمله لمساعدة الفلسطيني بعد حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧م(٤٤).

٥ - وفاتها:

توفيت الزعيمة الرائدة ابتهاج والقائدة الأم لشابات العصر الحديث عام ١٩٦٧م مفعمة القلب بالأسى والحزن لنكسة حزيران عن ٧٤ عاماً قضتها في البذل والعطاء المستديم دون التفكير في جزاء، ومما يعزّينا أنها قطفت ثمرة جهادها الطويل في حياتها فرأت المرأة العربية معلمة تربي الجيل، وطبيبة تمارس الطب على مختلف فروعه واختصاصاته، وصحافية ومهندسة، وباحثة في علوم الذرة، وعضواً في المجالس النيابية ووزيرة تحمل مسؤولية الحكم في أهم مراتبها، لكن مما يؤسفنا أنها لم تجمع مذكراتها وسيرتها الضخمة بنفسها رغم تمنيات الاتحاد النسائي العربي العام عليها أن تفعل ذلك حفظاً للتاريخ وتعبيراً عن الوفاء لما قامت به وما توصلت إليه(٤٥).

بعض من تقدير:

قلدتها الحكومة اللبنانية في حياتها وسام تقدير برتبة فارس، وآخر برتبة قومندان(٤٦)، وانتخبت رئيسة

عاملة للمجلس النسائي اللبناني لدورات عديدة منذ الثلاثينات، ورئيسة عاملة بالتزكية. للاتحاد النسائي العربي العام لمدة ثلاثة عشر عاماً عاماً بعد وفاة الزعيمة هدى شعراوي(٤٧).

وفي سنة وفاتها قابلت لجنة من المجلس النسائي برئاسة السيدة «لور تابت»، رئيس بلدية بيروت، وحملت إليه رغبة المجلس النسائي بتسمية شارع من شوارع بيروت باسمها(٤٨)، كما اقترح اطلاق اسمها على مدرسة من مدارس لبنان الرسمية(٤٩).

وأجريت دورة للممرضات خريجات الصليب الأحمر في ٢٩/٦/١٩٧٠ سميت دورة «ابتهاج قدورة»، وأهيب بالخريجات أن يتخذن من الرائدة ابتهاج قدورة مثلاً أعلى في التضحية وخدمة الآخرين(٥٠).

وافتتحت السيدة اللبنانية الأولى «ايريس فرنجية» في ٦ آذار ١٩٧٤م قاعة في المجلس النسائي باسم الزعيمة «ابتهاج قدورة»(٥١).

ونختتم الحديث على غير شعور بالوفاء التام لهذه الرائدة الزعيمة، ويكفيها وفاء وسامها الدائم الذي يحمل ذكر جهادها لا في تاريخ تطور الحركات النسائية في لبنان والوطن العربي وعالمياً فقط، بل وفي التاريخ السياسي المعاصر للمنطقة العربية.

فسلام على ابتهاج قدورة في الرائدات الخالدات/وسلام عليها كلما تلفتت المرأة إلى مدرستها الفكرية الباقية على الزمان

■

المراجع

(١) مقابلة السيدة سلوى صبح نويري عضو لجنة سيدات مبرة محمد رمضان لليتيمات المسلمات، وعضو المكتب التنفيذي للمجلس النسائي اللبناني، وامينة صندوق رابطة الجمعيات النسائية الخيرية، منزلها – الاثنين ١٧ ايلول ٥ ب. ظ.

(٢) الحاج حسين العويني: ذكرى حفلة تكريم الانسة ابتهاج قدورة (بيروت: رابطة الجمعيات الخيرية الاسلامية لأحياء بيروت، ٩ آذار ١٩٦٤م).

(٣) عنبرة سلام الخالدي، المرجع السابق نفسه.

(٤) سلمى صايغ صور وذكريات (سان باولو: دار الطباعة والنشر العربية، ١٩٤٦م)، ص: ١٦٣.

(٥) أمينة السعيد: سبق ذكره، ذكرى حفلة تكريم الآنسة ابتهاج قدورة.

(٦) مجلة كل شيء، ٢٤ حزيران ١٩٦٧، ونادبا ونواف كرامي: تاريخ ورجال (صيدا: المطبعة المخلصية، ١٩٥٦م)، ص: ٥٥ – ٥٦.

(٧) مجلة «الفجر الصادق»، أعمال السنة الأولى ١٢٩٧هـ، ويوسف ابراهيم يزبك: أوراق لبنانية جـ ٢ (١٩٥٦م) ص: ٢٤٢، ومجلة «ثمرات الفنون» ١٨٨١م عدد ٣٤٢: ص٣، Alumni directory" (1870 — 1952) April 1953 P: 195»، وعلي محمد حولي: تطور التعلم في مدارس المقاصد الخيرية الاسلامية في بيروت، رسالة لنيل الماجستر في التاريخ – الجامعة اللبنانية – كلية الآداب والعلوم الانسانية ١٩٧٩.

(٨) مقابلة الدكتورة زاهية قدورة، منزلها، رأس بيروت (٢٠ تموز ١٩٧٩، ١٠ ق. ظ)

(٩) زاهية قدورة: تاريخ العرب الحديث. (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٧٥م) ص ٣٠٩ ومقابلة: دكتورة زاهية قدورة، سبق ذكرها.

(١٠) حنيفة الخطيب: تاريخ تطور الحركة النسائية في لبنان في القرنين التاسع عشر والعشرين، رسالة لنيل شهادة دبلوم دراسات عليا في التاريخ – الجامعة اللبنانية – كلية الآداب، ١٩٧٥، ص: ١٢٥.

(١١) رئيف أبو اللمع: سبق ذكره، ذكرى تكريم الآنسة ابتهاج قدورة.

(١٢) مجلة كل شيء، سبق ذكره، وحنيفة الخطيب، سبق ذكره، تاريخ تطور الحركة النسائية في لبنان في القرنين التاسع عشر والعشرين، وعنبرة سلام الخالدي، سبق ذكره، ذكرى تكريم الانسة ابتهاج قدورة.

(١٣) انظر ماري عجمي صاحبة مجلة العروس «ابتهاج قدورة»، ومجلة منيرفا العدد الأول نيسان ١٩٢٨، وأدهم الجندي أعلام الأدب والفن، ملفات مؤتمرات واجتماعات مجلس النسائي اللبناني هو الاتحاد النسائي العربي، والجمعيات المختلفة التي ساهمت في تأسيسها.

(١٤) عنبرة سلام الخالدي، سبق ذكره حفلة تكريم الانسة ابتهاج قدورة، حنيفة الخطيب سبق ذكره، تاريخ تطور الحركة النسائية في لبنان في القرنين التاسع عشر والعشرين.

(١٥) سلمى صايغ، سبق ذكره، صور وذكريات، ص: ١٤٩.

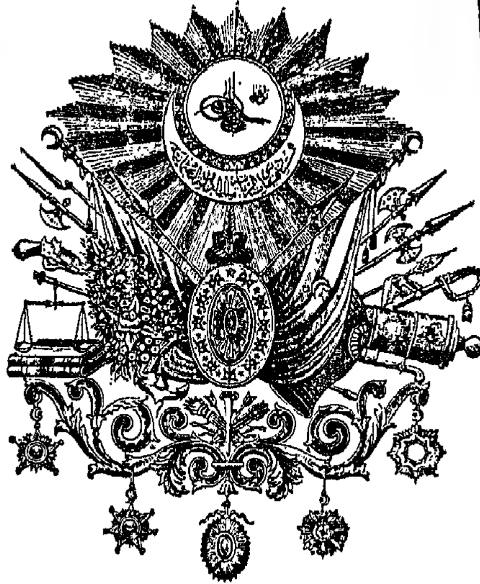
(١٦) جميل بيهم: فتاة الشرق في حضارة الغرب (بيروت: ١٩٥٦م)، ص: ٣.

(١٧) ابتهاج قدورة : اللغة والقومية «المؤتمر النسائي في بيروت ١٩٢٨م» (بيروت مطبعة صادر)
(١٨) يوسف يزبك : نصير المرأة جرجي نقولا باز (المجلة الشرقية ، العدد ١٩ ، آب/اغسطس ١٩٧٥م) ، ص ٢٨ - ٣٠
(١٩) جرجي نقولا باز : نسائيات حديثها أو حديث معها ، جريدة الحقيقة ببيروت العدد ١١٤٤ ، ٣١ تموز ١٩١٩ ، ص ٣.
(٢٠) أمينة السعيد : «النخبة في لبنان تبحث عن المواطن المسؤول ، مجلة اللواء ، الجمعة ١٦ كانون الأول ١٩٦٦.
(٢١) منيرة ثابت : ثورة في البرج العاجي (القاهرة : دار المعارف للطباعة والنشر لات).
(٢٢) أنظر : أنور الرفاعي ، وشاكر مصطفى : العالم الحديث (دمشق : مكتبة العلوم والاداب للطباعة والنشر ، ١٩٥٠). جميل بيهم : فتاة الشرق في حضارة الغرب/سبق ذكره.
(٢٣) المرجع السابق نفسه ، وخيرية قاسمية : الحكومة العربية في دمشق بين ١٩١٨ - ١٩٢٠م (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧١) ، وزاهية قدورة : تاريخ العرب الحديث ، (بيروت دار النهضة العربية ، ١٩٧٥).
(٢٤) سميرة عزت : الحركة النسائية داخل ثلاث مجتمعات عربية/المجلة الشرقية/بيروت/العدد السابع والاربعون يونيو ١٩٧٨م) ، ص : ٩٦.
(٢٥) إملي فارس ابراهيم : الحركة النسائية اللبنانية (بيروت دار الثقافة) ص ٩٨.
(٢٦) المرجع السابق نفسه.
(٢٧) سبق ذكره ، جميل بيهم ، فتاة الشرق في حضارة الغرب
(٢٨) أنظر : إملي فارس ابراهيم ، الحركة النسائية اللبنانية ، سبق ذكره ، وجميل بيهم/فتاة الشرق في حضارة الغرب ، سبق ذكره ، وحنيفة الخطيب ، تاريخ تطور الحركة النسائية في لبنان في القرنين التاسع عشر والعشرين ، سبق ذكره.
(٢٩) المرجع السابق نفسه.
(٣٠) المرجع السابق نفسه.
(٣١) نواف ونادیا كرامي ، سبق ذكره.
(٣٢) أنظر : حنيفة الخطيب ، تاريخ تطور الحركة النسائية في لبنان في القرنين التاسع عشر والعشرين ، سبق ذكره ومجلة الحسناء عام ١٩٦٧ ، العدد ٣/وسلمى صايغ ، صور وذكريات ، سبق ذكره.
(٣٣) المراجع السابق نفسها.
(٣٤) خيرية قاسمية ، الحكومة العربية في دمشق بين ١٩١٨/١٩٢٠م سبق ذكره ، ص ١١ وسعيد مراد : الحركة الوحدوية في لبنان من خلال مؤتمرات الساحل ، رسالة أعدت لنيل الماجستر في التاريخ. بيروت ، الجامعة اللبنانية كلية الآداب ، ص ٧٥.
Howard M: the Crane — King Commission (An American inquiry in the Middle East, Beirut: Khayat, 1963) P 122 — 130.
(٣٥) برنامج دمشق : المقطم ١٧ يونيو/تموز ١٩١٩ ، العدد ٩٢٢٢ ، ص ٣.
(٣٦) Idem Ibid See also: Lyber and King Diaries July, 1919
Signed by Ibtihage Kadourah July 8, 1919, the Desiderata of the Societies of Moslem Women in Beirut Submitted to the Honorable American Section of the Commission on Mandates for Turkey. This credentials Delegate in a king statments
(٣٧) مقابلة السيدة خانم حسامي قدورة ، منزلها/شارع المكحول رأس ببيروت ٢٠ تموز ، ١٩٧٩ ١٢ ظ. وسلمى صايغ ، صور وذكريات ، سبق ذكره.
(٣٨) حنيفة خطيب ، تاريخ تطور الحركات النسائية في لبنان في القرنين التاسع عشر والعشرين سبق ذكره ص : ٥١ - ٤٩.
(٣٩) المرجع السابق نفسه.
(٤٠) المكان نفسه ، وزاهية قدورة : تاريخ العرب الحديث سبق ذكره ، ص : ٥٨ ، ٥٧٩ - ٥٨٠
(٤١) حنيفة خطيب/تاريخ تطور الحركات النسائية في لبنان في القرنين التاسع عشر والعشرين ، سبق ذكره ، ص : ٥٨ - ٥٩ ، وسميرة عزت ، الحركة النسائية داخل ثلاث مجتمعات عربية ، المجلة الشرقية ، سبق ذكره.
(٤٢) المرجع السابق نفسه.
(٤٣) مقابلة السيدة وديعة خرطبيل ، منزلها رأس بيروت ، ١٩٧٩/٩/٢٩ ٣ ب ظ.
(٤٤) حتى آخر لحظة من حياتها ظلت تفكر في فلسطين ، مجلة كل شيء ، سبق ذكرها.
(٤٥) الأجتماع السنوي للمكتب الدائم للاتحاد النسائي العربي العام المنعقد في بيروت عام ١٩٦٥م.
(٤٦) نواف ونادیا كرامي ، تاريخ ورجال ، سبق ذكره.
(٤٧) نشأت الخطيب/تطور الحركة النسائية في مصر في العصر الحديث ، سبق ذكره.
(٤٨) مجلة حضانة الطفل/العدد ١١٦ ، ١٩٦٧/٨/١٥.
(٤٩) حنيفة الخطيب ، تاريخ تطور الحركات النسائية في لبنان في القرنين التاسع عشر والعشرين سبق ذكره.
(٥٠) مجلة الصليب الأحمر ، تموز آب ، ١٩٧٠.
(٥١) سبق ذكره ، حنيفة الخطيب ، تاريخ تطور الحركات النسائية في لبنان في القرنين التاسع عشر والعشرين.

الأسس العثمانية للشرق الأوسط الحديث

البروفسور ألبرت حوراني

(الحلقة الثانية)



تضمنت الحلقة السابقة من مقالة الأستاذ البرت حوراني ، معالجة لدور الأتراك في بناء السلطنات الاسلامية التي أقرها الفقهاء المسلمون بعد أن تفككت الخلافة ، كذلك تحليلاً لطبيعة الدولة العثمانية كاحدى السلطنات الإسلامية التي برزت من خلال الامبراطورية السلجوقية التي وحّدت خلال فترة طويلة من الزمن العالم الإسلامي. وفيما يلي يتابع الأستاذ حوراني تحليل بنية الدولة العثمانية وموقع العرب فيها ، وصولاً إلى مسألة الاصلاحات والتدخل الأوروبي وتفكك الدولة العثمانية ونشوء النزعات القومية فيها..

وإذا نظرنا إلى الدولة العثمانية من وجهات النظر المختلفة، باعتبارها دولة إسلاميـــة وتركيـــة وعموميـــة وجدنا أنه لم يكن فيها حواجز وحدود معينة تحجب العرب وتقصيهم عن الأنخراط في هذه الدولة (أو تحجب وتقصي على الأقل الأغلبية العظمى من الشعوب المسلمة الناطقة باللغة العربية). وقد سبق لي أن ذكرت ان الجماعة الحاكمة في هذه الدولة تركية، ولكن تركيتها هذه لم تكن على أساس الجنس أو العرق؛ وكانت الوظائف العليا في الدولة مباحة لجميع المسلمين، ولو أن الذين ملأوا هذه الوظائف كما يظهر وكانوا من أصل عربي كانوا قلة ضئيلة. ويستثنى من ذلك بعض الحالات، ومنها على سبيل المثال ابن فخر الدين حاكم لبنان الشهير في القرن السابع عشر، فقد دخل هذا في خدمة القصر العثماني بعد مقتل أبيه في أعقاب عصيانه على الدولة وأصبح موظفاً مشهوراً بين موظفي البلاط وسفيراً للسلطان لدى إمبراطور المغول في الهند. ومن ذلك أيضاً ما سمعناه عن بضع ولاة من أصل محلي في الأقاليم، كأسرة الجليلي التي حكمت في الموصل مدة استغرقت معظم القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر، وهي في الأصل اسرة مسيحية من شمال العراق ثم اعتنقت الديانة الإسلامية. ومع ذلك، فإن العرب بصورة عامة لم يكن لهم سلطة سياسية مباشرة في إدارة الحكم في الدولة العثمانية.

العرب ووظائف الدولة:

ولكن العرب وجدوا مجالاً أوسع لهم في سلك الوظائف الدينية، وكانت مراتب هذا السلك وسيلة للتنقل والعمل في المجتمع لأن لغة علوم الدين والشريعة كانت العربية، وكان العلم والتمسك بالدين من حيث المبدأ الواسطتين الوحيدتين اللتين يحتاج إليهما للوصول إلى الوظائف الدينية، هذا مع العلم بأن حقيقة الأمر لم تكن على هذا القدر من البساطة، ويدلنا على ذلك أن المراكز العليا في سلك الوظائف الدينية كانت أقرب تناولاً لخريجي المدارس السلطانية في استانبول ولأفراد الأسر التي لها عهد قديم مأثور في خدمة الدولة. حتى إن القضاة في الأقاليم كانوا يختارون من هذه الطبقة المفضلة ويرسلون من استانبول للعمل هناك لمدة محدودة، وفي هذا يتبين لنا مرة أخرى أن العثمانيين بحكم الغريزة كانوا يمنعون الفرد من رعاياهم أن تكون له سلطة أكثر مما يجب أو أن تكون له مدة أطول مما يجب. ويأتي بعد القضاة في عواصم الأقاليم موظفون آخرون كنواب القضاة والمفاتي للمذاهب المختلفة ونقباء الأشراف الحافظين لأنساب الأشراف من سلالة النبي، وهم طبقة الارستقراطيين الوحيدين من حيث النسب. وكان هؤلاء جميعاً من سكان الأقاليم المحليين، وكانوا في المدن العربية في أغلبهم من الأسر العربية العريقة الشريفة التي اشتهر عنها العلم والسيادة والزعامة، وكانت أقرب ما تكون إلى الأشراف أصحاب الطيالسة في أوروبا، وهي أسر ينتهي النسب ببعضها إلى ما قبل زمن العثمانيين وكان



الأمير بشير الثاني الكبير.

لها دور في المقدمة حتى الأزمنة الحديثة -كآل البكري في القاهرة وآل الخالدي والعلمي في القدس وآل الجابري في حلب وآل الكيلاني في بغداد. وكان هؤلاء الأشراف في عهد العثمانيين وقبله يقومون بدور الوسيط بين أصحاب السيف والسكان المحليين من عامة الناس. وكانوا في أهم الأمور موالين للسلطان مخلصين له، مع كونهم في الوقت نفسه الزعماء في مدنهم وورثة الحضارة المدنية الإسلامية. وقد حاول هؤلاء في بعض المرار أن يحدوا من جماح السلطة العثمانية أو نفوذها، وكانت الوسائط لهذا العمل متاحة لهم، لأنهم كانوا يستطيعون تعبئة الرأى العام وتجنيده عن طريق إستخدامهم للوعاظ ومشائخ الحارات وزعماء المنظمات الشعبية، بالإضافة إلى ما كان لهم من تأثير ونفوذ عن طريق الروابط المتصلة بينهم وبين أصحاب الوظائف الدينية على إختلاف درجاتهم في جميع أنحاء

الإمبراطورية وعلى رأسهم الرؤساء الدينيون في استانبول. والذي استطاعه هؤلاء في المدن كان زعماء العشائر وشيوخ الجماعات العرب يستطيعونه في الريف والصحراء – ومن هؤلاء شيوخ القبائل البدوية وزعماء الجماعات الجبلية وأصحاب القلاع والحصون كالذين منهم تولوا على قلاع الصليبيين في سوريا وأخذوها منهم من بعدهم وفرضوا من هذه القلاع سلطتهم على ما جاورها من البلاد. وكانوا، كما كان زعماء المدن وأشرافها، في وضع مبهم يقومون فيه بدور مثنوي: فكانوا يعترفون بالحكومة العثمانية في صورة من الصور وينسجمون مع الإدارة والنظام المالي، ولا يحاولون عادة الخروج عن طاعة الدولة، ولكنهم كانوا في الوقت نفسه يبذلون مقاومتهم للحدّ من زيادة التدخل من الدولة في مقاطعاتهم أو في حكمها. وهنا أيضاً ترد علينا أسماء لا تزال مألوفة لدينا – مثل آل شهاب وآل جنبلاط في لبنان وآل عبد الهادي وطوقان في نابلس، ومثلهم الأشراف في مكة الذين يتصل نسبهم بالنبي والذين كانت لهم سلطة محلية في الحجاز اعترفت بها بعض الإعتراف الحكومة العثمانية في استانبول، وهؤلاء هم أجداد الأسرة الهاشمية.

سرعة نشوء الدول:

والذين يذكرون الحرب العالمية الثانية منا وقد عاشوا حتى أدركوها يجدون أنه يسهل عليهم أكثر مما كان يسهل على رجال البحث من جيل سابق أن يفهموا كيف أن الدول الإسلامية كانت تقوم سريعاً وتزول سريعاً – على شكل جيوش كانت تغير من مدينة إلى أخرى من بين سلسلة المدن التي لم تكن تعتمد إلا على اقاليم واهية تحيط بها، والتي انتشرت متفرقة على الطرق التجارية يفصل بعضها عن بعض السهوب والصحاري. وليس العجب أن هذه التكوينات السياسية السريعة النشوء زالت من الوجود في معظمها ذلك الزوال العاجل، ولكنّ العجب أن بعضها كالدولة العثمانية بقيت في الوجود طول هذه المدة. ولكنّ الذي كان يجري عادة عاجلاً أو آجلاً هو أن الدافع الذي بفضله تم الحصول على إمبراطورية ما والابقاء عليها كان يأخذ في الوهن والتراخي، فيتلو ذلك التفكك والإنحلال في جسم الدولة، وكان هذا عادة يكون على سبيلين: الأول تبضع داخلي يصيب جهاز الحكومة، فتنقطع سلطة الحاكم عن حكم جيشه أو حكومته. وتفقد الحكومة المركزية سلطتها على الأقاليم؛ والثاني انتقاض القوى الإجتماعية وتمردها على التنظيم الذي سنته الحكومة. وانقلاب أعوان النظام إلى زعماء الانتقاض والثورة. وقيام زعماء الجبال وشيوخ السهوب والصحاري بالتولي شيئاً فشيئاً على أحواز المدن من الريف. ولما كانت الحياة الاستقرارية في الشرق الأوسط وفي شمال إفريقية لا تستند إلى قوام متين فإن هذه العملية التطورية كانت تسير نحو التحلل الإجتماعي: فكانت القبائل البدوية تدفع إلى الوراء النطاق الزراعي وتقصر من مداه فلا تعود الأرياف قادرة على إنتاج فائض يكفي للمحافظة على حياة حضارية معقدة ولا على حكومة حضارية ذات شوكة. ومع ذلك فإن هذه العملية التطورية الانحلالية كانت تحمل علاجها معها. كما بين ذلك ابن خلدون، وهو أن هذه المجموعات البدوية عاجزة عن إيجاد الحضارة؛ ولكن لو إستطاعت أسرة من الأسر ذوات الشوكة والحكم ان تسخر طاقات هذه المجموعات البدوية وتوجهها في سبيل كسب السلطة لأمكن إيجاد نظام سياسي جديد يستطيع متى وجد أن ينضم بما له من شأن وخطر إلى جانب الحياة الإستقرارية. لدعمها وتقويتها ضد المجموعات البدوية أنفسها.

وتتضح هذه العملية التطورية الانحلالية في الإمبراطورية العثمانية ابتداءً على الأقل من القرن

مدحت باشا

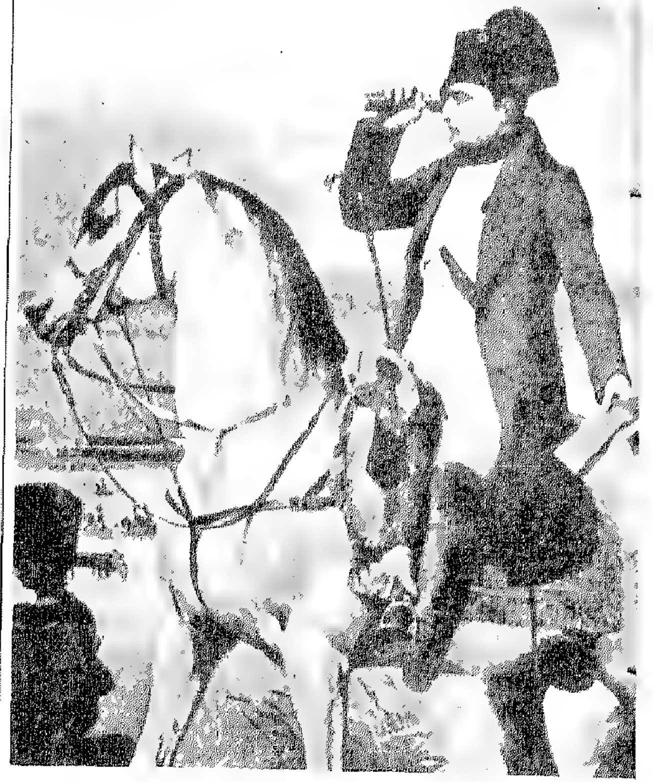


السابع عشر فصاعداً. ففي المركز ضعفت سلطة السلطان وقام صراع بين الفئات المختلفة في البلاط وفي الحكومة، ثم تلا ذلك شيء من الانتعاش بتحول السلطة نوعاً ما إلى الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) وإلى كبار الموظفين في الإدارات الحكومية، ولو أنه كان تحولاً جزئياً واهياً. وجرت في الأقاليم حركة اللامركزية التي كانت ترمي إلى الإستقلال عن الحكومة المركزية شيئاً فشيئاً -ومن هذا القبيل بعض حكام الأقاليم ولا سيما في شمال إفريقية كطرابلس وتونس والجزائر، فقد أصبح هؤلاء مستقلين بالفعل ما كانوا يدينون لاستانبول إلا بقليل من الطاعة الاسمية. أما في غيرها من الأقاليم فكان يوجد شيء من التوازن القائم بين الحكومة المركزية والحكومة المحلية. وبعض الحكومات المحلية، كما في القاهرة وبغداد مثلاً، كانت في أيدي فئات من المماليك تتألف من الطبقة العليا في الجيش التي كانت حريصة على استدامة سلطتها؛ وكانت بعض الحكومات الأخرى في أيدي أسر عريقة محلية استطاعت أن تديم الحكم في أيدي أفرادها بالوراثة كآل الجليلي في الموصل أو كأمراء الوديان (دره بيكلر) في آسيا الصغرى. أما في المدن فإن عساكر الإنكشارية التي كانت فيما مضى تحافظ على النظام أصبحت على شكل منظمة سياسية تنطوي في بعض الأحيان على خطر على النظام. وفي الجبال تمكن أمراء الأقطاع في لبنان من أن يمدوا رقعة حكمهم حتى شملت سهل البقاع بين لبنان ودمشق، وانحدر الأمراء الأكراد إلى الجنوب نحو الفرات. وفي الصحراء قامت عشائر بدوية كبيرة (كعشائر عنزة وشمر وبني صخر) وتحركت نحو الشمال، وانتزعت صحراء الشام من العشائر الأخرى وأخذت تهدد سلامة الطرق التجارية، حتى إن قوافل الحجاج في سنة ١٧٥٧ من دمشق سلبتها عشائر بني صخر. ونشأت في قلب الجزيرة العربية حركة من تلك الحركات التي كانت تتكرر من زمن إلى آخر في التاريخ الإسلامي، وتكون نتيجة لتحالف بين مصلح ديني وأسرة حاكمة، وغرضهما خلق دولة إسلامية تقوم على التقوى والصلاح. وقامت الدولة الجديدة وهي الدولة الوهابية باحتلال المدن المقدسة، ورفضت السيادة العثمانية عليها ورفضت أيضاً أشياء كثيرة من الدين كما كان العثمانيون يدينون به. وبانهيار النظام المدني اقتحم رجال القبائل البدوية المناطق الحضرية فتقلصت رقعة الأراضي الزراعية لا في سوريا والعراق وحدهما بل حتى في مصر التي كانت أكثر البلاد استقراراً من حيث السكان. وقد بلغ من تفاقم هذه العملية التطورية الإنحلالية بانتهاء القرن الثامن عشر أن تعرضت الحضارة المدنية إلى خطر حقيقي في العراق لم تتعرض له بعد سوريا ومصر، لأن القاهرة ودمشق وحلب في القرن الثامن عشر كانت لا تزال مدناً باهية معمورة حسنة البنيان.

وكانت هذه العملية من وجه من الوجوه عملية طبيعية من نوع كان قد تكرر مرة بعد مرة في تاريخ البحر الأبيض المتوسط الشرقي والغربي، ولكنها كانت محبوكة بعملية جديدة أخرى، وهي عملية نمو الدول الأوروبية الكبرى وتعاظم سلطتها ونفوذها. وأول شيء في هذا كله القوة العسكرية. وكانت آخر الفتوحات العثمانية الكبرى فتح جزيرة كريت في سنة ١٦٦٩. وتلا ذلك حرب طويلة استمرت مع مجموعة من الدول الأوروبية وانتهت بصلح في سنة ١٦٩٩ لم يكن من مصلحة الدولة العثمانية. ثم جرى بعد ذلك في الستينات من القرن الثامن عشر حرب مع روسيا أظهرت عجز الأتراك عن التصدي لدولة أوروبية كبرى والثبات في وجهها، وقام اسطول روسي يوناني وجاس خلال البحر الأبيض المتوسط الشرقي وأنزل جنوداً في اليونان وفي بيروت. وبعد جيل من ذلك وفي سنة ١٧٩٨ احتل نابوليون بونابرت مصر مدة وجيزة. ورافق التبدل في ميزان القوى نمو في نفوذ أوروبا واضطرت الحكومة العثمانية إلى التحالف مع بريطانيا وروسيا لطرد الفرنسيين من مصر، وعلى أثر ذلك بدأ السفراء الأوروبيون يلعبون دوراً في سياسة الدولة في استانبول.

نمو النفوذ الأوروبي والاصلاحات:

ويتلخص تاريخ الإمبراطورية العثمانية في آخر طور لها في أنه كان نسيجاً من تشابك هاتين العمليتين. وأول ذلك أن نمو النفوذ الأوروبي ساعد على إيقاف الإنحلال والتفكك. فالخوف من أوروبا والضغط من أوروبا أيضاً دفعا الحكومة العثمانية إلى أن تصلح من شأنها؛ واستمدت أدوات الإصلاح ووسائطه من الأساليب العسكرية والإدارية الجديدة. وكانت مدة


نابليون بونابرت

الخمسين سنة تقريباً ابتداء من عشرينات القرن التاسع عشر مدة تغير سريع، كان يعرف بالتنظيمات أو بالتشكيلات الجديدة. وكان حدوث هذه التنظيمات نتيجة للعمل المشترك بين سلطان يرغب في الإصلاح وجماعة من كبار الموظفين كان لهم علم وخبرة مباشرة بأوروبا، وغرض ذلك كله أولاً إيجاد جيش حديث عصري وثانياً استخدامه في إعادة شوكة الحكومة المركزية وسلطتها على الأقاليم وكذلك خلق هيكل جديد من الإدارة والقوانين المدنية المركزية. ويأتي من وراء هذه الأهداف إلى حدّ ما إحياء الفكرة المثالية للملكية فيكون الحاكم حاكماً لا بحسب الأهواء والميول الخاصة ولكن بناء على العدالة الطبيعية المنصوص عليها في القوانين بحيث تكون هذه العدالة وهذه القوانين مقيدة بنظام إداري بيروقراطي. وكان يمازج ذلك أفكار مثالية جديدة كفكرة الرعوية التي معناها ان يكون لجميع أفراد الرعية التابعين للسلطان حقوق مضمونة ومتساوية وعلاقة مباشرة مع الحكومة؛ وفكرة «المدنية» التي معناها معيشة عصرية خاضعة لأحكام العقل ونشيطة وتقدمية وحرة بذاتها وهي المعيشة التي أوجدتها أوروبا الغربية ولكنها صارت مباحة لجميع العالم.

وينبغي أن لا نستهين بالنجاح الذي احرزته هذه الإصلاحات. لأننا لو قايسنا بين الإمبراطورية في ١٨٧٠ وما كانت عليه في ١٨٢٠ لوجدنا ولا شك أن المستوى الذي كانت عليه الإدارة والعدالة قد ارتفع؛ وأصبح السكان من غير المسلمين يتمتعون بحرية أكبر من ذي قبل. وأصبحت الأقاليم البعيدة مثل الحجاز وطرابلس الغرب في إفريقية محكومة من استانبول حكماً أوثق وأضبط؛ وجرت إصلاحات في إدارة الولايات والأقاليم واتسعت رقعة الأراضي المزروعة. وانتشرت فكرة مفهومة عن القومية العثمانية؛ وشمل التحسين مرافق العيش في المدن والموانى الكبرى على الأقل؛ وصارت الأمة العثمانية تجر نفسها بخطوات ثقيلة مترددة نحو الحياة العصرية. وبدت علائم ذلك، ليس في حالتها التافهة كما كانت في مكاتب الحكومة، بل إن البزة الرسمية الغربية والطربوش حلت محل الأثواب الفضفاضة والعمائم، وانتقل النبلاء والأشراف من بيوتهم في أحياء المدن القديمة وسكنوا منازل حديثة على الطراز الايطالي على خليج البسفور، وفي أحياء جديدة تمتد من القاهرة القديمة إلى ازمير وبيروت؛ حتى إن السلطان نفسه كان قد انتقل من السرايا القديمة إلى قصر على شط البحر، مزين جميعه بالثريات والمرايا المذهبة والأثاث الوثير، ولم يعد يظهر بمظهر الطاغية الشرقي، بل أخذ يظهر بمظهر حاكم مستبد عادل وعلى كتفيه رمانات من الوشي والقصب للزينة وعلى صدره النياشين بلحية مهندمة، من جملة سلسلة من الحكام المستبدين العادلين ممتدة من بطرسبورغ إلى فينا وباريس ومن دون بدرو في البرازيل إلى الإمبراطور مكسمليان في المكسيك والملك كاميهاميا في هوايي.

ولكن عملية الإصلاح هذه كانت تنطوي على مواطن للضعف وأماكن للتناقض أدت بكيان الدولة المتحلل والمتفكك إلى نهايته المنطقية المحتومة. فإن عوامل الإصلاح مجتمعة نفسها كانت واهية وعرضة للإنهيار والعطب. وذلك ان السلطان كان يريد سلطة استبدادية مطلقة في حين أن البيروقراطية الإدارية كانت تريد السلطة المقيدة بالمبادئ والمحدودة بالقوانين. وهاتان الإرادتان لم يمكن التوفيق بينهما في النهاية، وأدى الأمر إلى انشقاق بينهما في زمن السلطان عبد الحميد عند نهاية القرن التاسع عشر. والعلماء الذين قبل البعض منهم بالإصلاحات الأولى وأقروها، تنكروا لهذه الإصلاحات ووقفوا منها موقف العداء لما تمادت

واصبحت تهدد كيان الشريعة الإسلامية ، وقام بعض الموظفين بفكرة تدعو إلى الحكم الدستوري ، ومنح الدستور فعلاً لبضع سنوات في السبعينات من القرن التاسع عشر. وكان في الأقاليم حكام محليون أقوياء تمكنوا من إجراء إصلاحات وتنظيمات على الشكل الذي يرغبونه. واحرزوا بذلك نجاحاً أكثر مما أحرزه غيرهم وذلك لأن المناطق التي كانوا يعملون فيها كانت أصغر حجماً وأكثر انضماماً وتماسكاً. وأصبحت تونس تحت حكم البـاي ومصر تحت حكم محمد علي بحكم المستقلتين استقلالاً تاماً.

وكان ينطوي تحت هذه التغييرات في شكل الحكم تغييران مهمان في النظام الإجتماعي. ظلت نتائج كل منهما مستمرة حتى بعد زوال الإمبراطورية. وأولهما التغيير الإقتصادي في بعض الأقاليم على الأقل :

التغيير الاقتصادي والانشقاقات القومية :

فالشرق الأوسط مثلاً أصبح مربوطاً بالنظام التجاري الغربي على أساس كونه مزرعة اقتصادية لإنتاج المواد الخام للصناعة الأوروبية وإنتاج السلع الصناعية المهمة. وعلى الخصوص مصر التي كانت اقتصادياتها جميعها مكيفة على أساس إنتاج القطن من النوعية الجيدة في أراضي السقي من أجل مصانع النسيج في لانكشير في بريطانيا. وكانت النتيجة حدوث تغيير في نسبة القوة والرخاء عند الطبقات الإجتماعية المختلفة. وانحطت بذلك طبقة التجار المسلمين القدماء وانحطت معها طبقة الصناع اليدويين بسبب ما لاقوا من المزاحمة من البضائع المصنوعة بالآلات ؛ وهذا ما جرى للبدو من السكان الذين كانوا في اقتصادياتهم يعتمدون على الإبل للنقل ، فتضعضعت هذه الإقتصاديات بمجيء وسائل النقل والسفر الحديثة. ثم إن طبقة جديدة من أصحاب الأراضي ظهرت في البلاد، بفضل المنح المالية من الحكام أو بسبب تسجيل أراضي الدولة بأسمائهم. أو عن طريق إقراض الأموال للمزارعين. أو إعمار أراضي جديدة وفلاحتها ؛ وظهر أيضاً نوع جديد من التجار يعيش على تجارة الوارد والصادر مع أوروبا — ومعظم هؤلاء في المراتب العليا من التجار الأوروبيين. أو في المراتب الدنيا من التجار المسيحيين واليهود الشرقيين.

وثانيهما التغيير الفكري عن طريق المدارس الجديدة ودخول الطباعة والجرائد وترجمة الكتب من الإنكليزية أو الفرنسية والرحلات والعيش في عالم تسيطر عليه أوروبا والمدنية الأوروبية. وانتشرت بين الموظفين وضباط الجيش والمعلمين والتجار أفكار جديدة تتعلق بالمجتمع وبكيفية تنظيمه ، ولا سيما فكرة تنظيم المجتمع على أساس وطني يقوم على عاطفة الولاء القومي والوحدة القومية وينضم تحت لوائها أفراد الطوائف الدينية المختلفة أو الفئات الاجتماعية المختلفة — وهي وطنية علمانية صريحة ولها مع ذلك كما لكل شيء في الشرق الأوسط عنصر ديني خفي. ولعل السبب في أن فكرة الأمة العثمانية كانت أوهى من أن تقوى على مقاومة الأفكار القومية التي كانت أمتن منها وإن كانت أقصر مدى : فبدأ العرب واليونان أولاً بإيجاد دولة قومية خاصة بهم ، ثم تبعهم في ذلك الرومان والبلغار ، وسرت هذه الفكرة إلى الأرمن ثم إلى الأتراك أنفسهم ، وإلى الشعوب المسلمة الأخرى من بعدهم وهم العرب والألبانيون والأكراد.

وفي عملية التفلق والانشقاق هذه أيضاً نرى أن اتساع النفوذ الأوروبي كان عاملاً يزيد من تعقيد الموقف. فقد توطد للأوروبيين حكمهم المباشر لبعض الأقاليم النائية من الإمبراطورية العثمانية ، كحكم الفرنسيين للجزائر ابتداءً من ١٨٣٠ ولتونس إبتداء من ١٨٨١ ، وحكم البريطانيين لمصر ابتداء من ١٨٨٢ وحكم الإيطاليين لليبيا ابتداءً من ١٩١٢ ؛ حتى إن أجزاء الإمبراطورية التي بقيت عثمانية إلى النهاية كان فيها نفوذ أوروبي شامل. فالبنوك الأوروبية والتجار الأوروبيون وضعوا سيطرتهم على القطاع الاقتصادي المتزايد في النمو، وتولت الشركات الأوروبية صاحبات الإمتيازات بناء المرافق العامة. وكان المسيحيون واليهود الشرقيون في الغالب يتمتعون بحماية الدول الأجنبية ، وكانت الملل بأجمعها على صلات بهذه الدولة أو تلك من هذه الدول الاجنبية — فالكاثوليك كانت صلتهم بفرنسا والأرثوذكس بروسيا. وكان المسلمون والمسيحيون واليهود على السواء يرسلون أبناءهم وبناتهم إلى المدارس التبشيرية ولم تكن السفارات في استانبول وحدها مراكز



السلطان عبد الحميد
خان الثاني

للتماسك والترابط الإجتماعي وللحياة السياسية بل كانت القنصليات أيضاً مراكز لذلك في عواصم الولايات والأقاليم. وفي بعض الأجزاء من الدولة كانت مناطق النفوذ قد تحددت بحلول سنة ١٩١٤ : فكان للفرنسيين نفوذهم في ساحل سوريا وكان للإنكليز نفوذهم في جنوب العراق. ولما تجزأت الإمبراطورية بعد ١٩١٨ ، كان تجزؤها على منوال كانت قد تبينت خطوطه من قبل.

ولا أريد أن أتتبع بالتفصيل عملية الإنهيار ، ولكني استسمحكم في ذكر نقطة أخيرة ، وهي أن كثيراً من الأمور المشتركة بين بلاد الشرق الأوسط يمكن تعليلها بأن هذه البلاد كانت واقعة مدة طويلة تحت حكم العثمانيين ، وأن كثيراً من الأمور التي تباين بلداً منها عن الآخر يمكن تعليلها بأن هذه البلاد اختلفت فيها الكيفية التي خرج فيها كل بلد منها من حكم الإمبراطورية العثمانية. فالإتصال بين العثمانيين من جهة وتونس والجزائر من جهة أخرى كان قد أصبح بعيداً وضعيفاً قبل مجيء الفرنسيين ، وكان من الأثر البالغ الشديد الذي أحدثه الإستعمار في البناء الإجتماعي أن ما بقي من الطابع العثماني على البلاد لم يكن إلا قليلاً. وحدث الفتح الإيطالي في طرابلس الغرب في آونة تقوت فيها الصلات والروابط مع استانبول بفضل المواصلات المحسنة وبفضل إحياء الدستور في ١٩٠٨ : ولبث في طرابلس الغرب في العقود الأولى من الحكم الإيطالي شيء من الشعور الموالي للعثمانيين. أما الوضع في مصر فكان أكثر تعقيداً ، وذلك أن محمد علي كان من ناحية ما حاكماً إقليمياً على الأسلوب التقليدي العثماني ، وقد جمع في يديه جميع السلطة وأحاط نفسه بعدد من الضباط والموظفين في القصر كان أكثرهم من الأتراك ، وجعل من السلطة السياسية سلطة إجتماعية باستيلائه على الأراضي. وكثير من هذه الأراضي فيما بعد أصبح ملكاً لطبقة جديدة من كبار أصحاب الأراضي ، وكثير منهم كانوا من المصريين الأتراك. وكانت سلطتهم الإجتماعية تعارضها في الجانب الآخر سلطة التجار الأوروبيين والمشرقيين وأصحاب الأعمال

المصرفية. وجاء الإحتلال البريطاني في ١٨٨٢ من بعض النواحي نصراً لهؤلاء التجار وأصحاب الأعمال المصرفية، وإن لم يكن نصراً شاملاً كلياً، لأن البريطانيين في حكمهم للبلاد كانوا على على تحالف غير مستقر مع القصر والبلاط الذين كانا لا يزالان تركيين في غالبيتهما؛ وكانت الحركة القومية المصرية، مع اتجاهها المعادي في الغالب للوجود البريطاني، تنطوي على تيارات خفية مع العداء للحكام وأصحاب الاراضي الأتراك وظل الصراع المثلث الجوانب بين البريطانيين والقصر والحركة القومية مستمراً في أشكال مختلفة حتى ١٩٥٢، وكان القصر حتى ذلك الوقت بؤرة لنفوذ المصريين الأتراك وسيطرتهم على الدوام.

والدولة القومية لتركيا نفسها نشأت من خرائب الإمبراطورية ومن رفض متعمد للماضي العثماني. واعتقد الوطنيون أن الشعب التركي كان قد بدد قوته في محاولة إخضاع الإمبراطورية، وأن استبداد السلاطين كان قد حال دون أي تقدم. ولكن هذا التخلي عن الماضي لم يكن عميقاً كما كان يبدو. فإن الدولة التركية الجديدة بنيت حول جهاز الإدارة العثمانية والجيش العثماني، ولعل هذا هو السبب في أن تركيا استطاعت ان تبقى مستقلة عن الوصاية الأوروبية. وكثير من الزعماء الأول (دون أتاتورك نفسه) كانوا ينتمون إلى أسر من أرباب الوظائف الإدارية والعسكرية الذين كانوا في المراكز الحساسة في

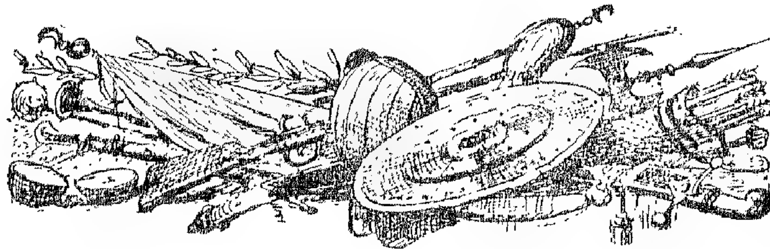


جندي متطوع
في الجيش العثماني.

الحكومة العثمانية وفي الحركات الإصلاحية. وخلق الإمبراطورية العثمانية والمحافظة عليها عمل عظيم جليل أنجزه الأتراك وليس في مستطاع الفكر التاريخي إذا تصور إنجاز هذه الأمور العظيمة التي تعتمد عليها الدول القومية ان يتنصل طويلاً من هذا العمل العظيم الجليل ويرفضه.

ولعلّ وضع العرب في سوريا والعراق وما أحاط بهما من المناطق كان أشد الأوضاع تعقيداً. فإن الزعماء الطبيعيين للأقاليم العربية، وهم أفراد الأسر النبيلة في كبريات المدن، كانوا قد اندمجوا اندماجاً وثيقاً في الجهاز النظامي العثماني في أواخر القرن التاسع عشر، وكان أبناؤهم يدخلون الخدمة العسكرية والمدنية في الإمبراطورية بعد تخرجهم من المدارس المهنية؛ وقام هؤلاء الزعماء بعد إعادة الدستور في ١٩٠٨ بدور مهم في السياسة العثمانية – لأنه لما ذهبت مقاطعات البلقان أصبحت الإمبراطورية في الغالب دولة تركية عربية. ثم إن هؤلاء الزعماء لم يستطيعوا أن يتجاهلوا دعوى السلطان بأنه آخر شيء تتجسد فيه عظمة الإسلام. ولكن تعاظم العنصر القومي التركي في الحكومة العثمانية نفر هؤلاء الزعماء منها، وأصبحت القومية العربية فكرة أتاحت لهم سبيلاً جديداً للإعراب عن سخطهم. واتفق ان الحرب العالمية الأولى قامت في زمن كانت العلاقات فيه بين الأتراك والعرب العثمانيين على أشد ما تكون من التوتر، ومن هنا حدثت الثورة العربية ضد الحكم التركي؛ ولكن معظم العرب الذين انضموا إلى الثورة كان إنضمامهم إليها مشوباً ببعض المخاوف والريب الناشئة عن تجزئة الدولة وتفريق وحدتها ووحدة الشعوب الإسلامية. وكثير من هؤلاء ندموا فيما بعد على عملهم الثوري هذا، حتى إن التراث العثماني ظل باقياً ولو بعد الإنفصال النهائي بين الشعبين. وكانت الحركة القومية العربية في الجيل الأول يقودها أفراد من الأسر النبيلة أنفسها وموظفون وضباط من موظفي السلطان وضباطه. وجلبوا إلى الحركة أسلوباً معيناً من الإجراء السياسي، وذكريات من الوحدة العثمانية. وفي الإجتماعات التي نشأت عنها الجامعة العربية في ١٩٤٤ – ١٩٤٥، لاحظ كثير من المراقبين ولا بد بدهشة شديدة مبلغ الصلات العثمانية والعربية بين المتكلمين عن الدول العربية المختلفة إلى الشرق من مصر؛ فقد كان هؤلاء معاً في المدارس في استانبول، وكانوا في جيش واحد أو خدموا حكومة واحدة؛ وكانت نظرتهم إلى العالم نظرة مشتركة؛ وكان من وراء الصورة الذهنية للوحدة العربية ذكريات عن عظمة إمبراطورية أصبحت مفقودة.

■



● في الحياة غرضان جديران بالعناية، أن تظفر بما تبغي وأن تتمتع به بعد ذلك. واحكم الحكماء هو الذي يدرك الغرض الثاني.

بيرسل سميث

● يستطيع كل حاكم أن يقيم لنفسه عرشاً من السيوف والحراب ولكنه لا يستطيع أن يجلس عليه.

القسيس أنج

منابع الحضارة الأوروبيّة الحديثة

د. محمد مخزوم



Diapo كنيسة القديس حنا في صقلية (بالرم) شيدها روجر الثاني ١١٣٢ ويبدو التأثير العربي فيها واضحاً.

مثلت الحضارة العربية احدى المنابع الرئيسية التي استقت منها أوروبا حضارتها. وما يشار إليه بعصر النهضة الأوروبية، في القرن الخامس عشر، انما يدين في الحقيقة بجذوره الأولى إلى الحضارة العربية التي بلغت عصرها الذهبي بين القرنين التاسع والحادي عشر. وقد مثل العرب في هذه المرحلة دور المحافظ على التراث الكلاسيكي من جهة، ودور المبدع الخلاق في جميع الميادين الحضارية من جهة ثانية. ومع ان أوروبا عرفت النهضة الكارولنجية إلا انها لم تكن نهضة شاملة كما انها اقتصرت على مناطق جغرافية محددة تقطنها شعوب مستقرة نجت من براثن القبائل الغازية البدائية. بينما امتازت الحضارة العربية في هذا الوقت بشموليتها وعالميتها. إذ تطعمت بحضارة اليونان والفرس والهند، واشتملت على جميع الميادين العلمية، وساهم بها مفكرون وعلماء من عناصر مختلفة، كما امتازت بانسانيتها حيث أفادت منها شعوب الامبراطورية الاسلامية المترامية الأرجاء كما أفادت منها شعوب الامبراطورية البيزنطية وغرب أوروبا.

وهكذا تمت عملية تطعيم حضارة أوروبا القروسطية بالحضارة العربية أواخر العصور الوسطى عبر ثلاثة ميادين أو منابع رئيسية لكل منها أهميته وميزته الخاصة وعناصره الحضارية المختلفة:

أولاً : الاندلس وشمالي افريقيا :

شكلت هذه المنطقة المتجانسة حضارياً إلى حد بعيد، الأهمية الأولى في عملية التمازج الحضاري بين الثقافة الإسلامية الشرقية والثقافة الأوروبية . فاسبانيا كانت ملتقى شعوب مختلفة حدثت فيها عملية امتزاج إجتماعي واسعة النطاق . كما كانت ملتقى اللغتين العربية واللاتينية . وقام عرب أسبانيا بدور عظيم في جميع المجالات الثقافية والعلمية والأدبية وكان من نوابغهم ابن باجة وأبن رشد وأبن طفيل وأبن عربي والبكري والأدريسي وأبن جبير ثم أبن زهر وغيرهم من الذين بلغت غلومهم من الدقة بحيث أقبل على مؤلفاتهم طلاب العلم من كل أنحاء أوروبا . «فالشيء الذي لا يمكن نكرانه هو أن عرب اسبانيا خلقوا مدنية زاهرة واتقنوا تنظيم الحياة الاقتصادية في الوقت الذي كانت تنوء أغلب اصقاع أوروبا تحت نير الشقاء والاغلال مادية كانت أم روحية . أجل فقد لعب عرب اسبانيا دوراً خطيراً [عظيماً] في تقدم الفن والفلسفة والشعر حتى ارتفع تأثيرها إلى أعلى قنن الفكر المسيحي في القرن الثالث عشر بظهور توما الاكويني ودانتي» (جون ترايد : تراث الاسلام) .

اشتهرت المدن الإسبانية الثلاث طليطلة وقرطبة واشبيليه ، بعد سقوطها بيد الأوروبيين، بازدهار حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية فيها. وقد تم للأوروبيين فعلاً ترجمة الجزء الأكبر من تراث العرب في القرن الثالث عشر بواسطة مدارس الترجمة التي أقامها حكام واساقفة هذه المدن . وقد نسب إلى جيرار الكريموني من مدينة طليطلة ترجمة ثمانين مؤلفاً في جميع حقول العلم والمعرفة . وهكذا تكون استفادة الغرب الحضارية من سقوط طليطلة قد فاقت استفادتهم منها كموقع جغرافي أو كمكسب حربي وسياسي . «ومن طليطلة انتشر التيار العظيم من مراكز الفكر العربي من جنوب فرنسا ، ووصل إلى دير كلوني وعن طريقه وصل إلى اقليم اللورين ، والمانيا وانجلترا وكل أوروبا الغربية ، وكان العرب قد اضافوا إلى التقدم الإنساني أهم اسهام في العصر الوسيط» (ريسلر : الحضارة العربية) .

ثانيا : صقلية :

تعتبر صقلية الميدان الثاني بعد اسبانيا الذي تم عبره انتقال الحضارة العربية الإسلامية إلى غرب أوروبا . فالعرب حكموا هذه الجزيرة مدة قرنين ونصف القرن ، ومعهم انتقلت حضارتهم اليها حيث كان المسلمون والمسيحيون يعيشون جنباً إلى جنب .

فقام حكام صقلية بالدور الأول لتثبيت دعائم حضارة العرب فيها . بل انهم جعلوها مركزاً من مراكز الأشعاع للثقافة العربية . وأقاموا الاكاديميات والمدارس للترجمة ونقل العلوم إلى الغرب . واشتهر من هؤلاء الحكام روجر الثاني الذي كان بلاطه يزخر بالعلماء والادباء والمترجمين . ثم الامبراطور فريدريك الثاني الذي نشأ في صقلية وتأثر فيها بالثقافة العربية الإسلامية تأثراً بالغاً . كما انه اكتسب عاداته الشرقية أثناء حملته الصليبية المسالمة إلى الشرق . فجعل بلاطه مشابهاً لبلاط الخلفاء المسلمين وجمع فيه عدداً كبيراً من العلماء والأدباء من مختلف الأديان والجنسيات . وأنشأ في نابولي أكاديمية لتدريس وترجمة علوم العرب إلى اللاتينية . وهكذا لم يكن تقاعس فريدريك الثاني عند القيام بحملته الصليبية رغم تشدد البابوية ازاء هذا الأمر ، إلا لكونه قد فضل إقامة علاقات سلمية مع من كان يعتبرهم حملة مشعل الحضارة العالمية . ولهذا فقد كانت النهضة العلمية التي اقامها فريدريك الثاني في صقلية سلاحاً قوياً لمواجهة الحرم الكنسي الذي رمته به البابوية مرتين .

كما أن شارل دانجو لم يكن أقل تمشرقاً من فريدريك الثاني رغم كونه قد شارك في حملة لويس التاسع إلى مصر . فجمع في بلاطه أيضاً المترجمين والعلماء والادباء حيث سادت فيه العادات والتقاليد الشرقية الخالصة .

ثالثاً : الحروب الصليبية :

يؤكد أكثر المؤرخين الذين كتبوا في الحروب الصليبية أن الحضارة العربية قد انتقلت إلى الغرب عبر اسبانيا وصقلية فقط وأن الصليبيين كانوا عاجزين عن فهم هذه الحضارة مستندين بذلك على استمرارية العلاقات الحربية بين الطرفين وعلى أن الحضارة في الشرق كانت قد بدأت بالأفول في وقت أصبح فيه المجتمع العربي مجتمعاً حربياً غير متجانس يسوده

الاضطراب والتفكك والنزاعات المحلية على السلطة.

صحيح أن الصليبيين لم يهتموا كسكان الاندلس وصقلية بنقل علوم العرب إلى الغرب عن طريق ترجمتها أو تدريسها. ولكنهم خبروا هذه العلوم عن قرب أكثر بفضل الاحتكاك المباشر اليومي الذي كان يتم عبر العلاقات الاقتصادية التي تزدهر أوقات السلم. وبفضل هذا الأختبار والفائدة من الأعمال الطبية والحسابية والفلكية والجغرافية ازداد اقبال علماء أوروبا وأساتذتها على علوم العرب في جهات الاندلس وصقلية لكون جماعات الصليبيين العائدين إلى بلادهم بعد أن فشلوا في الحصول على مكسب مادي في الأراضي المقدسة كانوا يتحدثون عن حضارة العرب في الشرق بين ذويهم وفي مجتمعاتهم. ومما يؤكد ذلك ما قام به شارل دانجو عندما تولى العرش الصقلي بعد فشل حملته على الشرق. كما أن غالبية الأسياد من الفرنجة في الامارات اللاتينية قد اتقنوا اللغة العربية خاصة في عهد لويس التاسع وفريدريك الثاني.

يذكر Foucher de chartre أحد مؤرخي الحروب الصليبية المعاصرين بما معناه أن الغربيين قد تحولوا إلى سكان شرقيين. فالفرنسيون والايطاليون ليسوا الآن سوى مواطنين فلسطينيين وأن ابن مدينة الريمس أو مدينة شارتر قد تحول إلى صوري أو انطاكي. لقد نسي الفرنجة أصلهم حيث أصبح الواحد منهم يمتلك بيتاً وعائلة ويتكلم لغة البلاد. ومن كان هناك فقيراً أصبح هنا يتمتع في بحبوحة العيش ومن لم يكن يملك في أوروبا حتى ضيعة صغيرة أصبح هنا سيداً لمدينة بأكملها. لماذا نرجع اذن إلى الغرب طالما الشرق يحقق رغباتنا. أما ابن جبير الذي زار مدينة عكا في هذه الفترة، فإنه يخبرنا بوجود بناء يجتمع فيه المسلمون والمسيحيون لاداء صلاتهم فيه وكل واحد يؤدي صلاته باتجاه الوجهة التي يفرضها ايمانه: «في شرقي بلدة عكا مسجد بقي محرابه على حاله، ووضع الأفرنج في شرقيه محراباً لهم. فالمسلم (والكافر) يجتمعان فيه، يستقبل هذا مصلاه وهذا



خريطة الادريسي للعالم


ابريق نحاسي مكفّت بالفضة

مصلاه وهو في أيدي النصارى معظمٌ محفوظ ، وأبقى الله فيه موضع الصلاة للمسلمين » . كما يذكر أيضاً مشيراً إلى قيام علاقات ودية وسلمية بين الطرفين المتنازعين « ومن العجب أن النصارى المجاورين لجبل لبنان إذا رأوا به بعض المنقطعين من المسلمين جلبوا لهم القوت واحسنوا اليهم ويقولون: هؤلاء ممّن انقطع إلى الله عز وجل فتجب مشاركتهم » .

أتاحت العلاقات التجارية أيضاً التي قامت بين الشرق والغرب أثناء الحروب الصليبية فرصة كبيرة للتعرف على أحوال العرب وحضارتهم . وساهمت هذه العلاقات إلى حد بعيد في نقل الثقافة العربية إلى الغرب على أيدي التجار الأوروبيين الذين كانوا يفدون إلى الأراضي المقدسة . واكتسبت اللغات الثلاث الفرنسية والايطالية والانكليزية عن العربية معاني ومفردات لغوية متعدّدة خاصة فيما يتعلق بأمور البحرية . كما أطلق التجار الأوروبيون نفس المفردات اللغوية التي وضعها العرب على كثير من التوابل والبهارات والأقمشة والعطور ويظهر ذلك جلياً في قواميس هذه اللغات الثلاث .

وهكذا فإن الحروب الصليبية التي استمرّت مدة قرنين من الزمن ، وما تخللها من علاقات سلمية وحربية وتجارية أدت بطبيعة الحال إلى تعرف الغرب على حضارة العرب عن كثب وإلى الأخذ بمقومات هذه الحضارة نتيجة الفائدة العظيمة التي اكتسبها الأوروبيون من ممارستهم لها في جميع مجالات العلم والمعرفة . ولا يسعنا إلا أن نذكر بهذا الصدد بأن الأوروبيين بعد أن هضموا علوم الشرق واستوعبوها أقبلوا على ترجمتها ودراستها في القرن الثالث عشر حتى سمي هذا العصر بعصر الترجمة من العربية إلى اللاتينية . وهو ما يفسر عدم أخذ الاوروبيين بهذه الحضارة قبل ذلك . مع انه كان قد مضى على وجود المسلمين في اسبانيا وصقلية زهاء الخمسة قرون ومع أن حضارة القرنين التاسع والعاشر الميلاديين أيام هارون الرشيد والمأمون قد وصلت إلى عصرها الذهبي وفاقت حضارات العالم في ذلك الوقت .

شواهد من تراث العرب والمسلمين العلمي :

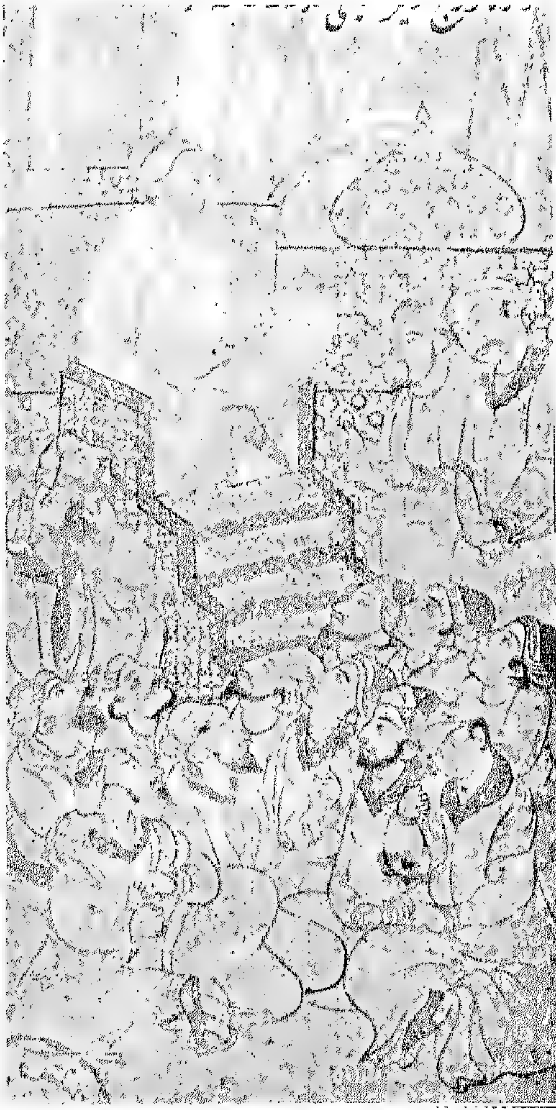
شملت المعارف الاسلامية والعربية التي تزود بها الغرب الأوروبي وكانت أساساً للنهضة الأوروبية جميع الميادين الحضارية ، فالطب عند العرب والمسلمين ارتقى إلى أعلى مكانته في العصور الوسطى ، بعد أن استوعبوا طب اليونان وعلومهم . وكانت تأليفات الرازي حول الجدري والحصبة وكتاباه الشهيران والمعروفان بالمنصوري والجاوي يعدان من أحسن ما كتب في هذا الميدان . وقد ترجم الكتاب الأول جيراو الكريموني إلى اللاتينية بينما ترجم الكتاب الثاني فرج بن سالم للملك شارل دانجو وطبع لأول مرة سنة ١٤٨٦ واستمرت طباعته تتجدد حتى القرن الثامن عشر نظراً لرواج تدريسه في جامعات أوروبا . أما أبن سينا اشهر أطباء عصره فقد كتب « القانون » في الطب وللدلالة على أهميته نشير هنا إلى قول ما يرهوف « إنما هو تركيز لتراث المعارف الطبية اليونانية مضافاً اليها الزيادات العربية . فكان تأثيره على الطب عاماً وشاملاً . وهذا الكتاب يعتبر العمل الفريد وقمة المجد في تكوين المذاهب العربية . ترجمة جيرار الكريموني في القرن الثاني عشر إلى اللاتينية وتوجد منه نسخ خطية لا حصر لها . ولقد طبع في الثلاثين سنة الأخيرة من القرن الخامس عشر ست عشرة طبعة . وهذه الطبعات لا تشتمل على ما طبع من اجزائه طبعات متفرقة أو ما ألف في شرحه باللاتينية والعبرية واللغات الدارجة (الناشئة عن اللاتينية) فإنها سواء منسوخة أو مطبوعة لا يحصيها العد . واستمر العالم الأوروبي في طبع

الكتاب وتدريسه حتى نهاية القرن التاسع عشر. وربما لم يدرس كتاب في الطب على مر العصور كما درس هذا الكتاب. ولقد بلغ الطب الاسلامي عن طريق ابن سينا عميد الأطباء وأميرهم أوج عظمته».

ومن الأطباء العرب الذين نبغوا في الاندلس واقتصرت دراساتهم على هذه المهنة فقط ابن زهر وأهم كتبه «التيسير في المداواة والتدبير». كما يعتبر علي بن عيسى من أطباء العيون الشهيرين الذين بقيت كتبهم رائجة في أوروبا حتى القرن الثامن عشر.

ولم يقتصر نبوغ العرب والمسلمين في المجال الطبي على هذه الشواهد من الأطباء النابغين فقط. إذ أن تطور صناعة الطب المختلفة ارتبطت بازدهار علم الصيدلة وإقامة المؤسسات الطبية المجانية كما ارتبطت أيضاً بتنظيم هذه المهنة بوجوب الحصول على ترخيص من الدولة. وهكذا ساهم العرب والمسلمون في أحياء علم الطب وتطويره ورفعه فوق مستوى الشعوذة والخرافات وتسخيره في خدمة الإنسانية. فكانت مساهمة عظيمة في حضارة العصور الوسطى وشمعة مضيئة في تراثهم الحضاري «ويرجع أكبر الفضل في بقاء الطب العلمي في بلاد الغرب أثناء العصور (المظلمة) إلى الأطباء اليهود الذين نشروا المعلومات الطبية اليونانية - العربية في بلاد العالم المسيحي، وذلك عن طريق الثقافة البيزنطية التي انتشرت في جنوبي ايطالية وترجمة الرسائل الطبية اليونانية والعربية إلى اللغة اللاتينية». (ديورانت: قصة الحضارة).

هذا ولم يكن نبوغ العرب والمسلمين في مجال العلوم يقل أهمية عما ابتدعوه في صناعة الطب. وقد تجلت مآثرهم العلمية في اختراعاتهم واكتشافاتهم وأبحاثهم التي وضعوها في الحساب والجبر والهندسة والفلك وعلم البصريات التي اثبت العلم الحديث مدى صحتها. فكان استعمال الصفر والكسر العشري والأرقام الهندية في العمليات الحسابية بمثابة ثورة حقيقية في تاريخ الحضارة العلمية. فالخوارزمي يعد من أبرز الشخصيات العلمية في العصور الوسطى الذين اشتغلوا في علم المثلثات والجبر. كما اشتهر كل من ثابت بن قرة ونصير الدين الطوسي والفرغاني بمؤلفاتهم الفلكية والبتاني بعلم حساب المثلثات إذ كان خطأه في



ابن سينا يلقي درساً في التشريح

طول السنة الشمسية لا يتعدى الدقيقتين. أما البيروني شيخ علماء عصره فلم يترك علماً من العلوم إلا وكتب فيه. فتجلت بحوثه في الفلك والتنجيم والأرقام الهندية والاسطرلاب والكثافة النوعية. ويعتبر الحسن بن الهيثم من أعظم علماء الطبيعة الذين وضعوا أسس علم البصريات حيث «أرسى قواعد الفكرة في أن الضوء هو العامل أو المؤثر الخارجي الذي يحدث منه إحساس البصر، وهي فكرة لم تكن مقررة ولا معتمدة» (جلال مظهر: أثر العرب في الحضارة الأوروبية). ومما هو ثابت أيضاً أن العرب والمسلمين يعتبرون من واضعي أسس علم الكيمياء لما أدخلوه على هذا العلم من الدقة والملاحظة والتجارب. «ويكاد المسلمون يكونون هـم الذين ابتدعوا الكيمياء بوصفها علماً من العلوم، ذلك أن المسلمين ادخلوا الملاحظة الدقيقة، والتجارب العلمية، والعناية برصد نتائجها في الميدان

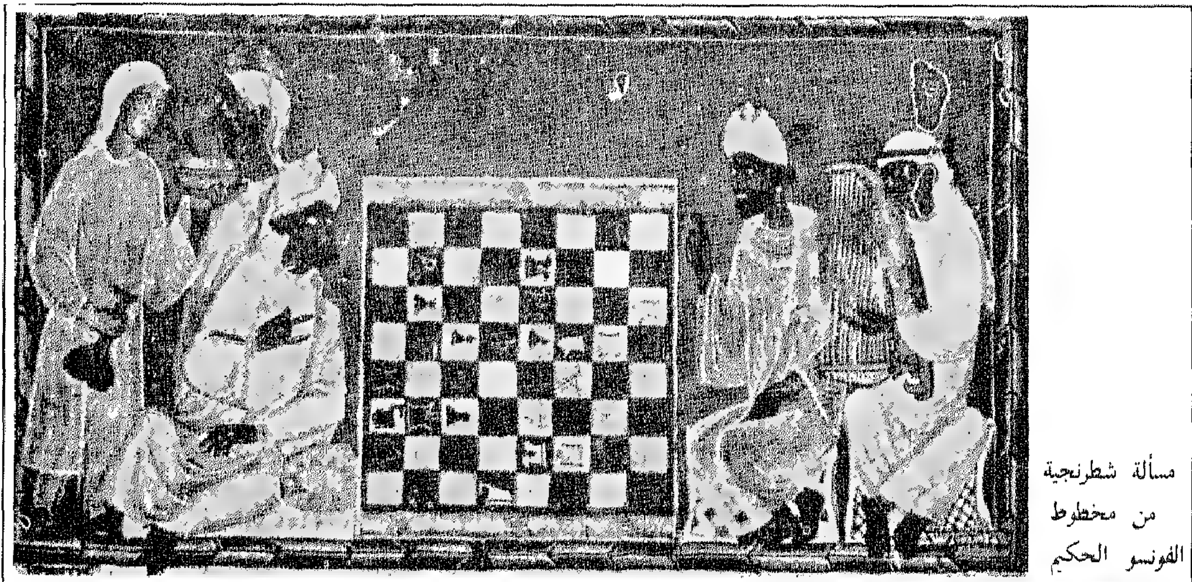
الذي اقتصر فيه اليونان – على ما نعلم – على الخبرة الصناعية والفروض الغامضة فقد اخترعوا الأنبيق وسموه بهذا الأسم ، وحللوا عدداً لا يحصى من المواد تحليلاً كيميائياً ، ووضعوا مؤلفات في الحجارة . وميزوا بين القلويات والأحماض ، وفحصوا عن المواد التي تميل اليها ، ودرسوا مئات من العقاقير الطبية ، وركبوا مئات منها » . (ديورانت : قصة الحضارة) .

كانت مساهمة العرب في تطوير علم الجغرافيا تسير جنباً إلى جنب مع بقية العلوم . فكانت الجغرافية الوصفيّة أهم منجزاتهم في هذا الحقل . فنبغ منهم المسعودي في «مروج الذهب» وياقوت في «معجم البلدان» والأدريسي في «نزهة المشتاق» ومما ينسب إليهم كذلك تصحيحاتهم للأخطاء التي وردت في كتاب بطليموسّ الجغرافي ووضعهم لخطوط الطول والعرض . ويذكر أبو الفدا في تقويم البلدان أن السفر حول الأرض بإتجاه الغرب ينقص يوماً وفي إتجاه الشرق يزيد يوماً مما يدل على إيمانهم العميق بكروية الأرض التي كان يرمي قائلها في أوروبا بالهرطقة ومخالفة نصوص الدين .

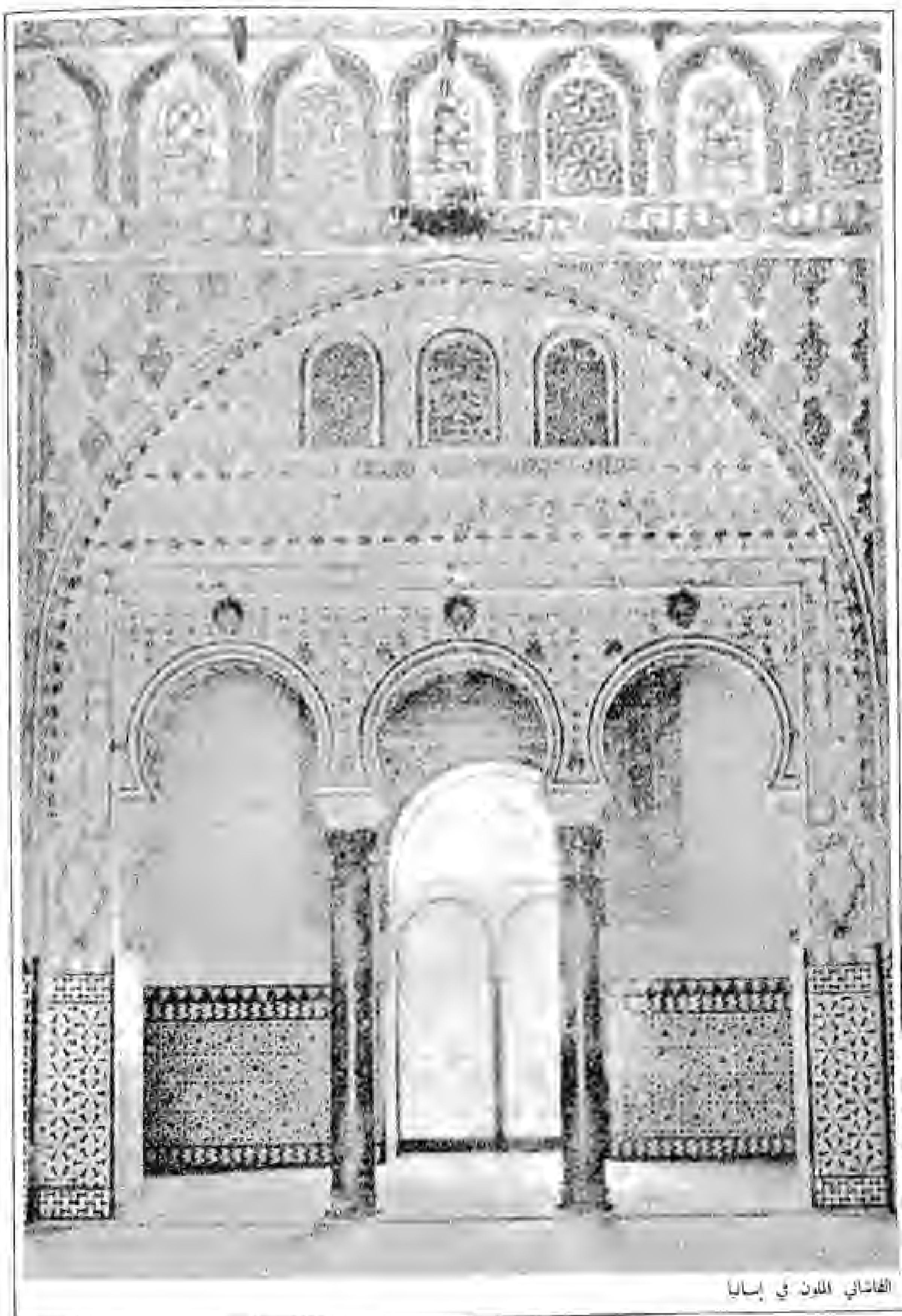
شواهد من تراث العرب والمسلمين الفلسفي والأدبي

أدى استقرار المسلمين وترفهم المادي إلى انصرافهم للتفتيش عن أسلحة عقلية تدعيماً لمذاهبهم السياسية المتصارعة على حلبة الدين . ولما كانت الفلسفة من أمضى الأسلحة فقد اقبلوا على النهل منها . فنشطت الترجمة إلى العربية وساد التسامح الديني أنحاء العالم الإسلامي مما سمح بهجرة علمية واسعة استقرت في بلاد الإسلام وبالتحديد في كنف بعض الخلفاء الذين افتتنوا بالفلسفة اليونانية وبسطوا حمايتهم الواسعة على الفلاسفة البيزنطيين اليونان والمترجمين من أهل الذمة . بل انهم سمحوا لهم بأن يتقلدوا مناصب عليا في الدولة الإسلامية . وهكذا جمع المسلمون مادة فلسفية غزيرة نتيجة للتفاعل الحضاري العظيم الذي نشأ عن امتزاج بين الحضارات اليونانية والفارسية والهندية والمسيحية ثم العربية . وكانت هذه المادة علمية خالصة . فالفلاسفة المسلمون كانوا في نفس الوقت علماء وأطباء حاولوا مساندة الدين بالفلسفة كأبن سينا والكندي والرازي . وتشير آراء المعتزلة إلى أن القرآن إذا ما تعارض مع العقل فمن الواجب ان يفسر تفسيراً مجازياً وليس حرفياً . كما حاول ابن سينا أن يوفق بين فلسفته وعقائد العامة مستنداً على العقل وحده .

والفلاسفة المسلمون كشفوا عن الفلسفة اليونانية وأبدعوا في شروحاتهم لها . كما أضافوا عليها إضافات كثيرة وجعلوها وسيلة لخدمة الغرض الديني . وعندما عبرت فلسفتهم حدود الدولة الإسلامية إلى الغرب أخذت تحدث داخل الكنيسة المسيحية الهزة العظيمة



مسألة شطرنجية من مخطوط الفونسو الحكيم



القاشاني الملون في إسبانيا

التي عرفت بعد نضجها بحركة الاصلاح البروتستانتي. ولهذا فإن البابوية تخوفت أول الأمر من اقبال الأوروبيين على الفلسفة والشروحات العربية المترجمة إلى اللاتينية. فلجأت إلى سياسة التوفيق بينها وبين اللاهوت كما حاولت وضع اللاهوت في خدمة الدين. وعندما حاول سيجر البرابنتي في القرن الثالث عشر التوفيق بين العقل والإيمان، كما فعل ابن رشد، حرمت البابوية تعاليمه. وهكذا فإن الغرب الأوروبي في العصور الوسطى مدين إلى العرب بمعرفة فلسفة اليونان وخاصة فلسفة أرسطو على ضوء شروحات ابن رشد لها حتى باتت تعرف باسم الرشدية اللاتينية. ويذكر ريسلر أن توما الأكويني الف كتاب «الخلاصة» لكي يناهض فكر أبن رشد. ولكنه لم يستطع غير أن ينهج نهجه في شروحه المتنوعة. «ظلت فلسفة ابن رشد عاملاً حياً في الفكر الأوروبي حتى ميلاد العلم التجريبي الحديث. وقد حفظ اللسان اللاتيني أكثر من تأليف واحد لأبن رشد فقدت أصوله العربية وكان لفلسفته في الغرب خلال فترة من الزمن أن تفخر باجتذابها إهتمام أعظم مفكري العصر». (الفردغيوم: تراث الإسلام).

أما عن أثر العرب الأدبي في النهضة الأوروبية فيتضح في الكوميديا الالهية لدانتي التي استمدها من قصة الاسراء والمعراج. ولعل دانتي قد اطلع على القصص الإسلامية الدينية التي تناولت هذا الموضوع من خلال علاقة الايطاليين التجارية مع العرب. أو عن طريق صقلية المعبر الثاني للثقافة العربية إلى أوروبا. وقد كشف الايطالي ميشال آسين بالايثوس في دراسته «الكوميديا الالهية والإسلام» أن الاصول الاسلامية كانت الأساس الذي بنيت عليه الكوميديا الالهية. أما بوكاشيو فقد حذا في القرن الرابع عشر في كتابته «الأيام العشرة» حذو ألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة وذلك لما نلمسه من مشابهة تامة بين قصصه وهذه. ومع أن الباحثين قد اختلفت آراؤهم حول أثر العرب في اشعار التروبادور والشعر الاسباني إلا انه لا يمكننا أن ننكر ما كان للغة العربية والشعر العربي الحماسي في القرون الوسطى من أثر بالغ على اداب الغربيين. «ولم تضارع حضارة من الحضارات ولم يضارع عصر من العصور – لا نستثني من هذا التعميم حضارة الصين في أيام لي يو، ودوفو، ولا حضارة ڤيمار – حين كان فيها مائة مواطن وعشرة آلاف شاعر – الحضارة الاسلامية في عهد الدولة العباسية في عدد شعرائها وتراثهم». (ديورانت: قصة الحضارة).

وهكذا كان أثر الحضارة الاسلامية عظيماً على العالم، وإن هذا الأثر يعود إلى العرب أكثر مما يعود إلى بقية العناصر الذين أخذوا بهذه الحضارة. واستطاع العرب على حد تعبير لو بون أن يكبحوا بسلطتهم جماح العناصر البربرية التي حطمت حضارة الامبراطورية الرومانية. كما إنهم قدموا لأوروبا العلوم والاداب والفلسفة: فكانوا بذلك محضرينا ومعلمينا طيلة ستة قرون.

■

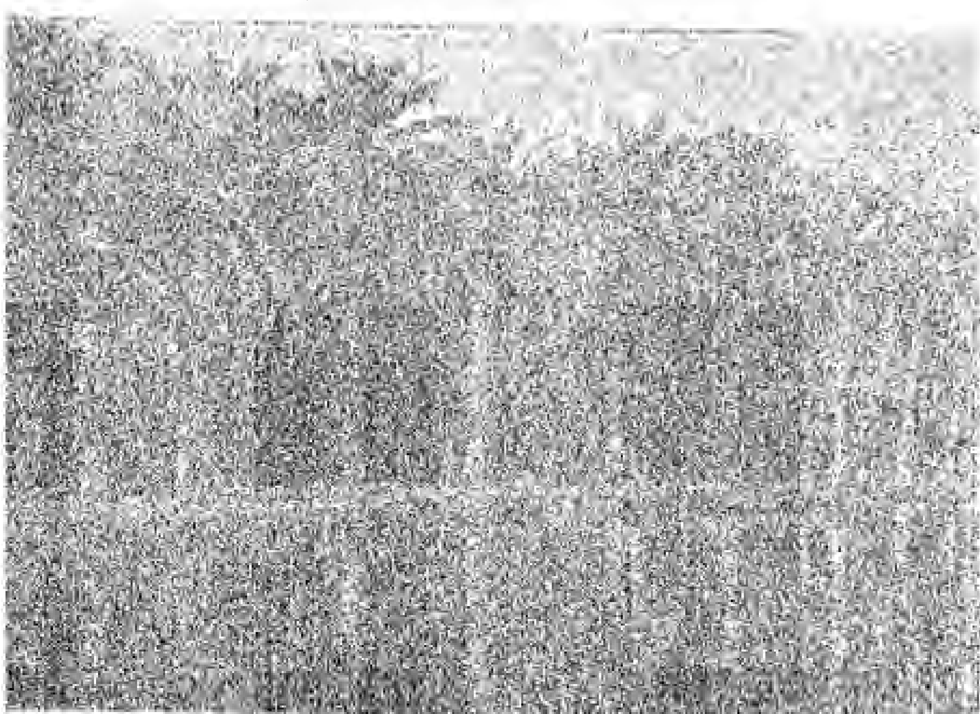
كوب عربي قديم من الزجاج



العراق

بلاد الرافدين مهد حضارات عريقة حية تكيفت مع الحضارة العربية الإسلامية

إعداد قسم الأبحاث والدراسات



من بين البلاد العربية القليلة التي شهدت فوق أرضها الطبيعية تواصل كبريات الحضارات العريقة في التاريخ واستمرارها في صورة أو في أخرى حتى عصرنا الحاضر، يبرز عراق ما بين النهرين (دجلة والفرات) كنموذج فريد من نوعه في الشرق العربي، لا يضاهيه، ربما في جانب واحد فقط من جوانب هذه المسألة، إلا مصر - النيل الخالد. فكما أن مصر هبة النيل كذلك العراق هبة الفرات ودجلة المتحابين على مر الزمن.

من هنا نفهم كل العمق والغنى الكبيرين لاستنتاج أرنولد توينبي الآتي :

«... نحن نعرف في كل من مصر والعراق القديم بداية الحضارة وبداية الزمن الذي احتل فيه الإنسان حوض النهر بصورة فعّالة. وفي الحالتين نجد نظاماً سياسياً قوياً ضخماً نسبياً بمقارنته بأي شكل من أشكال الحكم التي كانت قائمة في الواحات المحيطة في العصر الحجري الحديد السابق. وفي الوقت نفسه فإن الأوضاع السياسية القديمة في العالم السومري في العراق وفي العالم المصري القديم عند بدء الحضارة، يختلف بعضها عن البعض الآخر اختلافاً شديداً بناء العليا في مملكة متحدة تتكون منهما معاً. وهي التي استمرت في الواقع كوحدة سياسية وقومية واحدة حتى يومنا هذا.

«وبينما نجد أن التاريخ السومري في العراق بدأ بالدويلات المحلية المتعددة المستقلة عن بعضها البعض. نجد أن التاريخ المصري بدأ بالدولة العالمية لأن مصر، من وجهة نظر المصريين، كانت كل العالم. وفي الوقت الذي كانت العلاقات بين مصر وسومريا (العراق القديم) نادرة وصعبة. كانت كل على ما استطعنا أن نحققه في ردهما إلى أصولهما.

«وحينما يرتفع الستار عن السومريين في العراق، نجد أن العراق تألف من دويلات مستقلة صغيرة تتكون كل منها من مدينة واحدة ومن المناطق المحيطة بها. وحينما نرفع الستار عن التاريخ المصري نجد أن أول عمل كان توحيد مصر السفلى مع مصر من الدولتين - من وجهتها - تمثل العالم المتحضر كله.

«وهكذا، منذ فجر الحضارة، نرى أن النمطين الرئيسيين للتنظيم السياسي وجدا. وهما اللذان ظلا في تنافس مستمر حتى وقتنا هذا وفي عالمنا المتحضر»[1].

الحضارات الأولى :

على رغم الاكتشافات الأثرية العديدة لحضارات بلاد ما بين النهرين القديمة والتي امتدت عمليات التنقيب عنها حتى مناطق الخليج العربي، لا تزال الخلافات قائمة بين المؤرخين وعلماء الآثار حول أكثر من جانب أو فترة من هذه الحضارات ولكن ما يتفق حوله هؤلاء البحاثة هو أن العراق كان وطناً للإنسان منذ أقدم العصور الحجرية، أي انسان «النياندرتال».

وإنتشر هذا الإنسان في العصر الحجري الحديث في سهول المنطقة الجبلية من بلاد ما بين النهرين، واستنبط فن الزراعة البدائية. والمثير انه عثر في قرية «جرمو» القريبة من مدينة «جمجمال» على أقدم القرى الزراعية في العالم (أي في حدود ٦٠٠٠ سنة ق. م.).

وكانت القبائل الأولى في التاريخ القديم التي بنت أشهر حضارات بلاد الرافدين - وهي قبائل السومريين - انحدرت من الاقوام التي استوطنت البلاد بأراضيها الخصبة، أي الهجرات القادمة من منطقة شبه الجزيرة العربية والخليج العربي[٢].

وخلال أكثر من ثلاثة آلاف سنة تعاقبت على المناطق المحيطة بدجلة والفرات أربع حضارات عريقة لا تزال إشعاعاتها تنتشر وتؤثر في إنسان القرن العشرين :

● الحضارة السومرية في الجنوب (حوالي ٣٠٠٠ - ٢٤٠٠ ق. م.) وهي أم هذه الحضارات الأربعة وأقدمها. ويرجع للسومريين الفضل الأكبر والأول في اختراع الكتابة في العالم. وفي عهدهم الذهبي كتبت ملحمة جلجميش التي سبقت إلياذة هوميروس بروعتها الأدبية وموضوعها الملحمي الاسطوري.

تم اكتشاف آثار هذه الملحمة في العام ١٨٣٩ على يد الباحث الانكليزي لايارد وكانت سطور الملحمة محفورة على ١٢ لوحة من الاجر وعثر عليها في مكتبة أشور بانيبال في مدينة نينوى.

● الحضارة البابلية في الوسط (حوالي ٢٤٠٠ - ١٢٤٧ ق. م). التي خلفت الحضارة السومرية بكل كنوزها الحضارية وأضافت اليها اثاراً لا تقل غنى وهي شريعة حمورابي (حوالي العام ١٧٥٠ ق. م.) التي عثر عليها العام ١٩٠٢.

وتعتبر هذه الشريعة أعظم قانون عرفه العالم القديم من حيث الشمول والكمال. وحفرت مواده على مسلّه من حجر البزلت موجودة اليوم في متحف اللوفر في باريس.

● الحضارة الأشورية في الشمال (حوالي ١٢٤٧ - ٦١٢ ق. م) التي كان مركزها في نينوى ولكن انتشرت سيطرتها على جميع مناطق سورية الطبيعية ومصر وآسيا الصغرى وقبرص.

● الحضارة الكلدانية التي سميت بـ «البابلية الجديدة» بسبب إعادة الكلدانيين بناء مدنية بابل التي كان الاشوريون دمروها. ودامت هذه الحضارة ردحا قصيراً من الزمن بالقياس مع سابقاتها (٦١٢ - ٥٣٩ ق. م) أبرز انجازات امبراطور الكلدانيين، الملك نبوخذ نصر، تجسدت في بناء «الجنائن المعلقة» في بابل التي تعتبر إحدى العجائب السبع في العالم. وكانت عمليات التنقيب عنها بدأت في العام ١٨٥٢ على يد علماء جيولوجيين فرنسيين وتابعها منذ العام ١٨٩٩ فريق الماني والذي توصل حوالي العام ١٩١٧ إلى العثور على معظم الرسوم والخرائط المتعلقة ببابل وبرجها العجيب في بنائه.

وفي عهد نبوخذ نصر انطلقت أول حملة في التاريخ إلى فلسطين (٥٨٦ ق. م) أدت إلى إخضاع مملكة يهوذا المقامة على جزء من أرض فلسطين وإحتلال عاصمتها (أورشليم) القريبة من مدينة القدس الحالية.

وعلى أثر وفاة نبوخذ نصر تزعزعت أركان الامبراطورية مما سهل سيطرة الغرب عليها. وبسقوط الدولة الكلدانية زالت هيمنة الشعوب السامية على الحياة السياسية والحضارية ليس في بلاد الرافدين فحسب بل في جميع بلدان آسيا الغربية أيضاً طوال الف سنة تقريباً.

المرحلة الانتقالية :

لا جدال في أن الفترة التاريخية التي أعقبت الحضارات العريقة الأربعة وسبقت الفتح العربي - الإسلامي هي حقبة يمكن تسميتها بـ


الموصل
سوريا
ايران
الفرات
بغداد
دجلة
كربلاء
النجف الاشرف
البصرة
الخليج
الكويت
السعودية
العراق



بابل

«الانتقالية» لسبب بسيط هو كون الغزوات والسلالات الأجنبية التي تعاقبت على حكم بلاد الرافدين من الحثيين والفرس الاخميديين والأغريق السلاجقة والبارثيين والرومان والفرس الساسانيين دمرت أكثر مما بنت واقتبست أكثر من اعطت، على أكثر من صعيد وفي أكثر من مجال.

ومما يدل أكثر على هشاشة ما قدمته هذه الغزوات، طبعاً من غير الحديث عن ما دمرته، هو أن أهم الآثار التاريخية على الاطلاق في العراق اليوم هي آثار الحضارات السومرية والبابلية والأشورية والكلدانية والعربية - الإسلامية.

وللصدف التاريخية - التي لها صفة موضوعية أن مرحلة انتقالية ثانية ستشهدها بلاد ما بين النهرين، وهي الحقبة التي تلت سقوط عاصمة العباسيين بيد التتر (١٢٥٨م/٦٥٧هـ). وإنتهت بثورة الجمهوريين في تموز/يوليو ١٩٥٨. التي شكلت نقطة التحول في تاريخ العراق الحديث.

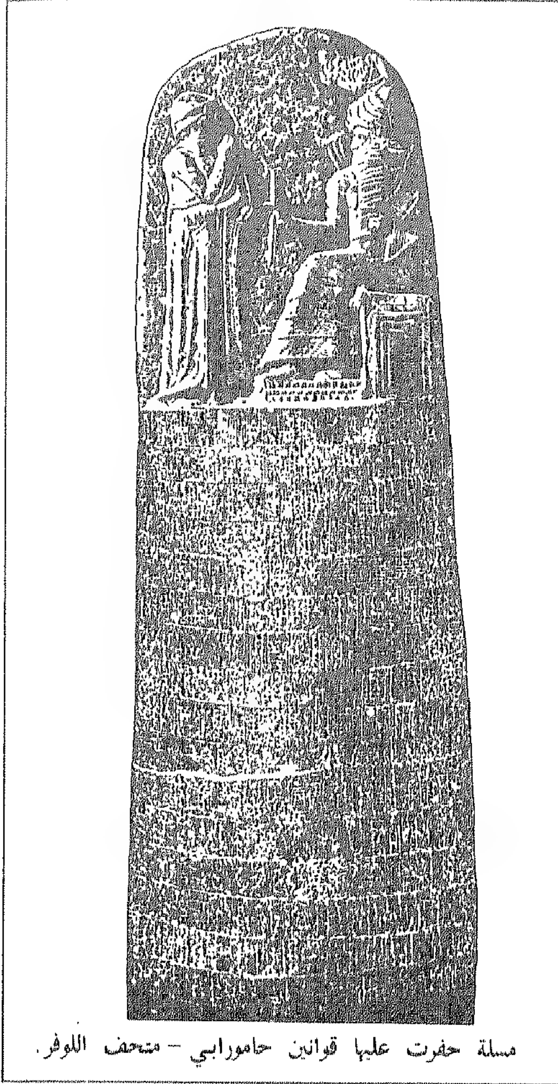
ومن خلال عملية حسابية صغيرة والتي ليست لها إلا صفة استدلالية هنا، نلاحظ ان المرحلة الانتقالية الأولى استمرت أكثر من الف سنة بعد تواصل اشعاع حضاري دام أكثر من ٢٥٠٠ سنة. بينما تميزت المرحلة الانتقالية الثانية بكونها استمرت حوالي ٧٠٠ سنة بعد الأشعاع الحضاري العربي - الإسلامي في المنطقة أكثر من ٦٠٠ سنة، كان من نصيب العباسيين فيها أكثر من ٥٠٠ سنة.

القادسية والفتح العربي - الإسلامي

هل كان الفتح العربي - الإسلامي للعراق مجرد خطوة كمية جديدة للفتوحات السابقة أم كانت نقلة نوعية لم تستوف بعد حتى اليوم حقها من البحث والدراسة؟

ما هي القيمة التاريخية الفعلية لمعركة القادسية (٦٣٦م/١٥هـ)؟.

أفضل من أوجز جوهر المغزى الحقيقي لهذه المعركة الاستراتيجية المهمة في التاريخ العسكري العالمي[٣] هو الباحث أحمد عادل كمال في كتابه «القادسية»[٤] الذي قال:



مسلة حفرت عليها قوانين حامورابي - متحف اللوفر.

«لا شك ان القادسية - وتقاربها اليرموك - تقع على قمة قائمة المعارك الحاسمة في تاريخ العالم، فهي التي انفتحت على أثرها أبواب العراق، ومن وراء العراق فارس كلها، وهي التي من عندها استطرد نصر المسلمين فاستطرد معه السقوط الساساني من الناحيتين الحربية والسياسية، والسقوط المجوسي من الناحية الدينية العقائدية. ومن هنا انساح دين الإسلام شرقاً وغرباً، ولولا ذلك لظل محصوراً في جزيرة العرب لا يتعدى القبائل الضاربة في صحاريها وحواضرها القليلة ...» (صفحة ١٠).

هذا على الصعيد العسكري. أما على الصعيد الفكري فكان للعراق دور لا يقل أهمية خصوصاً وانه تحمل مسؤولية حوالي خمسة اسداس فترة الاشعاع الحضاري العربي - الإسلامي.



مئذنة «الملوية» في سامراء إلى جانب آثار «المسجد الجامع» الذي بناه المعتصم

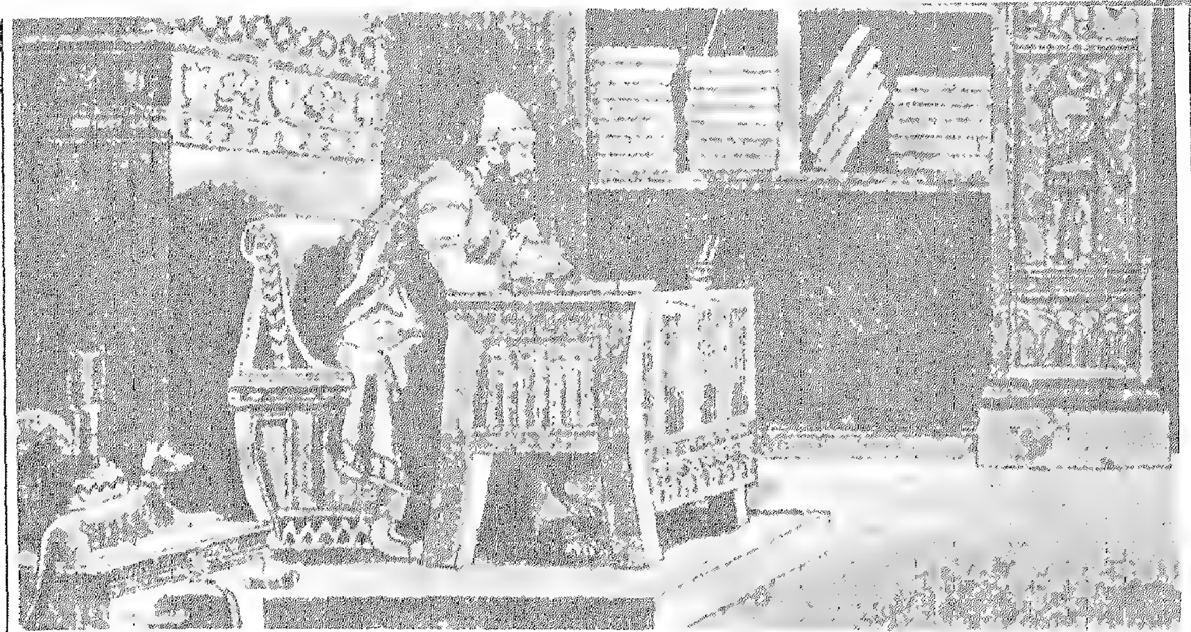
ففي صدر الإسلام تعايشت في مناطق ما بين النهرين ثلاثة تيارات ثقافية أساسية كوّنت قاعدتها الفكرية وهي: الثقافتان الفارسية والاغريقية - الشرقية (أو الهيللينية) والتيار الناشئ العربي - الإسلامي. ولكن لم تلبث أن خمدت الثقافتان الأوليان وأفسحتا المجال للفكر الجديد القادم مع العرب - المسلمين. ليتفاعل معهما في بوتقة توليفية واحدة.

وفي العهد العباسي (١٣٢هـ/٧٥٠م - ٦٥٧هـ/١٢٥٨م). أبدع العرب والمسلمون في كل مجالات الفكر والثقافة والعلوم وكادت الحضارة العربية - الإسلامية ان تسود قارات آسيا وأفريقيا وأوروبا لولا احتلال التتر لبغداد العام ١٢٥٨م/٦٥٧هـ. وذلك بعد تضعضع أوضاع الامبراطورية العربية - الإسلامية في عهدها العباسي الأخير. فهل صدفة أن تكون نهاية العهد العباسي هي بالذات نهاية الاشعاع العربي - الإسلامي؟ وما مدى ما اسماه د. الياس فرح بـ «اغتيال الحضارة العربية ضد سقوط بغداد العام ١٢٥٨م»[٥].

المهم ان عصر الظلام ساد في عراق العباسيين حتى الحرب العالمية الأولى، عندما بدأ الشعب يستعيد مكانته تدريجياً، مما دفع بالسلطة الاستدمارية البريطانية إلى التراجع شكلاً عن «انتدابها» الذي دام من ١٩٢١ إلى ١٩٣١، واعلان استقلال ملكي هش ما لبث أن اسقطته ثورة ١٩٥٨ الجمهورية.

أول تجربة من نوعها لاسترداد الآثار

يكتسب الحديث عن الآثار التاريخية في



رسم لمكتبة أشور بانيبال .

العراق[٦] . في المرحلة الراهنة أهمية استثنائية بسبب المحاولات الرسمية الجارية لاسترداد الآثار العراقية المسروقة والموجودة في العديد من متاحف العالم ، خصوصاً المتحف البريطاني في لندن ومتحف المتروبوليتان في نيويورك ومتحف اللوفر في باريس ومتاحف استانبول وشكياغو وفيلادلفيا . وتستند هذه المحاولة ، وهي أول تجربة من نوعها ، على الصعيد الرسمي العربي ، إلى توصية اصدرتها الجمعية العامة للأمم المتحدة العام ١٩٧٥ والتي مفادها أن التحف والآثار الأخرى على أنواعها يجب اعادتها إلى بلدان المنشأ[٧] .

ولكن الأمر الذي نرى انه يجب توجيه الأنظار اليه هو محاولة العديد من الأوساط الغربية التي تتخفى وراء ستار «العلم» لاستغلال دراسة الآثار التاريخية القديمة لحضارات السومريين والبابليين والاشوريين والكلدانيين بهدف توظيفها لأهداف سياسية مباشرة ، إضافة إلى محاولة ابرازها في شكل يعزلها عن آثار الحضارة العربية – الإسلامية التي تتعايش ثقافياً وحتى تتجاوز في أكثر من موقع مع مثيلاتها الباقية من الحضارات السابقة .

ان ما لم يستوعبه بعض علماء التاريخ والآثار

كبار قادة فتح العراق أيام أبي بكر الصديق

● المثنى بن حارثة الشيباني . القائد الذي جرّأ العرب – المسلمين على مهاجمة الامبراطورية الساسانية ومهّد لفتح العراق في معركة نهر «البويب» .

● خالد بن الوليد المخزومي . سيف من سيوف الله ، هازم الفرس في أرض العراق قبل أن ينتقل إلى أرض الشام (١٣ هـ/٦٣٤ م) .

● أبو عبيد بن مسعود الثقفي ، فاتح منطقة الفرات الأوسط وشهيد معركة عبور الفرات .

● سعد بن أبي وقاص الزهري . فاتح العراق (في معركة القادسية) وتحريره لأكثرية بلاد فارس واذربيجان والجزيرة وبعض أرمينية ، أي بلغة الجغرافيا المعاصرة : العراق وأكثرية مناطق إيران بحدودها الحالية والقسم الجنوبي من تركيا الحديثة .

المصدر : «قادة فتح العراق والجزيرة» ، بقلم اللواء الركن محمود شيت خطّاب . إصدار دار الفكر ، بيروت ، طبعة ثالثة ١٩٧٧ .

والحضارات القديمة وحتى علماء الإناسة (الانتروبولوجيا) والعراقة (الاثنوغرافيا) في الداخل والخارج، هو كون الميزة التاريخية والحضارية لشعوب بلاد ما بين النهرين قديماً وحديثاً، تتمثل في واقع اندماج تراث الحضارات العريقة بعضها ببعض وتواصلها عبر الزمن وتكيفها مع الحضارات الجديدة الوافدة من غير أن تنفي بعضها البعض. وما صمود هذه الحضارات العريقة، وخصوصاً الحضارة العربية - الإسلامية، في وجه كل الموجات التدميرية إلا برهاناً على ذلك.

من هنا يمكن ان نقيس مدى التفاعل الواسع الذي جرى ويجري في بلاد ما بين النهرين بعكس ما تم مثلاً على الأرض الأميركية حيث دمرت الحضارة الجديدة الوافدة من أوروبا، في شكل لا مثيل له في عنصريته إلاّ على يد الصهاينة، مكتسبات تراث الهنود الحمر والازتيك والمايا. ■

هوامش البحث

(١) راجع مقال أرنولد توينبي: «تاريخ الشرق الأوسط من العصر الجليدي إلى الدولة السومرية»، مجلة «تاريخ العرب والعالم» العدد الأول، تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٨ ص ٧٥ - ٧٦.

(٢) منذ العام ١٩٧١ بدأت مديرية الآثار العامة في العراق بإرسال البعثات العلمية للتنقيب عن آثار تؤكد هذه الفرضية. وتكللت جهود هذه البعثات بالنجاح في أكثر من موقع (أبو ظبي والفجيرة خصوصاً) إذ هي ألقت الضوء على المستوطنين القدامى وأصل السومريين، مما يبدد العديد من الآراء السابقة حول هجرات السومريين.

(٣) تم إنجاز مشروع «بانوراما بغداد» في نهاية العام ١٩٧٩ الذي يصور بالتفصيل وقائع معركة القادسية ويضم متحفاً عسكرياً للأسلحة التي استخدمت فيها وشاشة دائرية تبلغ مساحتها ١٦٠٠ متر مربع صورت عليها تفاصيل المعركة. ويعتبر هذا المشروع رابع مشروع من نوعه في العالم بعد البانوراما البلجيكي الذي يصور وقائع معركة واتيرلو، وبانوراما موسكو الذي يصور انكسار نابليون لدى غزوه لروسيا القيصرية والأخداث البانورامية التي انشئت في عاصمة كوريا الديمقراطية العام ١٩٧٢.

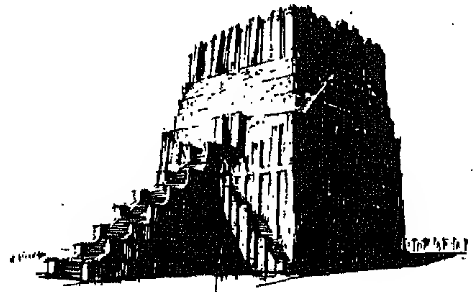
(٤) أحمد عادل كمال: «القادسية»، إصدار دار النفائس، بيروت الطبعة الثانية ١٩٧٧، من سلسلة «استراتيجية الفتوحات الاسلامية»، راجع أيضاً مقال د. رضوان السيد «حرب القادسية: بداية صفحة جديدة في العلاقات العربية الفارسية» في مجلة «تاريخ العرب والعالم» العدد ١٢/ص ١٦.

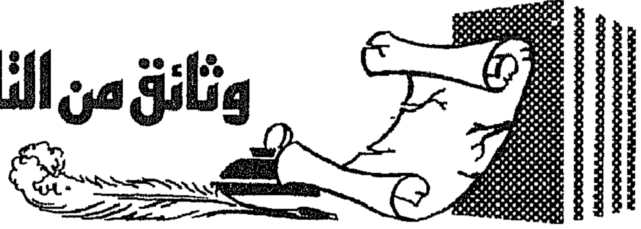
(٥) راجع مقال د. الياس فرح: «دور الوطن العربي في ميزان القوى العالمية» في مجلة «آفاق عربية» الصادرة في بغداد، تموز/يوليو ١٩٧٩ ص ٤.

(٦) يمكن العودة في هذا المجال إلى مقال د. ديمتري برامكي: «الآثار العراقية من أقدم الأزمنة حتى العهد الكلداني»، مجلة «تاريخ العرب والعالم» العدد ٤/ص ٣٨. - اضافة إلى مقال: «بقايا العصر العباسي أو قصر المأمون في بغداد» من اعداد «قسم الدراسات» في مجلة «تاريخ العرب والعالم» العدد الأول صفحة ٤٠.

وأيضاً مقال جعفر الخليلي: «معالم الحضارة العربية الاسلامية في العراق» مجلة «قافلة الزيت» الصادرة في السعودية، مارس/آذار - ابريل/نيسان ١٩٧٢ ص ٤١.

(٧) في حديث مهم نشرته صحيفة «الشرق الأوسط» الصادرة في لندن (١٩٧٩/١١/٩) نقلاً عن وكالة «رويتر» قال الدكتور مؤيد الدامرجي رئيس مؤسسة الآثار والتراث التابعة لمديرية الآثار: «ان متحف اشموليان في أوكسفور مثال صارخ على السلوك الاستبدادي. لقد استعاروا عدداً كبيراً من القطع الأثرية منا منذ أوائل الخمسينات لأغراض الدراسة. وباتوا الآن يقولون ان هذه القطع ملك لهم لأنهم أدخلوها في قوائم موجودات المتحف. وهم يقولون بالاضافة إلى ذلك ان المسألة تقع تحت قانون مرور الزمن. وليس هناك سوى كلمة واحدة لكل هذا السرقة...».





ثلاث وثائق تاريخية حول:

الصّراع الدّرزي - المارُوني على «إمَارة الجبَل» عَام ١٨٤١

اعـداد: د. وجيه كوثراني

تفتح المجلة باباً جديداً من أبوابها في عامها الثاني، هو باب: «وثائق من التاريخ». والمجلة إذ تنطلق من أهمية اعادة نشر بعض الوثائق التي تحمل موضوعات ذات صلة بمجرى التاريخ العربي الحديث والمعاصر، وذات اطلالة على مسائل حاسمة في تاريخ الصراعات التي لا تزال تفعل في تاريخ البلاد العربية والاسلامية، تود بتقديمها نماذج من تلك الوثائق، أن تجعل الوثيقة غير المنشورة، المختارة مباشرة من الارشيف، أو المنشورة في كتب قديمة نافدة ولا تتوفر الا في كبريات المكتبات العامة، ان تجعلها في متناول القارئ العربي، وان تسهل على طلاب البحوث الاطلاع عليها. والمجلة ترجو ممن يهتم بجمع الوثائق واقتنائها وممن يملك ارشيفا عائلياً محلياً، تزويدها بما يكون مناسباً للنشر، خدمة للعلم والتاريخ.

فيما يلي ثلاث وثائق تعرض لأشكال من الصراع الدرزي - الماروني في الجبل عام ١٨٤١. وتشير إلى الحدث الأساسي الذي فجّره: وهو تعيين الأمير بشير الثالث أميراً على الجبل، بحيث اعتبر هذا التعيين من جانب الدروز عنصرَ اخلال قاطع بالتوازن بينهم وبين الموارنة. ثمة موقف تعبر عنه عريضة الدروز إلى الباب العالي وهو ان سلطة الامارة قد تحوّلت عنهم بعد أن كانت في الماضي بيدهم، وهم يستعيدون كمثل صارخ عن هذا التحول في الامارة الشهابية، موقع الشيخ بشير جنبلاط في صراعه مع الأمير بشير الثاني، ويطالبون السلطان بتعيين رئيس منهم «كما كان الحال في عهد الشيخ بشير جنبلاط» على حد تعبير العريضة.

واللافت للنظر أنه في حين يعتبر الدروز ان الامارة قد أصبحت بيد المسيحيين وقد خسروها نهائياً على يد الشهابيين، كانت الدولة العثمانية وبفعل التقليد الذي استمر والذي يعتبر امارة «الجبل» «إمارة للدروز» لا تزال تعتبر الأمير الشهابي «أميراً درزياً» و«أميراً على الدروز» كما يثبت ذلك الفرمان السلطاني إلى الأمير بشير قاسم: «... ان بابنا العالي على ثقة من انك إذا عينت أميراً على الدروز فلا تحجم عن اتيان وسائل خضوع جديدة لأوامرنا وتزداد صفات الأمانة والاخلاص والنشاط الغريزية فيه نماءً ولهذا نعلمك خلعنا الأمير بشيراً ونسميك مكانه أميراً لعشائر الدروز».

بيد أن هذا التعيين إلى جانب عوامل أخرى أساسية أخل نهائياً بعلاقة التوازن حول السلطة وكان مفجراً للهجوم الدرزي على دير القمر. هذا الهجوم الذي تشير إليه وثيقة مسيحيي دير القمر إلى قناصل الدول مطالبة اياهم بالتدخل للحماية والضغط على الوالي العثماني لتأمين الحماية للأمير وللمسيحيين.

١ – عريضة الدروز إلى الباب العالي بتاريخ آخر حزيران سنة ١٨٤١.


لمّا كانت الطائفة الدرزيّة تدين بالاسلامية منذ عدة قرون ظلّ أجدادنا خاضعين لأوامر الباب العالي ولبثنا ناهجين نهجهم باخلاص وأمانة حتى سنة ١٢٤١ للهجرة وفي ذلك التاريخ كان يتولى أمورنا ثلاثة مشايخ جُدُدِهم الشيخ بشير جنبلاط وعلي عمر والسيد حسين أحمد فهذان الأخيران كانا حامي ذمار عشيرتنا وممثلينا في كل شؤوننا التي كانت قيد مداولاتهما في منتدياتهما. واستمررنا حتى ذلك العهد نتعم في بحبوحة السعادة والأمن العام على ان هذه الحالة تبدّلت في عهد حكومة عبد الله باشا والي صيدا إذ أمر بفصل الشيخين المشار إليهما ووكل إدارة شؤوننا إلى رئيس الأمة المسيحية الأمير بشير حاكم الجبل سابقاً الموجود اليوم في المنفى.

فهذا الأمير نشأ مسلماً ثم اعتنق الديانة المسيحية إنما كان يجتهد بأن يظهر أمامنا بمظهر مسلم ولكنه بدون ريب كان مسيحيًّا. وخلا ما تقدم فقد كان يعاملنا برعاية متناهية تفضل معاملته للمسيحيين وبقي مثابراً على نهجه حتى يوم نفيه.

أما اليوم فإن الأمير الكبير الذي يحكم الجبل فلكونه مسيحياً ينزل بنا ضروب الاحتقار ساعياً لاذلالنا حملاً لنا على اعتناق ديانته بل انه يكرهنا عليها فلا يسعنا ان نحتمل اضطهادات هذا الأمير والأمة المسيحية ولا استبدادهما بنا فهما يحاولان اخراجنا من دائرة الطاعة الواجبة علينا للباب العالي وادخالنا في طاعة غير المؤمنين مما لا يمكنّا قبوله لأننا لن نرضى أبداً بالمروق عن طاقة الباب العالي الذي أظلنا في كل آن بحمايته واننا لنجاهر تكراراً بأننا لن نلوذ أبداً بكنف حماية الأجانب ولو كان في ذلك ابادتنا جميعاً نحن ونساؤنا وأولادنا.

لقد طالما كنّا أوفر وجاهة من المسيحيين محترمي الجانب فكيف نطيق أن نكون تحت سيطرتهم اذلاء مهانين؟ لامراء ان هذه الحالة لا تلائمنا وحكومة جلالة السلطان لا ترضى بها. ان أجدادنا ما فتئوا منذ عهد عهيد خدمة الباب العالي الأمناء ونحن نستمرُّ على مثالهم معلنين تمسكنا بأهداب الاسلامية. وحتى الآن ليس في طاقة أحد أن يتهمنا بالتقاعد عن القيام بواجبات الخضوع لحكومة الباب العالي. وعليه فمن المحال أن نقبل بالبقاء تحت سيطرة حكومة مسيحية والخضوع لها ولأوامرها.

فنسترحم من جلالة سلطاننا العظيم الرؤوف نصر الله اعلامه أن يتنازل فيرعانا بعين عنايته ويعين علينا رئيساً كما كان الحال في عهد الشيخ بشير جنبلاط وتصدر أوامره الشاهانية فيعهد إليه بادارة شؤوننا بموجب فرمان سامٍ يقلده هذا المنصب لخير بلادنا وشرفها. واننا نلتمس ذلك من بحر مكارم سلطاننا الأعظم متعهدين بالخضوع لجميع أحكام خط كلخانه الشريف فيما يتعلق بالضرائب التي تجبى عن املاكنا وأموالنا.

أما العريضة المرفوعة من الأمراء والمشايخ طلباً لاعادة الضرائب على ما كانت عليه في حكومة عبد الله باشا وقد وقّعناها بأختامنا ونقلت عدة صور عنها فنبطلها. لقد اضطررنا إلى توقيعها إذ ذاك قصد وضع حدٍّ للمنازعات والاختلافات. فنحن مسلمون وقد كنّا كذلك منذ البدء. وعليه لا يمكننا أن نمرق من الطاعة الواجبة علينا لحكم الباب العالي. أجل ان المسيحيين هم أوفر عدداً منا إنما بعون الله وعضد الباب العالي سنكون دائماً ظافرين في كل المواقع التي ستدور رحاها. ومن ثمة لما كنّا نرغب اجتناب القتال نجرأ على الأمل بأن جلالة السلطان الأعظم يتنازل إلى تحرير استرحامنا فيشملنا بآلائه وعدالته الشاهانية التي امتازت بها حكومته أيدها الله.

٢ – الفرمان السلطاني إلى الأمير بشير قاسم بتاريخ ٣ أيلول ١٨٤٠. (١)

نوجه أمرنا هذا السلطاني الواجب القبول والاتباع في جميع البلدان البعيدة والقريبة إلى نسيب الأمير بشير الذي نعينه منذ الآن أميراً لجبل الدروز أريد به الأمير العظيم المكرّم بشير قاسم زيد مجده وإلى مشايخ عشائر الدروز وعين أعيان الجبل زادهم الله طاعة.

لدى وصول أمرنا هذا ليكن معلوماً: إنه كان من المتوجب على الأمير بشير ان يأتمر بالأوامر التي صدرت إليه ويظهر دائماً بمظهر التابع المخلص خاضعاً

لجلالتنا الشاهانية المحسنة إليه ويطيع أوامرنا ويبذل جهده في عمل كل ما يطابق رغائبنا ويجتهد في حماية الأهالي والعشائر التي وكلنا إليه أمر رعايتها ويوجه كل عنايته وحكمته مستعملاً كل الوسائل التي لديه لحمايتهم ووقايتهم من كل أذى ومظلمة وفقاً لما توجبهُ عليه تابعيته. بيد إنه اتصل بنا ان الأمير بشيراً لم يقم بهذه الشروط الأساسية وانه لا يزال مصراً على اتباع مقاصد محمد علي باشا ومأموريه والجري وفقاً لنصائحهم وتعليماتهم سالكاً مسلكاً مخالفاً لما كنا ننتظره منه. أما أنت أيها الأمير فبانتهاجك منهج الأمانة وحسن الفطنة والدراية المفطور عليها قد برهنت على اخلاصك لذاتنا الشاهانية اخلاصاً يستحق المكافأة وأثبت طاعتك وأنت تعرف واجبات التابعية ولذلك فان بابنا العالي على ثقة من أنك إذا عُينت أميراً للدروز فلا تحجم عن اتيان دلائل خضوع جديدة لأوامرنا وتزداد صفات الأمانة والاخلاص والنشاط الغريزية فيك نماء ولهذا نعلمك خلعنا الأمير بشيراً ونسميك مكانه أميراً لعشائر الدروز وعليه صدر أمرنا السلطاني هذا من ديواننا الهمايوني. فعليك فور وصول فرمان العالي الشأن أن تتلوه على مسامع من يلزم ثم تقوم بواجبات منصبك هذا بامانتك المعتادة وتدير الشؤون التي من اختصاصك بحكمة وعدالة وفقاً لرغائب جلالتنا السلطانية ومصالحها. وفي عدد الواجبات المفروضة عليك حماية الأهالي وعشائر الدروز الذين ما فتئنا نسهر عليهم ونلحظهم بعين الرعاية ثم تحذيرهم من مقاومة تنفيذ حقوقنا على الأمة والسلطنة ومن كل ما يناقض فروض الطاعة والاخلاص المتوجبة عليهم للباب العالي ومنعهم من أن يشايعوا محمد علي وأعوانه.

وقصارى القول يجب عليك أن تبذل كل ما في طاقتك وتسهر ليل نهار على إتمام ما ينتظره الباب العالي من فطنتك وأمانتك بحيث تستحق مواصلة استمرار النعمة التي منحناك اباها. وأنتم يا مشايخ الدروز متى علمتم اننا عيّنا الأمير بشير قاسم أميراً للدروز يقتضي عليكم كما هو الواجب أن تتحدوا معه قلباً وروحاً لاتمام إرادتنا وأن تمتثلوا إلى منطوق فرماننا هذا محافظين على حقوقنا الشرعية فاحترسوا من أن يشاهد منكم أدنى مخالفة لإرادتنا السلطانية من شأنها الاجحاف بسلطتنا في ممالكنا الموروثة.

٣ – عريضة مسيحيي دير القمر إلى قناصل الدول في بيروت بتاريخ ٥ تشرين الثاني سنة ١٨٤١.

يا حضرات القناصل:

انكم تعلمون كل البلايا التي انقضت علينا من جراء سلوك الدروز المشين فانهم نهبوا بيوتنا وحرقوها وتركونا بلا قوت ولا لباس ولا مأوى ولما أرسل صاحب الدولة سليم باشا كلاً من سليم بك ومحصل آغا لازالة الخلاف وحملنا على تسليم أسلحتنا وعدانا بصيانة حياتنا وحياة عيالنا وأعراضنا ووقاية الأملاك التي سلمت من الاعتداء. فنحن الموقعون أسماءنا أدناه امتثلنا أوامر مندوبي دولته وسلمنا إليهما أسلحتنا دون تردد ثقة بوعودهما أما الدروز فاستمروا على مهاجمة المسيحيين والاعتداء عليهم خارج المدينة. فما كاد سعادة الأمير الكبير يغادر دير القمر مصحوباً ببعض المسيحيين حتى انقض الدروز على حاشيته القليلة العدد فسلبوها أشياءها وأساءوا معاملة أفرادها ومنعوهم من اللحاق بسعادته ولم يسلم هو من اعتدائهم مع أنه يحمل الوسامات المنعم عليه بها من الحضرة السلطانية. وعندما رأى الموقعون أدناه أن سلوك الدروز مخالف للوعود تيقنوا أنهم قد خالفوا أوامر صاحب الدولة سليم باشا الراغب في استتباب الراحة والسكينة الآنف من خفر ذمة العهود المعطاة.

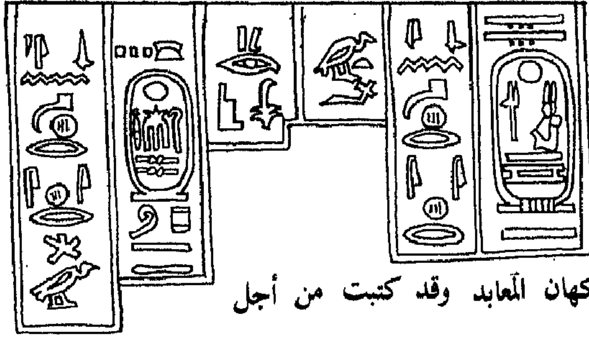
وتحقق إذ ذاك للموقعين أدناه ان الدروز سيدخلون بدون ريب دير القمر لذبح المسيحيين الذين أمسوا عاجزين عن المقاومة لسبق تسليم أسلحتهم فأقروا رأياً على رفع عريضة إلى صاحب الدولة سليم باشا يلتمسون فيها أن يأمر بإرسال الجنود التركية لانقاذ المسيحيين الموجودين في دير القمر وتولي خفارتهم حتى

---

(١) ان الانكليز استصحبوا هذا الفرمان دون تاريخ لكنهم أذاعوه في ١٠ ت ٢ من السنة المذكورة وأرخوه في ٣ أيلول انتقاماً من الأمير بشير عمر على نشرته الصادرة بالتاريخ ذاته وارهاباً للأهالي بأن هم السلطان المطلق.

بيروت بما ان بيوتهم حرقت وأمسوا بلا مال ولا قوت ولم يبق مسيحي في المدينة يملك شروى نقير حتى إذا بلغوا بيروت يأملون الحصول على بعض مساعدات بمفعول حماية دولة سليم باشا الذي شاء انفاذ أوامره إلى دير القمر بالسهر على المسيحيين ومنع الاعتداء عليهم واساءة معاملتهم وهو مستعد لارسال والٍ بأسمه إلى دير القمر لاعادة مياه الراحة إلى مجاريها. (...) وعليه فالموقعون أدناه يتجرأون على أن يعرضوا ان المندوب الذي يريد دولة سليم باشا ايفاده إلى دير القمر ليس فيه الكفاءة لحماية المسيحيين واطمئنانهم ودليلنا ان وجود سليم بك ومحصل آغا وكيلي دولته لم يمنع الدروز من الاعتداء على الأمير الكبير وسلبه أشياءه وتهديده دون احترام الوسامات المنعم عليه بها (...). وعليه فالموقعون أدناه قد تجرأوا على رفع هذه العريضة إليكم مسترحمين انزال التماسهم محل الاعتبار واستعمال كل الوسائل التي ترونها مناسبة متنازلين إلى الشفاعة بهم لدى صاحب الدولة سليم باشا. ■

الهيروغليفية



إن كلمة «هيروغليف» تعني النقوش المقدسة، وهي، في الحقيقة، تسمية أطلقها اليونان على الكتابة المصرية القديمة، وكانوا أول من اطلع عليها، واعتبروها صنيع كهان المعابد وقد كتبت من أجل أهداف دينية.

والحقيقة هي، أن الهيروغليفية تعتبر أقدم نموذج كتابي عرفه الإنسان. إن بعض الكتابات ترجع إلى حوالي ٣٠٠٠ عام قبل الميلاد، ولكن الهيروغليفية، وهي كتابة لغوية لمصر القديمة تعود إلى ما قبل ذلك التاريخ.

والهيروغليفية هي صور مبسطة تعبر كل صورة منها عن موضوع طبيعي محدد، فمثلاً، الشمس كان يرمز لها بصورة قرص، والقمر يرمز له بصورة هلال، والماء يرمز لها بخطوط متماوجة، والإنسان يرمز له بصورة رجل وهكذا...

ولكن هذه «الطريقة الصورية» لم يكن بمقدورها تمثيل الأشياء التي لا تستطيع العين مشاهدتها، مثل، الأفكار المجردة، والضوء، والنهار وغيرها...

. ومع مرور الزمن أصبحت الأشكال الهيروغليفية تستعمل كرموز لأفكار بالإضافة إلى كونها صوراً لمواضيع منظورة. فالقرص الذي يعني الشمس يمكن أن يعني أيضاً اليوم.

والخطوة التي تلت في تطور الهيروغليفية هي استخدام التخيل لتمثيل الأصوات عوضاً عن أشكال الصور الطبيعية فمثلاً في كلمة «يدغم» العربية التي تتألف من مقطعين المقطع الأول وهو يد «يد» لا يمكن أن يعني فقط عضو جسم الانسان، بل المقطع «يد»، والمقطع الثاني «غم» لا يعني «غم» فقط بل المقطع «غم» بوضع المقطعين جنباً إلى جنب يمكن أن يعنيا كلمة «يدمج».

وهكذا استعملت الهيروغليفية الاشارات الصوتية، وعرفت هذه الطريقة بـ «الطريقة الصوتية».

والآن بعد هذا التطور الكبير يستطيع المصريون كتابة أية كلمة، سواء تعني الكلمة موضوعاً منظوراً أو غير ذلك. ومن خلال الطريقة الصوتية تطورت قوائم من الاشارات تمثل كل إشارة منها حرفاً واحداً فقط.

استخدم المصريون فقط الحروف الصوتية دون حروف العلة فهم مثلاً كتبوا كلمة «بوق» «بق» وكلمة «باب» «بب» — طبعاً هم كانوا يستعملون الكلمات المصرية القديمة

معركة سادوفا - ١٨٦٦

المعركة التي وحّدت المانيا وغيّرت خريطة أوروبا

تلخيص وإعداد: شذا عدرة



● يتوقف الكثيرون، لدى تناولهم لمعركة سادوفا (١٨٦٦/٧/٣) بين الجيشين البروسي والنمساوي، عند النتائج العسكرية التي تمخضت عنها (انتصار الجيش البروسي). مع أن أهمية هذه المعركة التي لا يعيرها المؤرخون الأوروبيون الاهتمام الذي تستحق، تكمن أولاً في كيفية تهيئة الأجواء السياسية والديبلوماسية لها (ونشأت منها مدرسة في فن السياسة)، وثانياً في النتائج البعيدة المدى التي نتجت عنها وهي تكوين «الرايخ» الثاني (١٨٧١ - ١٩١٨) والتي مهّدت تاريخياً للرايخ الثالث الهتلري (١٩٣٣ - ١٩٤٥).

والدور الرئيسي في ذلك يعود حتماً لبيسمارك، الملهم غير المعلن لهتلر.

دخل يوم الثالث من تموز (يوليو) ١٨٦٦ التاريخ الأوروبي ولكن ليس فقط من الناحية العسكرية، على أهميتها، وإنما أيضاً من الناحيتين السياسية والديبلوماسية. ففي هذا اليوم، من الفجر وحتى العصر، جرت المعركة الحاسمة في منطقة «سادوفا» بين الجيشين الشقيقين البروسي والنمساوي وهزم الأول الثاني في جولة عسكرية صعبة كانت محسومة النتائج سياسياً وديبلوماسياً قبل البدء في الخوض فيها.

وكان مهندس المعركة المستشار الحذق بيسمارك الذي خطط لها منذ البداية وحتى النهاية في مهارة سياسية غدت اليوم عنواناً للدهاء والمراوغة في العلاقات بين الدول والحكومات على حساب كل المبادئ والقوانين المتفق حولها علنياً على الأقل.

أسباب الحرب:

كان السبب الرئيسي لحرب سادوفا غير معلن، إذ انه تمحور في الواقع حول مسألة الهيمنة على زعامة الامبراطورية الالمانية بمقاطعاتها ودويلاتها العديدة الملحقة بها. ونشأ هذا الصراع منذ أواسط القرن الثامن عشر. واتخذ أيضاً شكلاً مسلحاً إلى جانب الأشكال السياسية الأخرى.

لكن هذه المرة كانت النمسا أقوى سياسياً وديبلوماسياً إلى درجة أنها استطاعت أن تهزم بروسيا في أكثر من محفل سياسي دولي. وكان رد بروسيا على سلسلة هزائمها هذه، الاستعداد حثيثاً للحرب كسلاح أخير من أجل إخضاع جارتها المنافسة لها على زعامة الأمة الالمانية. ومما ساعدها على ذلك اقتصادها القوي وجيشها المنظم والمدرب تدريباً صارماً.

وفي الواقع ان بروسيا التي نتكلم عنها هنا لم تكن بروسيا – الملك غيّوم الأول، وانما بروسيا – بيسمارك، وزير الملك والمخطط الفعلي والمنفذ الصارم لسياسة بروسيا الخارجية. ان مجد بروسيا يعود لبيسمارك ولحنكته في جعل النمسا تقع في فخ سادوفا.

خطوات بيسمارك:

أثناء التحضير لمعركة سادوفا (وهي منطقة تقع اليوم في تشيكوسلوفاكيا) نجح بيسمارك في ديبلوماسيته


ملك بروسيا. غيوم الأول.

الجهنمية من خلال تذليل العقبات خطوة – خطوة، وصولاً إلى العقبة الأساسية، وهي إخضاع النمسا، التي لن تحسمها إلا الخطوة العسكرية في النهاية. كان عليه أولاً إقناع فرنسا بالحياد حيال أي «نزاع محتمل» بين بروسيا والنمسا. ومن أجل إقناع الامبراطور نابوليون الثالث بذلك سافر بيسمارك إلى فرنسا في الثلاثين من أيلول (سبتمبر) ١٨٦٥، معلناً انه سيمضي إجازة قصيرة فيها و«ربما» التقى خلالها ببعض الوزراء الفرنسيين في باريس ثم «ربما» يعرّج على «بياريتز» حيث كان نابوليون الثالث يستجم، ليستعيد معه ذكريات اللقاء السابق في سان كلو (١٨٦٤). تحت هذا العنوان السياحي البريء لجولته كان المستشار البروسي يقوم بأخطر جولاته السياسية.

في بادئ الأمر لم يكن امبراطور فرنسا متحمساً لمشروع بيسمارك بسبب تهربه من الالتزام بأي شيء صريح ومحدد. وفي هذا الصدد يشير مؤرخو سيرة بيسمارك، وخصوصاً هنري فالوتون في كتابه «بيسمارك» (منشورات فايار، باريس ١٩٦١) وفيرنير ريختر في كتابه «بيسمارك» (منشورات بلون، باريس ١٩٦٢)، إلى ان الديبلوماسي البروسي لم يحصل على موافقة نابوليون الثالث حول الحياد في النزاع البروسي النمساوي إلا بعد وعود وإغراءات يبدو

أنها نالت رضى الامبراطور. وحتى اليوم ما زالت محادثات بيسمارك - نابوليون الثالث في تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٦٥ سراً دفيناً يخضع لتفسيرات المؤرخين واستنتاجاتهم: كيف استطاع بيسمارك ارضاء نابوليون الثالث؟ ماذا قدم له من عروض؟ هل وعده ببلجيكا أو بمقاطعات الضفة اليسرى من نهر الراين أم باللوكسمبورغ؟

غادر بيسمارك فرنسا ليعود إليها في الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر) ويجتمع بالامبراطور في سان كلو مرة أخرى، وذلك لأخذ موافقته النهائية على حياد فرنسا.

والآن جاء دور الخطوة الثانية وهي إقناع إيطاليا بحشد قواتها على الحدود مع النمسا لكي تضطر هذه الأخيرة إلى توزيع قواتها على جبهتين رئيسيتين. وكانت الأجواء السياسية الرسمية في إيطاليا مهيئة للموافقة على أي شيء مع بروسيا بسبب فتور العلاقات الإيطالية - النمساوية يومها.

بعد اتصالات تمهيدية بين الجانبين الايطالي والبروسي وصل في ٢٤ آذار (مارس) ١٨٦٦ الجنرال الايطالي غافوني إلى برلين في «مهمة خاصة». وفي الثامن من نيسان (ابريل) وقع مع بيسمارك على معاهدة سرية صالحة لثلاثة أشهر (حتى الثامن من تموز - يوليو). يومها قال غافوني لبيسمارك: «اطمئن. إن الحرب واقعة لا محال، وسألتزم أشد الالتزام بأثاره أكبر فوضى ممكنة للقوات النمساوية على حدودنا». عندها أبلغ بيسمارك حليفه الفرنسي المؤقت بأمر هذه المعاهدة، فوافق عليها.

في ٢٧ نيسان (ابريل) أعلنت إيطاليا التعبئة العامة وحركت قواتها العسكرية إلى الحدود الدولية مع النمسا. فاضطرت هذه الأخيرة إلى الاستعداد العسكري وتحريك جزء من قواتها نحو الجنوب. فاستغل بيسمارك هذه الاجراءات، التي مهد لها هو بنفسه، ليتهم النمسا بالاستعداد للحرب ضد بروسيا ويستنفر بالتالي الرأي العام ضدها. وبالطبع صدق الملك غيّوم الأول إدعاءات مستشاره، فأعلن في الثالث من أيار (مايو) استنفار خمس وحدات من الجيش البروسي، على رغم معارضة الشعب والفعاليات الاقتصادية وبقية المقاطعات الألمانية للحرب بين الأشقاء.

وتفاقمت النقمة ضد بيسمارك داخل بروسيا إلى حد أن أحد الطلاب حاول في السابع من أيار (مايو) اغتياله بمسدس إلا أنه أخطأه.

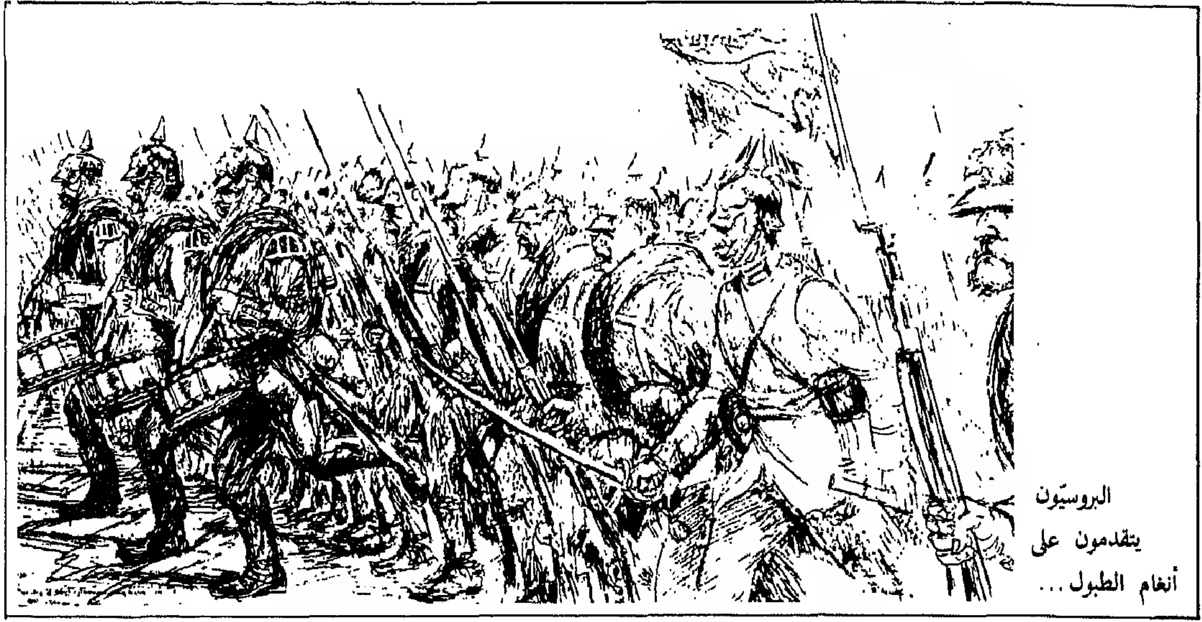
عند هذا الحد وجد بيسمارك أن الجو العام في الداخل والخارج لم يكن معبأ تماماً ضد النمسا. فجاءت دعوة نابوليون الثالث لعقد مؤتمر أوروبي في باريس في ١٢ حزيران (يونيو) لتوفر الفرص الذهبية له لعزل النمسا، قبل محاولة اخضاعها بالقوة. فوراً أعلن بيسمارك ترحيبه بالدعوة وأكد انه سيحضر المؤتمر شخصياً وبلا قيد أو شرط. وهنا توهمت النمسا أنها في موقع القوة، فأخذت تضع شروطاً لحضورها المؤتمر، مما أدى إلى إجهاض اللقاء. فوقعت النمسا في الفخ من غير أن تدري. وتابع بيسمارك لعبته الديبلوماسية فصرّح، تعليقاً على فشل انعقاد المؤتمر: «... والآن هل من دليل آخر على نية النمسا في الحرب»؟

ميزان القوى:

في العام ١٨٦٦ كان سكان بروسيا لا يتجاوزون الـ ١٩ مليون نسمة بينما عدد سكان النمسا يفوق الـ ٣٧ مليون. لكن المعروف يومها ان البروسيين كانوا أكثر تجانساً من سكان النمسا، مما ساعدهم على تأمين جبهة داخلية متراصة أثناء الحرب. على الصعيد العسكري استطاعت بروسيا تعبئة ٦٠٠ ألف رجل تحت السلاح أي حوالي ٣ في المائة من السكان. لذلك كانت لا تستطيع إطالة أمد الحرب وإلا انهار اقتصادها. أما النمسا فحشدت ٦٢٠ ألف رجل من بينهم ٢٧٠ ألفاً من قوات الاحتياط. وعلى رغم ذلك كان ميزان القوى العسكري لصالح بروسيا بسبب اضطرار النمسا إلى حشد جزء من هذه القوات على حدودها الجنوبية في مواجهة القوات الايطالية.

من ناحية الأسلحة المستخدمة يومها، كان المشاة البروسيون مزودين ببنادق ذات قادح تطلق ٤ مرات أسرع من البندقية النمساوية ذات السيخ. ولم يكن النمساويون يتفوقون على أعدائهم إلا بمدفعيتهم الثقيلة.

وعلى حال تجهيز القوات فمما لا شك فيه ان القوات البروسية كانت أكثر غنى، تمويناً وتجهيزاً،


البروسيّون يتقدمون على أنغام الطبول...

من القوات النمساوية. ومعنويات الأولى كانت بالتالي أرفع من الثانية. وكان الجنود البروسيون يعتمرون الخوذات ذات الحربة ويلبسون بذلات قاتمة محكمة الخياطة بعكس الجنود النمساويين الذين كانوا في ثياب أبعد ما تكون عن كونها بذلات قتال.

خارطة المعركة:

بعد نجاح كل الخطوات السياسية والديبلوماسية الآيلة لعزل النمسا بفضل ماكيافيلية بيسمارك، جاء الآن دور المخططين العسكريين البروسيين، وكان على رأسهم الماريشال الكونت هيلموت فون مولتكه الذي قاد معارك بلاده ضد الدانمارك (١٨٦٤) والذي سيقود أيضاً العمليات العسكرية ضد فرنسا – نابوليون الثالث (١٨٧٠ – ١٨٧١). وكانت معركة سادوفا بالنسبة إليه فرصة ليطور استراتيجيته العسكرية التي اختبرها في عملياته الهجومية في العام ١٨٦٤ تمهيداً لبلورتها أكثر في عملياته الدفاعية اللاحقة ضد فرنسا (١٨٧٠).

كيف كانت خارطة المعركة؟

تمحورت خطوط القتال الرئيسية في المنطقة الواقعة بين برلين وفيينا بعمق حوالى ٦٠٠ كلم وبعرض حوالى ٢٤٠ كلم. وضمت يومها مناطق سيليزيا وساكسونيا وبوهيميا ومورافيا. وكانت جغرافية هذه المناطق مسطحة الشكل في معظمها وتحيط بها الجبال العالية من جهة بوهيميا وجنوب سيليزيا، اضافة إلى الأنهر ووجود العديد من خطوط المواصلات (طرق وسكك الحديد).

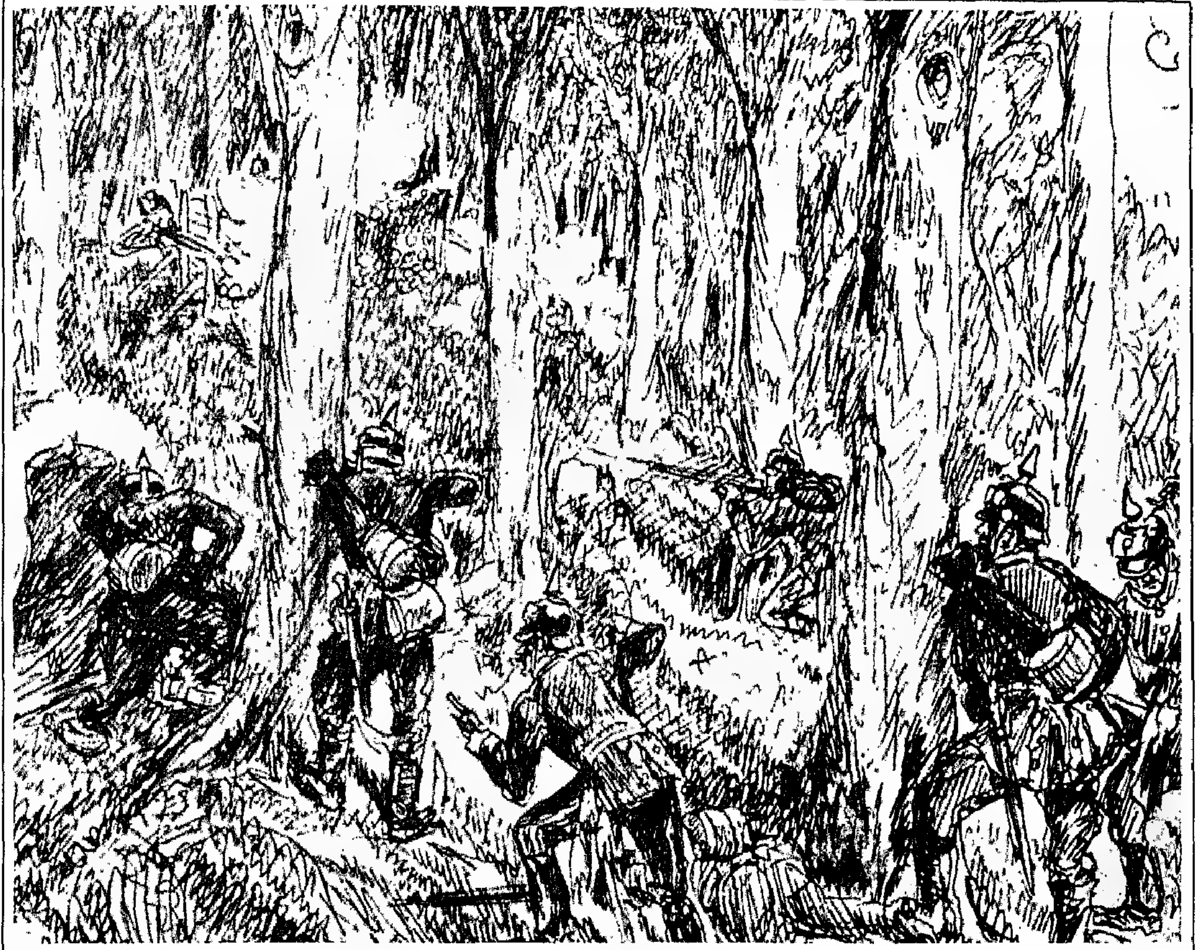
في البدء كان على الجيش البروسي أن يمهد الطريق للوصول إلى قلب النمسا قبل أن يخوض المعركة الحاسمة فيها: فبادر منذ السابع من أيار (مايو) إلى احتلال مقاطعة هولشتاين - المعزولة في الشمال - ومرفئها الاستراتيجي: كيل.

ثم في ١٥ حزيران (يونيو) وجّه بيسمارك انذاراً إلى قوات الدويلات الالمانية الوسطى لتسليم سلاحها خلال ٢٤ ساعة - فرفضت. فما كان على الجيش البروسي إلا أن يتقدم بالقوة: فمنها من استسلم بلا مقاومة (هيسة) ومنها من سحب جيشه إلى بوهيميا لينضم إلى القوات النمساوية (سكسونيا) ومنها من قاوم ثم استسلم (هانوفر).

وهكذا أصبحت القوات البروسية وجهاً لوجه أمام القوات النمساوية.

خطة مولتكه:

كان على رأس القوات النمساوية العاملة في هذه الجبهة الماريشال الهنغاري بينيديك الذي كان يعتبر من صفوة المخططين العسكريين يومها - ولكن من غير أن تسنح له الظروف لتطبيق خططه النظرية في معارك ميدانية حقيقية. إضافة إلى أنه نقل إلى الجبهة النمساوية – البروسية في ٢١ أيار (مايو) آتياً من الجبهة النمساوية – الايطالية. لذلك لم يُكن يعرف في دقة



الاشتباكات في غابة ماسلوفيد. رسم لدوريو.

طبيعة المنطقة التي سيشرف عليها كما انه لم يكن هناك متسع من الوقت للتعرف بالتفصيل عليها. أما لماذا نقل فجاة وعشية المعركة من جبهة عايشها إلى جبهة يجهلها، فهذا ما لم نجد له جواباً لدى المؤرخين حتى اليوم. المهم ان الإرتباكات العديدة في صفوف الجيش النمساوي نتجت عن هذا القرار المفاجئ: إذ بينما كان الجيش البروسي يقضم الدويلات المحيطة بالنمسا قطعة قطعة، كان الجيش النمساوي في موقف الانتظار والاستعداد البطيء لا يقوى على المبادرة إلى ضرب حشودات البروسيين المكشوفة له في أكثر من موقع. كان الجيش النمساوي يحشد قواته في المكان والزمان المناسبين لعدوه بدل العمل على فرض توقيته هو.

وبالفعل كانت خطة مولتكه مكشوفة: وضع طليعة الجيش النمساوي ضمن كماشة قوات الجنرال فون بيتنفالد الزاحفة من سكسونيا وقوات الجيش الثاني بقيادة فريدريك غيّوم الزاحفة من سيليزيا، إضافة إلى قوات الجيش الأول بقيادة فريدريك شارل الزاحفة من المنطقة الواقعة بين سكسونيا وسيليزيا. وكان على الجيوش الثلاثة ان تلتقي في سادوفا، تاركة للقوات النمساوية مجال الانسحاب، في حال حصارها، في اتجاه الجنوب (كونيغراتس).

كيف واجه بينيديك هذه الخطة؟

كانت قواته تتقدم ببطء آتية من كونيغراتس ومن منطقة يوزيفشتاد الجبلية نحو... فخ سادوفا. ومن ينظر إلى خارطة المعركة يجد الخطأ المميت الذي وقع فيه القائد العسكري النمساوي: إذ، لو حث الخطى أكثر، لأستطاع اصطياد قوات الجيش الثاني البروسي الآتية من وديان سيليزيا الجنوبية الغربية. ثم ان قوات الجنرال فون بيتنفالد الزاحفة من الساكس دخلت الحدود النمساوية في ٢٣ حزيران (يونيو) من غير أن

تواجه أية ردة فعل فورية من قبل الجيش النمساوي. كما ان قوات الجيش الأول دخلت بوهيميا في السادس والعشرين من الشهر نفسه من غير أن تجد أي أثر للجيش النمساوي. عوضاً عن ذلك حشد بينيديك قواته حول سادوفا، واعياً تماماً صعوبة وضع جيشه. لذا أرسل في الأول من تموز (يوليو) إلى الامبراطور فرانسوا – جوزيف برقية مستعجلة جاء فيها: «أرجو جلالتكم في الحاح عقد معاهدة سلام وإلا فالكارثة حتمية». فأرسل الامبراطور النمساوي مبعوثاً خاصا (هو الجنرال بيك) إلى الجبهة لاستطلاع الوضع عن كثب. فكان تقرير الجنرال بيك موجزاً: «الهدنة أو السلام. ان قلبي مجروح ولكن عليّ أن أصارح جلالتكم بهذه الحقيقة».

وكان رد الامبراطور القابع في قصره في فيينا: «من المستحيل عقد معاهدة سلام. إذا كان الأمر ملحاً فأنني آمركم بالانسحاب المنظم. هل بدأتم المعركة؟». طبعاً المعركة الحاسمة لم تكن بدأت بعد، رغم المناوشات العديدة في هذه الناحية أو تلك. في هذه الساعات الحرجة كانت القوات الرئيسية للجيش النمساوي تنتظر حول سادوفا. ووجد بينيديك الوقت لكتابة رسالة إلى زوجته جاء فيها:

«... ربما كانت هذه هي المرة الأخيرة التي أكتب فيها إليك. لا شك انه بعد ساعات من الآن هناك معركة كبيرة في انتظارنا. يمكن أن لا أراك بعد اليوم. الأفضل لي أن ألاقي مصرعي هنا... إنني في كامل اتزاني. أبعث لك بحبي الكبير. أقبلك في حزن عميق...».

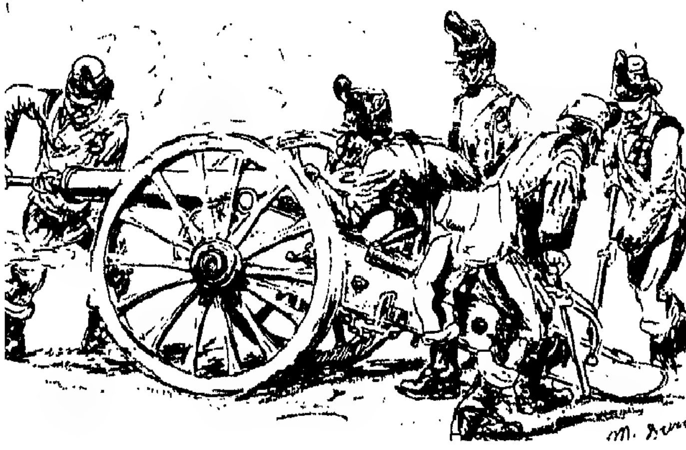
... وبدأ الهجوم:

٣ تموز (يوليو) ١٨٦٦. الساعة الثانية فجراً. المطر يزخ في كثافة. الغيوم الكثيفة تحجب الرؤية عن قرب. في هذه الظروف الطبيعية القاسية بدأ الجيش البروسي زحفه من المحاور الثلاثة السابقة الذكر في اتجاه نقطة التجمع الأخيرة في سادوفا.

بين الثامنة والحادية عشرة صباحاً قام الجيش البروسي الأول بالهجوم الرئيسي على سادوفا من جهة نهر بيستريتس، الذي كان محاطاً بالغابات وبالتلال الصغيرة. قاوم الجنود النمساويون مقاومة ضارية.



جنود نمساويون يجهزون مدفعاً.



لكنهم فوجئوا برصاص القنص الكثيف الذي انهال عليهم من كل صوب. كانوا ينتظرون مواجهة كلاسيكية مع الجنود البروسيين. إلا أن تكتيك الأخيرين كان أكثر مرونة. على رغم ذلك استمر الكر والفر لمدة ساعتين حتى انحصرت ساحة القتال في الغابة الشهيرة المعروفة باسم «ماسلوفيد» (طولها ١٦٠٠ متر وعرضها ١٠٠٠ متر). وهنا تدخلت المدفعية النمساوية القوية وأخذت تدك مواقع البروسيين دكاً إلى أن أجبرتهم على التراجع غير المنظم.

كانت فرصة ذهبية بالنسبة إلى المدافعين النمساويين للانتقال إلى الهجوم المضاد. لكنهم ظلوا في مواقعهم الدفاعية.



هجوم بروسي على رجال المدفعية النمساوية. رسم لدوريو.

في هذه الأثناء كان الملك غيّوم الأول برفقة بيسمارك ومولتكه فوق تلة قريبة من ساحة القتال قلقين على مصير الهجوم الرئيسي هذا. فاقترح الملك وقف القتال مؤقتاً لأعادة تنظيم القوات المتقهقرة. لكن مولتكه أجابه في حدة غير معهودة: «فليسمح لي جلالتكم. لن نتراجع هنا. ان مستقبل بروسيا يتقرر في هذه اللحظات». وكان على حق.

أما بيسمارك فكان يدخن في هدوء وفي صمت.

أصبح الوقت في غير صالح البروسيين: فالمدفعية النمساوية ما زالت تلاحق فلول الجيش البروسي الأول المتقهقر. عندها خرج بيسمارك من هدوئه وأخذ يحشو مسدسيه. ألم يقل قبل أيام من المعركة لأحد المقربين له: «ستكون المعركة قاسية. إذا هزمنا فسأموت في خط الهجوم الأخير. لن نموت إلا مرة واحدة. وعندما نهزم، الأفضل لنا أن نموت.».

ولكن... أين الجيشان البروسيان الآخران؟

ينظر بيسمارك بمنظاره نحو الشمال: لا أحد. يظل يحدق بمنظاره بين الحين والآخر في الوقت الذي أحس فيه بثقل المسؤولية وبتعب الأشهر الطويلة التي أمضاها في التخطيط لعزل النمسا ولضعضعة قواتها على أكثر من جبهة.

أصبح الوقت ظهراً. نظرة أخرى في الأفق... وانفرجت أساريره: الجيش البروسي الثاني يزحف بجحافله وسط النيران الكثيفة للمدفعية النمساوية. وبعد قليل سيتقدم جيش فون بيتنفالد من المحور الأيسر ليحكم الطوق على القوات النمساوية، في الوقت الذي كان فيه عشرات الألوف من الجنود النمساويين يخوضون حرباً غير ذات فائدة على الجبهة الايطالية.

عندها قال مولتكه للملك: «اليوم، لم يربح جلالتكم المعركة فحسب بل ربح الحرب».

في الوقت نفسه تقدم أحد ضباط الأركان من بيسمارك وقال له: «سعادة المستشار، أنت الآن رجل عظيم...»، ولم ينتظر بيسمارك محاوره ليكمل: «... لكن لو تأخر فريدريك غيّوم بعض الوقت لأصبحت من أحقر الرجال»، ثم انسحب من مركز القيادة... لينام في مكان هادئ... ■

لأنّ الشّكل ضاق بزخم المضمون ...



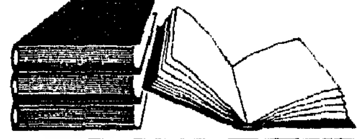
إقرأ الأحداث بين الاسطر ... انظر الى ما وراء الكلمة ... لاتقبل بما يقال ... بل إبحث لماذا ..؟ أو لمن قيل..؟ مع من ..؟ ولمن..؟ ولماذا..؟

النهار العربي والدولي أصبحت في وقت قصير مجلة النخبة في كل بلد عربي ، والمرجع لوكالات الأنباء العالمية .. وبعد أن توصلت النهار العربي والدولي إلى هذا المستوى الفريد ، قررت أن تطور مظهرها، وأن تصدر بحجم جديد وبإخراج وتبويب يليق بمحتواها.

النهار العربي والدولي

كاتب بلا قيد
قارئ بلا قيد

مجلة ابتداء من ٢٢ تشرين الاول "اكتوبر" ١٩٧٩



كتاب العدد

مِن صلاح الدّين إلى المغول

ايوبيو دمشق ١١٩٣ - ١٢٦٠ م . (ستيفن همفريز)

From
Saladin
to the
Mongols

R. Stephen Humphreys

State University of New York Press

إعداد :
عايده
نعمان

يقول مؤلف الكتاب وهو أستاذ مادة التاريخ في جامعة شيكاغو انه بالرغم من الشهرة الواسعة لصلاح الدين في انتصاراته العسكرية ، يبقى على الباحث أن يشير إلى انه لم يضف جديداً على البنيةَ السياسية أو الادارية للدولة انما تمثل سنوات حكمه تتويجاً لممارسات سياسية وادارية تعود إلى نصف قرن سابق له .

الغليان السياسي والعسكري ابّان حكم الايوبيين الذين ورثوا صلاح الدين يشكل قوة تحول بارزة في تاريخ المنطقة وخاصة في علاقات وادي النيل بالهلال الخصيب . ويرفض الكاتب ان ينظر الى الفترة التي تلت حكم الأيوبيين باستيلاء المماليك على السلطة إلاّ كفترة منفصلة ومستقلة عن الخط التاريخي الذي انبثقت منه ، وهي التي افرزت الحكم السياسي المركزي في مصر والمسيطر سيطرة تامة على بلاد الشام . ويجد في حكم المماليك ثلاثة اتجاهات بارزة تشكل انعطافاً بل شبه طلاق من القرن الثاني عشر الذي سبقه الا وهي :

١ - ابتعاد النخبة من مدنيين ومتدينين عن مراكز النفوذ وبالتالي عن قدرتهم على توجيه القرار السياسي .

٢ - تسلم المماليك ومن تحدر من عائلات كانت من الأرقاء ، جميع القيادات العسكرية .

٣ - لم يعد الجيش أداة للحكم وإنما الحكم نفسه . ولم يعد ولاؤه لأية سلطة سياسية أو سلالة حاكمة .

ان التراث الذي أورثه صلاح الدين لم يكن بالدولة الموحدة المتماسكة بقدر ما كان نظامه السياسي مؤلفاً من بنية متداخلة من الحقوق والواجبات والتوقعات يحاول كل أمير من خلالها ممارسة السلطة والنفوذ . وهذه البنية نشأت واتخذت شكلها من شخصية صلاح الدين وتوجهاته السياسية . لذا انتفى وجود الدولة بمعناها المتماسك واجهزتها الموحدة . وكان الاقطاع الوسيلة الوحيدة لادارة شؤون الدولة ولتمويل قطاعات الجيش وبناء وحداته . ويبدو جلياً ان هذه الاقطاعات لم تكن ذات حدود واضحة أو راسخة وانما كان صلاح الدين يقطع ثم يغير ويبدل في


صلاح الدين: وحد مصر وسورية والعراق ليحرر فلسطين.

ملكية الاقطاعات تبعاً لحاجته العسكرية أو الاقتصادية أو مكافأة لأحد اقربائه أو امرائه. التغيير والتبديل كانا السمة البارزة وما يعطيه صلاح الدين يمكن ان يأخذه فيما بعد. ويتساءل المؤلف كيف تمكن صلاح الدين من ابقاء دولته على شيء من التماسك مع المرونة التامة دون تململ أو تمرد يذكر؟ ويجيب بنفسه بأن هناك سببين رئيسيين هما:

أولاً: ارتباط الجميع بالايديولوجية الدينية التي كان يمثلها صلاح الدين في جهاده ضد الفرنج. وقد كان هو رمز هذا الجهاد المقدس وقائده.

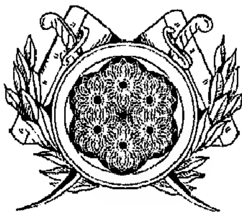
ثانياً: ربط حكمه بشبكة من الاقطاعات التي اقطعها جميعاً لافراد عائلته أو خاصته وحاشيته. وبذلك يكون قد اقام حكماً كونفدرالياً متميزاً بالسيادة الجماعية المرتبطة بالأوامر العائلية. وكان على صلاح الدين بالذات التحرك من ضمن هذه التركيبة العائلية وحفظ التوازن بينها طوال مدة حكمه.

بعد غياب صلاح الدين بدأت الايديولوجية الجهادية بالتقلص والعصبية العائلية بدأت تغلي بالحساسيات والنزعات الفردية لدى افراد العائلة الواحدة. عدا انشغال الايوبيين برد الهجمات الصليبية المتتابعة فقد شغلوا بحروب أهلية مضنية. وفي حين نجح صلاح الدين في إبقاء التوازن بين قطبي دولته أي مصر وسوريا. ولكن بغيابه عاد الصراع التاريخي ليطبع حكم الايوبيين ولينتهي بانتفاضة المماليك في ١٢٥٠م.

اتسمت البيروقراطية الايوبية باعتمادها على النخبة المؤلفة من طبقتين متساويتين: النخبة السياسية المؤلفة من الامراء والاقطاعيين (وهما في غالب الاحيان متوحدتان) وذوي الكفاءة العالية لتولي بيت المال وديوان الانشاء. والطبقة الثانية كانت العلماء أو رجال الدين والفقه. يؤكد المؤلف ان دور كل طبقة كان مستقلاً ومكملاً للطبقة الأخرى. وقلما كان الانتقال سهلاً من الواحدة للأخرى إلاّ في حالات قلة عندما تولى «القاضي الفاضل»، وكان رجل فقه، ديوان الانشاء لكفاءة متميزة فيه. وكان من أهداف هذه النخبة وبشكل خاص، احياء السنّة وتوجيهها في نضال سوري مصري لمحاربة الفرنج وما تبقى من النفوذ الفاطمي في مصر. وغني عن القول ان هذه النخبة التي شكلت البنية السياسية والادارية والفكرية للدولة الايوبية اقتلعت اقتلاعاً حين تكوين دولة المماليك لتحل مكانها جميعاً الآلة العسكرية المتمثلة بالجيش.

كتاب ستيفن همفريز لا يتميز بكونه تاريخاً لفترة زمنية لم تستوف حقها من الباحثين ولا بتفصيله للحروب والنزاعات والتقلبات المضنية ابّان العصر الأيوبي، بقدر كونه تحليلاً وافياً للتركيبة الادارية والسياسية للدولة الايوبية بخلفياتها وتطورها ثم بانفصامها التام الى دولة المماليك الشديدة الاختلاف عنها والتعارض معها.

ميزة أخرى للكتاب ايراده جداول انساب الايوبيين وخرائط ملحقة مع قوائم موسعة بمصادر البحث حول هذه الفترة الانتقالية الهامة في تاريخ هذه المنطقة ■



فتح القسطنطينية

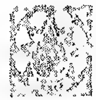
الحلقة الثانية

ملحمة إسلامية خالدة

ترجمة: «تاريخ العرب والعالم»

في الحلقة الأولى من تاريخ «فتح القسطنطينية» وضع السلطان محمد الثاني قيادة الجيش والأسطول التركي تحت إمرته، بعد أن تبين له ان القيادة الناجحة تحتاج إلى وضع استراتيجية جديدة، واشراف كلي على المعارك الدائرة، وهذه أمور لم تكن متوافرة للصدر الأعظم، الذي كان معارضاً للحصار جملة وتفصيلاً، وساغان باشا قائد الجيش الذي لم يكن خبيراً بأساليب الحصار، واستنباط الخطط والخدع الحربية، الضرورية، لانهاك العدو وتحطيم معنوياته، لذلك عمد السلطان إلى أساليب الحرب النفسية، فنقل الأسطول التركي جراً على اليابسة من مياه البسفور إلى مياه القرن الذهبي عبر طريق وعرة ومرتفعة كان قد أمر بشقها وقد نجح بذلك نجاحاً باهراً.

وفيما يلي الحلقة الثانية من تلك الحرب المليئة بالعجائب والغرائب..



وفي إحدى الليالي، تسللت من تحت سدول الظلام سرية تركية تسوق أمامها برجاً خشبياً عالياً يسير بالعجلات، نحو الأسوار. وكان داخل البرج ٥ سلالم خشبية يصعد عليها تؤدي إلى أفريز لكي يقف عليه الرماة بالأقواس. وكان الغرض من البرج حماية العمال الذين كلفوا بردم القناة المائية الواقعة أمام الأسوار عبر وادي ليكوس أي وادي الذئب» وفيما كان العمال الأتراك يقومون بواجبهم تحت حماية رماة البرج، ظهر غوانت الاسكتلندي مرة أخرى، فقام مع رجاله باشعال النيران في الأدغال والأعشاب المحيطة بالقناة. فاندلعت فيها الحرائق وارتفع اللهيب إلى ان نشب بالبرج فاشتعلت فيه النار واحترق.. وفي خلال نصف ساعة ظهرت مكيدة جديدة للسلطان ولكنها أيضاً تحولت إلى رماد. عندئذ، أقسم السلطان بذقن النبي بأنه لم يكن يتصور أن يكون لدى الأعداء من يجابه خططه ويفشلها.. وتمنى لو كان له مثل أولئك الرجال...

وكانت تلك الألعاب التي أغدقتها أريحية السلطان على المحاصرين آخر فصل في قصة الحصار الاستطرادية - ففي ٢٣ مايو عادت السفينة ذات الساريتين وانزلقت إلى داخل المرفأ لتعلن انها بعد ٢٠



السلطان محمد يمتطي جواد «النصر» الأبيض عند دخوله فاتحاً منتصراً مدينة القسطنطينية.

يوماً قضتها في البحث عن أسطول الفينيسيين. فانها لم تعثر له على أثر فغمغم الامبراطور قائلاً: ترى لماذا عادوا؟. وأجاب أحد رجال البعثة قائلاً: لقد بحثنا الأمر يا سنيور. وقررنا جميعاً ما عدا واحداً منا – أن نعود لنخبر الامبراطور بأننا لم نعثر على أسطول الفينيسيين. فتأثر الامبراطور من تضحيتهم من أجل انقاذ مدينة القسطنطينية المحكوم عليها أن تنطفئ فجأة مثل مصابيح المذبح في كنيسة أيا صوفيا.

السلطان محمد يطلب من قسطنطين الرحيل..

وأرسل السلطان محمد وفداً إلى الامبراطور قسطنطين بقيادة الأمير إسماعيل حمزة حاكم سينوب للمفاوضة. ومعه مفرزة من حرس الشرف في كتيبة الفرسان الخاصة بالسلطان. وكانوا جميعاً يرتدون بزاتهم الرسمية المؤلفة من اللون الأخضر الغامق والقرمز. معمّمين بعمامات بيض متوجة ذرواتها بالحرير الأرجواني. ويتقلدون سيوفاً محدودبة وحيدة الحد. مرصعة مقابضها بالأحجار الكريمة.

وكان الأمير إسماعيل مألوفاً ومعروفاً لدى الامبراطور قسطنطين. وله معارف واتصالات في المدينة. ولما سُمح للوفد بالدخول إلى المدينة اقتيد رأساً إلى مركز قيادة الامبراطور. وهناك قال له الأمير إسماعيل: «إنني أحمل إليك رسالة من السلطان محمد يا سيدي. وهو يودّ أن تعلم بأنه ما زال بوسعك أن ترحل عائداً إلى موريا ومعك كل مَن يرغب في الرحيل».

فأجاب قسطنطين بثبات: «إنني لن أرحل أيها الأمير»، فقال الأمير اسماعيل: يا صديقي. إن موقفك ميؤوس منه.. فالأسوار مهدّمة، ومياه القرن الذهبي محتلّة.. ومعظم ما لديك من الأطعمة قد نَفَد.. ولم يعد لك أي اختيار».

فأجاب الامبراطور قائلاً: «كل ما ذكرت هو اصحيح، ولكنني صمّمت على البقاء وإليك جوابي فانقله إلى السلطان: «إنني أحمد الله إذا أردت أن تحيا معنا بسلام كما فعل أجدادك. إن كل من يثير حرباً ضدّ المدينة لن يكتب له النجاح، استبق الأقاليم التي احتليتها دون حق.. وقرر الجزية التي تريدها.. ولسوف نبذل أقصى جهدنا لدفعها.. ثم اذهب بسلام... أما تسليم المدينة فليس ذلك بوسعي ولا بقدرة أحد، إننا مستعدون جميعاً للموت ولسوف نفعل ذلك بلا ندم».

وما أن تلقّى السلطان جواب الامبراطور، حتى أصدر أمراً سامياً بإقامة وليمة كبرى لمدة ثلاثة أيام قبل القيام بالهجوم الكبير. فعمّت الزينات أرجاء المعسكر التركي، وأضيء كل موكب حربي بصفين من الأضواء، وراحت الأبواق تعزف والصنوج النحاسية تدق ويتردد صدى كل ذلك في الأجواء الواسعة.

أما في داخل المدينة فقد لاح ضوء غريب حول قبة كنيسة أيا صوفيا ثم تصاعد منه لهب أو بريق نحو الصليب المذهّب والمثبّت في قمة القبة، وبدا وكأن اللهب يتطاير حول القبة العظيمة، وسواء كانت تلك الظاهرة منبعثة من نار سانت ايلمو أو انعكاساً من التوهج المنبعث من نيران المعسكر التركي، فقد أثارت الظاهرة الغريبة الفزع بين البيزنطيين «لقد تخلّى الله عن المدينة» قال ذلك وفد من رجال الدين للامبراطور. ولدى سماعه هذا التفسير أغمي على الامبراطور الشاب. فأُنعش بماء الورد، والدموع تنهمر فوق وجنتيه، فآلى على نفسه أن يلتمس العون من «العذراء المباركة».

وفيما كان موكب من رجال الدين يسير في شوارع القسطنطينية. وإذا بعاصفة هوجاء تثور فجأة. وكان يتقدم الموكب صورة للعذراء مثبتة فوق قاعدة ثقيلة وفي أثناء الارتباك الذي حدث عند هبوب العاصفة سقطت صورة العذراء على الأرض وانفصلت عن قاعدتها. وكان اعادة تثبيتها يتطلب جهوداً مضنية. ولكن سقوط الصورة في وسط ذلك الجو العابس بالطيرة والتشاؤم أحدث تأثيراً كبيراً في المدينة ولغطاً شديداً.

السلطان يعقد مجلساً حربياً...

وفي يوم الأحد. الموافق ٢٧ مايو. عقد السلطان مجلساً حربياً جرت فيه مناقشة الوضع. فوقف الصدر الأعظم موقفاً مناهضاً لأماني السلطان. وطالب برفع الحصار عن القسطنطينية وقال: لقد طال هذا الحصار ومر عليه حتى الآن سبعة أسابيع والمقاومة تتحدى كل «التكتيكات» العسكرية وكل خدعة معروفة في الحرب. وتنبأ الصدر الأعظم بأن كل هجوم آخر يشن على الأسوار سينتهي بالفشل. وسيؤدي إلى مهانة لا تحتمل. وأضاف قائلاً: ومع



الجانب الآخر من جامع أيا صوفيا.

ذلك فان المساعدة قادمة من الغرب لنجدة المحاصرين. وأدرك السلطان محمد بأن الهجوم موجه ضده فكظم غيظه ولكنه أسر ذلك في نفسه. وتكلم بعد الصدر الأعظم ساغان باشا قائد الجيش. فقلّل من قيمة الخطر المزعوم. وأصر على وجوب احتلال المدينة.

ثم تكلم السلطان واستشهد «ببطله المفضل» الاسكندر المقدوني قائلاً: «لقد تمكن الاسكندر الكبير من التغلب على نصف العالم القديم بجيش أقل كثيراً من الجيش التركي» وكان السلطان يتكلم وهو محتدم غيظاً. واستتبع قائلاً: «ان أحد الدراويش في المعسكر شاهد في المنام روح الصحابي أبو أيوب خالد. وكان قد استشهد في الهجوم الكبير الذي شنه العرب عام ٦٦٨. وقد أنبأ أبو أيوب. ذلك الدرويش. بـأن محمد بن مراد سوف يستولي على «التفاحة القرمزية» مشيراً بذلك إلى القسطنطينية. لذلك عقد نيته على ان يشن هجوماً نهائياً على المدينة فإذا فشل الهجوم فانه سيأمر برفع الحصار على الفور.

الاستعدادات للهجوم العام

وفي وقت متأخر من ذلك اليوم. تأدّى إلى اسماع المدافعين فوق الأسوار هتافات مدوية. وأصوات تنبئ عن فرح وابتهاج دامت طويلاً. صادرة عن معسكر الأتراك. وكان السلطان محمد يستعرض جنوده في ذلك الوقت. ويعدهم بقطف ثمار النصر. عندما تؤخذ القسطنطينية غلاباً. وأعلن في المنشور الذي أذاعه: «بأن العديد من الرجال سيستشهدون في الهجوم الوشيك. ولكن تذكروا ان كل من يستشهد في سبيل العقيدة الاسلامية سيدخل الجنة. وإذا أخذت المدينة فاني سأبيحكم إياها مدة ثلاثة أيام. وكل ما في المدينة من ثروات وفضة وذهب وحرير وذخائر ثمينة سيكون لكم. ما عدا المباني لأنها

ستكون من ممتلكات الدولة» وجاء في المرسوم العالي الذي أذيع : «بأن الأيام القادمة يجب أن تكرس للغفران والصلاة والصيام استعداداً للتضحيات المتوقعة» وعند منتصف الليل أطفئت أنوار المعسكر فساد فيه السكون والصمت المطبق.

وقضى السلطان يوم الاثنين في ٢٨ مايو يطوف في أرجاء المعسكر. فقام بحملة تفتيش زار خلالها كل قطاع من قطاعات الجيش. وفي أثناء هذه الجولة أعطى أوامره النهائية : «عندما يُشن الهجوم على الجبهة البرية فان على السفن الحربية من ذوات الصَّفين أن تنتشر أمام حاجز الملاحة «وهو عادة مؤلف من سلسلة حديدية أو مجموعة أخشاب وعوّامات طافية يراد بها اعتراض سبيل السفن المهاجمة» وحول شاطئ بحر مرمرة. لازعاج المدافعين إلى أقصى الحدود» وأنذر الجَنَويّين في برج غالاتا بأن أي عمل عدائي يقومون به لمساعدة المدينة المحاصرة سيكون عقابه شديداً وسريعاً.

واستدعى السلطان وزراءه وقادة الجيش إلى خيمته وبشّرهم بقوله : **«أقدّم إليكم اليوم مدينة عظيمة – عاصمة الرومان القديمة – المتربعة على قمة السناء والعظمة، أقدمها إليكم لتستولوا على كنوزها وكل شيء فيها، ومن الآن فصاعداً ستحيون سعداء وستتركون ثروة عظيمة لأطفالكم».**

وعلمت المدينة بأن الساعة آتية لا ريب فيها. فقرع فيها جرس الخطر بصورة متواصلة فتوترت أعصاب كل أمرئ ثم نشب نزاع مرير بين الفينيسيين واليونانيين. وذلك أن الفينيسيين طلبوا من اليونانيين ألا يباشروا القتال قبل أن يحضروا أخشاباً لاقامة حواجز على الشاطئ لوقاية الأسوار. فرفض اليونانيون الاستجابة للطلب إلا إذا قبضوا أتعابهم سلفاً – لأنهم بأمس الحاجة للنقود لشراء الأطعمة. ولكن الفينيسيين لم يرقهم وضع اليونانيين المهددين لفقدان كل شيء بما في ذلك عائلاتهم «في المستعمرة اليونانية الموجودة داخل الأسوار» والمدافعون عن الأسوار انخفض عددهم إلى ٤٠٠٠ مقاتل من الجياع والمرهقين والبائسين. والمتنازعين دائماً على أيٍّ من القطاعات ذات الأسبقية. وطلب جوستنياني من لوكاس نوتراس ان يرسل رجالاً من المدافعين عن الجهة البحرية إلى الأسوار المقابلة للجهة البرية. فرفض نوتراس وقال وهو يكاد يتميز من الغيظ : «من المحتمل أن أقطع حلقك، أيها الخنزير!» فاستشاط جوستنياني غضباً وقال : «ان



في ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣ دخل السلطان محمد الفاتح القسطنطينية فاتحاً، ويبدو في الصورة متوجهاً إلى ميدان سباق الخيل.

الأمبراطور الذي تدين جميعاً له بالاحترام. هو القادر على فض النزاعات كلها».

الامبراطور يصلي الصلاة الأخيرة..

وانطلق موكب ديني من كنيسة أيا صوفيا يشق شوارع المدينة في وقت كانت فيه المدينة غارقة في الضباب الأخضر. وكانوا يرتدون الحلل الشعائرية من الديباج المذهب ويحملون صلباناً مرصعة بالحجارة الكريمة، ومطعمة بشظايا من الصليب الحقيقي «الذي صلب عليه المسيح» يُرتلون كيريالايسون وهي صلاة مطلعها «يا رب ارحمنا» ويرفعون بأيديهم أيقونات السيدة العذراء والقديسة آن. وكان ذلك يوم القديسة تيودوسيا. وقد ظهرت ايقونتها محمولة أيضاً، ومشى الناس وراء الموكب وهم ينتحبون ويتضرعون إلى السماء. وكلما وقفوا أمام مركز من مراكز المدافعين عن المدينة، رتلوا صلاة من أجل انقاذ المدينة وباركوا المدافعين.

وما لبث أن انضم الامبراطور للموكب عند مرحلته الأخيرة وهنا ألقى كلمة موجزة قال فيها: «يجب أن يكون اليوناني مستعداً للتضحية من أجل هذه الواجبات الأربعة: إيمانه. ووطنه وملكه وعائلته. وفي القسطنطينية الآن. يجب على شعبي أن يكون مستعداً للموت من أجل الواجبات الأربعة المذكورة. وتذكروا أسلافكم اليونانيين والرومان في العهود الغابرة. فكونوا - اليوم - جديرين بهم» وأقسم الامبراطور بأنه لن يموت إلا في كتيبتهم من دون سائر الكتائب الأخرى. ثم استدار إلى الفينيسيين والجنويين والغالاتيين واستحضر إلى الأذهان التقاليد الوطنية في تاريخ المدينة الطويل وقال: «عندما رحبنا بكم وجعلناكم جزءاً منا كان ذلك من أجل منفعتنا العامة وفي هذه الساعة المهيبة فلنعمل جميعاً بيد واحدة كأخوان».

فتدفقت الجموع من كل حدب وصوب متجهة نحو كنيسة أيا صوفيا. وفي هذا الوقت الذي كان فيه الفزع يسود المدينة استداروا مرة أخرى نحو كنيسة «الحكمة المقدسة» أي كنيسة جوستنيان الكبرى «أيا صوفيا» وكان في المعبد عرشان - عرش الامبراطور الذهبي وعرش البطريرك الفضي. فاعتلى قسطنطين عرشه وبقي عرش البطريرك غريغوري الاتحادي شاغراً. لأنه كان قد هرب من المدينة منذ سنوات. وفي ذلك المساء. وهو الأخير. شرع البيزنطيون يرتلون أمام فسيفساء «العذراء والطفل» وكانت مرتدية ثوباً لازوردياً مذهباً. ثم غادر الامبراطور عرشه ومشى بين جموع المصلين. وقال: «وداعاً» وطلب الصفح ممن كان قد أساء إليهم فبكى العديد من المصلين.

واقترب الامبراطور من المذبح المذهب القائم تحت مظلته المثبتة بأربعة أعمدة من الفضة وانبطح على وجهه أمام أيقونة العذراء بين ترتيل المرتلين وأدعية الداعين من القسس والشعب. ثم اشترك الامبراطور في الصلاة الجماعية وانسجم مع التجاوب الروحي. ثم مشى مخترقاً جموع شعبه وخرج من الكاتدرائية للمرة الأخيرة - وإلى الأبد.

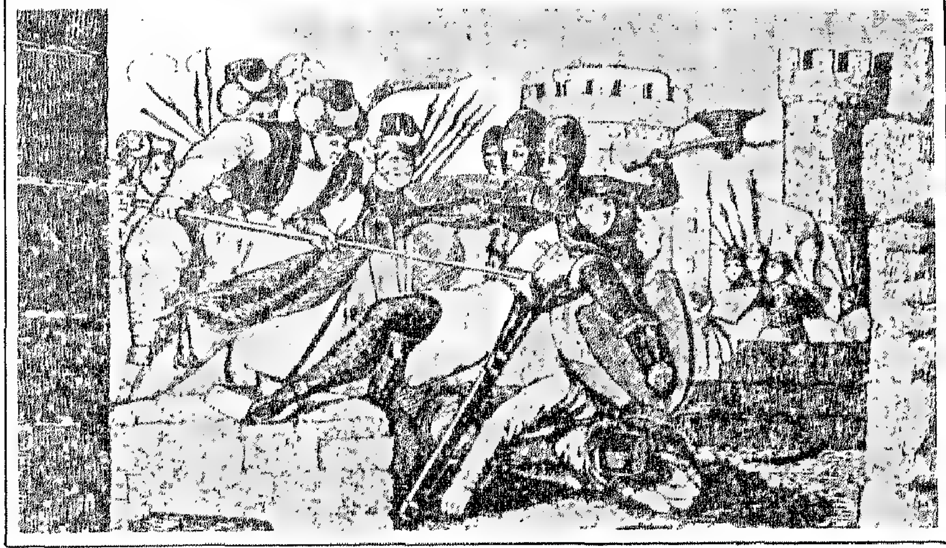
وانطلق مصطحباً معه حاشيته من المخلصين إلى البرج العالي التابع لقصر «بلاكيرناي» وشرع يلقي نظرات ثابتة من شرفة البرج على القسطنطينية. في وقت كانت فيه الغيوم تبدو وكأنها معلقة في سماء المدينة. وكانت الأضواء تخفق فوق مياه القرن الذهبي. وهناك كانت ترسو بوارج الأتراك الحربية على أهبة القتال. أما الجهة البرية فكان يسودها السكون والظلام.

وكان عالم الغرب يبدو على مدى الأبصار من خلفهم. ولكن البيزنطيين كانوا قد انتظروا طويلاً وصول الامدادات ولكنها لم تصل..

وفي أول ساعة من ساعات الصباح احتضن الامبراطور سكرتيره ثم نزل من البرج متوجهاً رأساً إلى الأسوار. يمتع الجنود المخلصون أنظارهم للمرة الأخيرة برؤية سيدهم وصديقهم الذي خدموه في السنين الماضية.

وعزّز الامبراطور التحصينات والأسوار بما تبقى لديه من الاحتياطي في حين كان الأتراك يأخذون مواقفهم تحت تغطية من الغيوم المتلبدة في تلك الليلة الظلماء غير المعتمرة. أما المدافعون عن الأسوار فلم يكن خلفهم مجال للتراجع بعد غلق الأبواب الداخلية التي تفصل الأسوار عن المدينة. وبعد أن أعطيت مفاتيحها للامبراطور. فاحتل كل مدافع مركزه وهو شاكي السلاح محاولاً أن يخترق بعينيه حجب السحب المظلمة التي تكفّن المدينة.

ووزع السلطان مدفعيته من أجل الهجوم الأخير. فنقل خمسة مدافع من الاثنتي عشر مدفعاً هائلاً التي يملكها وركزها مقابل قطاع قصر بلاكيرناي وهو بقيادة مينوتو. ونقل أربعة مدافع ووضعها مقابل قطاع بوابة رومانوس وهي بقيادة الامبراطور قسطنطين ومعه اليونانيون والجنويون بقيادة جوستنيافي. وثبت ثلاثة مدافع نحو البوابة الحربية الثالثة الواقعة في منتصف الطريق بين بوابة رومانوس والبوابة الذهبية التي يدافع عنها أقرباء الامبراطور المخلصون من أمثال شيوفيلوس بالايولوجوس. وكانت كل بطارية مدفعية ثقيلة محاطة بمدافع أصغر منها حجماً مركزة فوق جسر قائم على القوارب عبر القرن الذهبي. وهي مستعدة للانضمام للمعركة حالما تبدأ بالقصف المدافع في السفن الحربية الراسية في بحر مرمرة. وكانت بقيادة الأمير أورهان ومعه الغالاتيون. وجمع السلطان محمد ٢٠٠٠ سُلّم



جنود «الباشي بوزوك» يقتحمون أسوار القسطنطينية بشجاعة خارقة.

لارتقاء الأسوار عند بدء الهجوم العام على قطاع الثيودوسيين المدافعين عن المدينة.

الهجـوم الكبير

وأزفت اللحظة الحاسمة!

وأعطيت الاشارة للمدفعية بالقصف في الساعة الثانية قبل الفجر. فانقضّت قذائفها المدوية كالصواعق على الأسوار. ومزقت شآبيبها المدمرة سكون الليل وظلامه الدامس فارتجت الأرض واحتشدت كتائب الباشي بوزوك - وهي كتائب عثمانية اشتهر محاربوها بالقوة والعنف» في مواجهة الحواجز المائية وهم يزعقون زعيقاً مخيفاً: الله أكبر وكان السلطان قد وضع في مؤخرتهم الشرطة العسكرية لحفظ النظام أثناء هجومهم. فأمطرهم المدافعون عن الأسوار بالنيران اليونانية وردوهم على أعقابهم وكانت تلك النيران على مقدار عظيم من القوة جعلت الشرطة العسكرية يرتدون أيضاً

وكان الدور بالهجوم الآن. لكتائب الأناضولية المنظمة بقيادة ايشاك باشا حاكم الأناضول. وأحد وزراء السلطان مراد الثاني والد السلطان محمد.. فزحف أولئك النظاميون ورؤوسهم محمية بالخوذات. وصدورهم منيعة بالدروع. فاحتشدوا في الوادي أمام حاجز جوستنيان المؤلف من قضبان مغروسة على نحو متلاصق. وسرعان ما وجدوا أنفسهم محصورين مشلولي الحركة. في جبهة ضيقة لا تزيد مساحتها على ١٢٠٠ ياردة ومقيدين بالاستحكامات الخارجية والحجارة تنهال على رؤوسهم من الأسوار والقذائف من المدافع الصغيرة المركزة فوق الحصون. وكانوا كلما نصبوا سلماً على جدار السور وتسلقه المتسلقون إلى أن يبلغوا حافة السور مد المدافعون عصياً ينتهي كل منها بشعبتين ردّوا بها السلالم إلى الخلف فتتساقط بمن عليها من الرجال على الأرض. بينما كان الرماة بالأقواس من البيزنطيين يرمون عنها سهامهم ببرودتهم المشهورة من مسافة لا تزيد على الخمسين خطوة.

وقبل الفجر بقليل انقضت قذيفة مدفع موفقة من طراز باسيليقي فقوضت قطاعاً كبيراً من حواجز القضبان المتلاصقة. وعندئذ أنصب المئات من الجنود الأتراك من خلال تلك الثغرة الكبيرة. ولكن أحيط بهم على الفور. فانقطعوا عن بقية زملائهم. فهلك معظمهم في الحفر والأخاديد. وهكذا ارتدت موجة الكتائب الأناضولية بفضل ثبات المدافعين اليائسين.

وتمكن رجال قسطنطين بعد ذلك الارتداد من التقاط أنفاسهم بعد تلك المعركة التي استغرقت أربع ساعات - قاموا أثناءها بانجازات رائعة. أبقت علم النسر والأسد شعار القديس مارك عالياً يخفق فوق الأسوار.

ولكن السلطان لم يكن قد تدخل بعد في المعركة. وكان السلطان قد وعد جنوده بهدايا قيّمة ينالها كل جريء يتمكن من اختراق التحصينات. وفجأة انفجرت الموسيقى الحربية بعزفها المدوي بنشيد



صورة مأخوذة من كتاب الانجازات يظهر فيها الأتراك وهم يهاجمون أسوار المدينة قريباً من بوابة أدرنة.

الحرب. وكان ذلك دعوة للجيش الانكشاري النظامي بالهجوم. أما كتائب الحرس الامبراطوري فقد أرجيء هجومه لوقت آخر.

معركـــة الانكشاريين

واندفعت كتائب الانكشاريين بعنف وقوة نحو التحصينات واحتدم القتال وكان كلما سقط جندي انكشاري أسرع رفاقه إلى سد مكانه الشاغر. أمام التحصينات والحفر والأخاديد. لذلك احتفظ الانكشاريون بصفوفهم متراصة. وكان الجنود كلما سمعوا موسيقى الأبواق تلعلع والطبول تُدبدب تحثّهم على الهجوم أقدموا غير هيّابين يرمون أرواحهم على النيران المستعرّة ببسالة خارقة. ليسدوا الثغرات الفاغرة الأشداق بأجسادهم غير مبالين بالحجارة المنهالة على رؤوسهم والنيران التي تحرق وتشوي أجسامهم.

وأقبل السلطان محمد وهو ملتهب حماسة واقترب من التحصينات والجسور والأرصفة وراح صوته يلعلع محرضاً كتائبه على الهجوم والمثابرة مهما كان الثمن

وعندئذ. ترنح اللاتينيون واليونانيون في مراكزهم من شدة الاعياء والارهاق. وراحوا يتساقطون تحت ثقل القصف والقذائف المنهمرة على مراكزهم. ولم يبق منهم إلا القليل. عندئذ تحول القتال إلى الاشتباك بالأيدي. والمصارعة بالزنود. عبر التحصينات فغرقوا جميعاً في بحر الدماء. وزهقت أراوحهم من روائح الأجساد المحترقة.

وفجأة صاح المنادي بأن علم النبي صلى الله عليه وسلم. قد ارتفع فوق برج كركوبورتا في قطاع قصر بلاكيرناي فهتف الجنود الأتراك بأعلى أصواتهم: الله أكبر..

وكان في أسفل برج كركوبورتا بوابة داخل الأسوار تؤدي إلى قصر فيروجنتوس. الذي شيده الامبراطور قسطنطين السابع – ومن هذه البوابة تدفق الجنود الأتراك. واتسع أمامهم مجال الكر على قطاع قصر بلاكيرناي بالذات..

وكان الضغط على الامبراطور قسطنطين شديداً. حيث كان من المدافعين عن بوابة رومانوس، فلم

يتمكن من إرسال نجدة إلى جنوده في قطاع بلاكيرناي.

وفي تلك اللحظة المميتة أصيب جوستنياني قائد الجنويين في صدره المدرع. بقذيفة مدفع قديم. فتفجرت الدماء من صدره. وعندئذ أصر على التراجع. وكان يُعتبر صخرة دفاعية لا تقهر. فتوسل إلى الامبراطور ان يأمر بفتح البوابة الداخلية المؤدية إلى المدينة. وتضرع الامبراطور بدوره إلى جوستنياني الجريح أن يثبت في مكانه. ولكن أعصابه انهارت لاصابته بجرح مميت. فأمر الامبراطور بفتح البوابة فحمل الجنويون قائدهم وعبروا من البوابة وعندئذ. عم الذعر بقية الجنود وقبل أن تغلق البوابة كانوا قدّ تسللوا جميعاً عبرها وراء قائدهم الجريح.

وهناك أمام التحصينات المنهارة رأى السلطان بعينيه الثاقبتين ما كان يجري فوق الأسوار. وشاهد العلم المنتشر فوقها فشرع يجلجل بصوته: الله أكبر.. المدينة لنا. ثم راح يستنهض الهمم لبذل أقصى الجهود. ودعا الانكشارية إلى الهجوم فهب العملاق حسن وألقى بثقله على تحصينات القضبان المحطمة. ونفذ منها وتبعه الانكشاريون - وهناك استشهد حسن بعد أن أدى واجبه - وفاز الانكشاريون بتلك التحصينات فاقتحموها فاضطر الجنود اليونانيون إلى التراجع والارتداد. إلى خندق صغير. واقع أمام الأسوار الداخلية. وهناك قُتل العديد منهم. وتمكن الامبراطور مع أنصاره نيوفيلوس بلاليولوجوس. وابن عمه فرانسسكو أميرتوليدو. وجون دالماتا. من الاحتفاظ ببوابة رومانوس. ولكن لبضع دقائق فقط. وانتشر الأتراك في كل مكان. والمدافعون حوصروا بين الأسوار عاجزين عن المرور من البوابات المغلقة المؤدية إلى المدينة.

مصرع الامبراطور قسطنطين

وأدرك قسطنطين ان النهاية قد دنت.. فانتزع أشرطته وشعاراته الامبراطورية الدالة عليه. ليتجنب الوقوع في الأسر. وصاح بصوته الجهوري: من كان يفضل الموت على العبودية فليتبعني! ثم صاح: أتوخذ المدينة وأنا على قيد الحياة؟ وحمل بسيفه على الأعداء ولكنه ما لبث أن أصيب فسقط على الأرض. فوقاه الجنود بأرواحهم وسقطوا فوقه واختفى تحت كومة من جنوده الأبطال.

وهكذا خاض الامبراطور قسطنطين المعركة.. ولم يشاهد بعدها.. ولكن عثر فيما بعد على جثة مقطوعة الرأس. تعرف عليها بعضهم بأنها جثة الامبراطور التعيس. من شعار النسر المطبوع بالذهب فوق حذائيه.

واندفع المنتصرون الأتراك كالعاصفة إلى ساحات المدينة. وفي الساعات الأولى من احتلالها قضت السيوف المحدودبة على ٢٠٠٠ من المدافعين عنها وأسر الباقون.. وتمكن مندوب البابا الكاردينال أسيدور من النجاة. بعد أن استبدل لباسه الكهنوتي بملابس أحد المتسولين البالية. ثم اشترى حريته بعد ذلك بمبلغ من المال.

وحدث ان بحّارة الأسطول التركي تخلّوا عن مراكزهم في البحر. فهرعوا إلى المدينة. وبذلك تمكن أسطول الفينيسيين الراسي في المرفأ من الهرب بعد أن تمكن من انقاذ القليل من سكان المدينة.

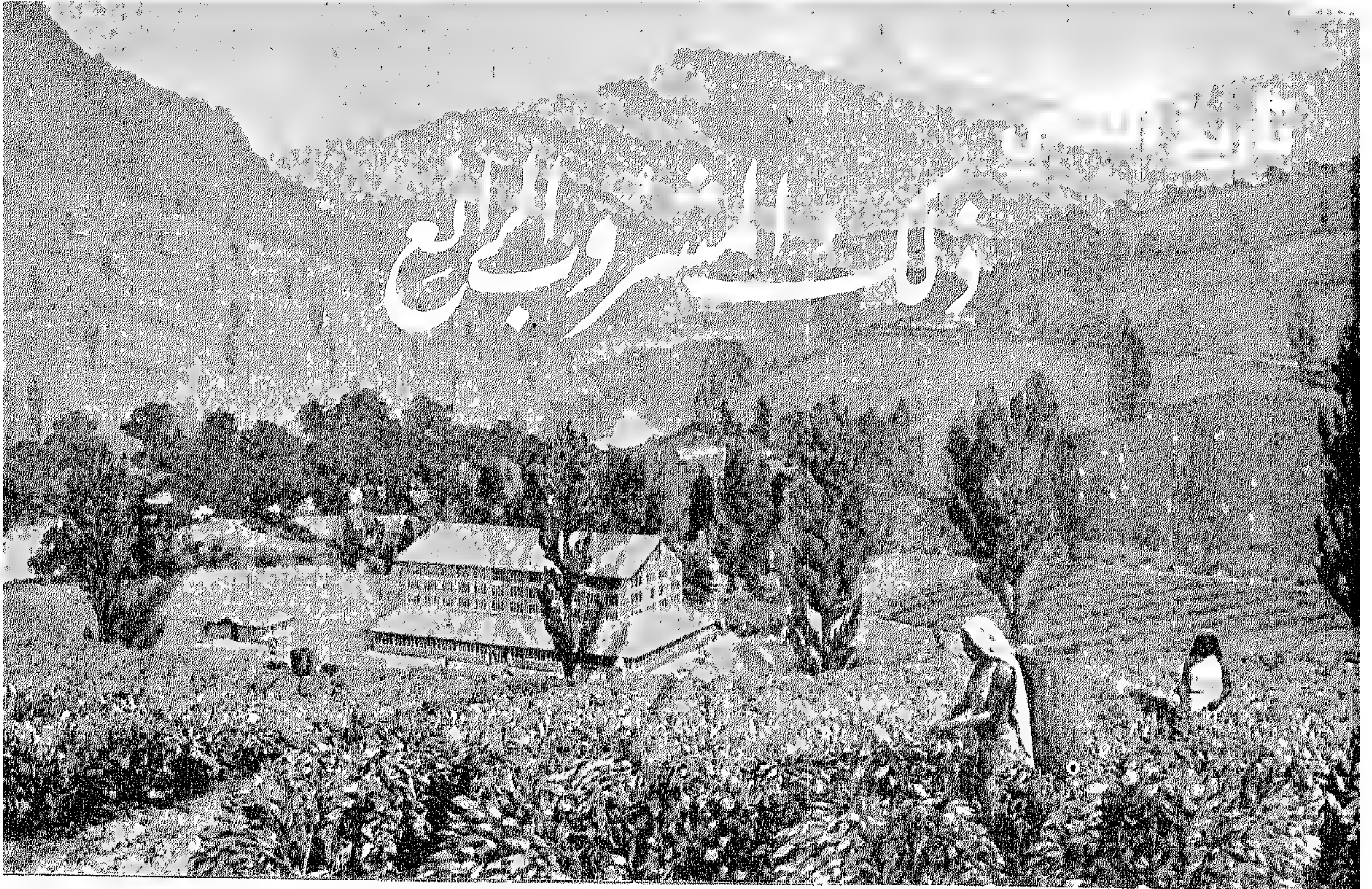
محمد الفاتح يدخل القسطنطينية منتصراً..

وبعد الظهر. دخل السلطان محمد الفاتح - السادس في سلسلة سلاطين آل عثمان السابقين - مدينة القسطنطينية عبر القصر الامبراطوري القديم المعروف باسم بوسليون « فم الأسد » المشرف على بحر مرمرة - وهو الآن مهجور. وكان السلطان في الثالثة والعشرين من عمره عندما فتح المدينة العظيمة فراح يتمشى بين القاعات المهدمة المهجورة وهو يغمغم متمثلاً بأبيات لشاعر فارسي تقول:

« لقد نسج العنكبوت خيوطه على القصر الامبراطوري. ونعقت البوم تنعي مجد الفرس فوق برج أفراسياب ».

وهكذا فتحت القسطنطينية التي أعاد بناءها قسطنطين الأول على أنقاض مدينة بيزنطة ٣٠٦ - ٣٣٧ وافتتحت في عهد قسطنطين الحادي عشر آخر الأباطرة البيزنطيين ١٤٤٩ - ١٤٥٣ وصرع في ميدان المعركة.

بعد ذلك الانتصار العظيم صارت القسطنطينية تدعى الأستانة. وهو اسم ظل محاطاً بالجلال والهيبة أكثر من ٥٠٠ عام. وصلت الدولة العثمانية خلالها الى أوج عظمتها. فاحتلت معظم دول البلقان. بالاضافة الى دول الشرق الأوسط ومصر وايران. ■



زراعة الشاي في سيلان.

إعداد : طلال مجذوب

- يمنح الشاي لشاربه الدفء في أصقاع سيبيريا ، والانتعاش في صحراء العرب !
- الحكيم الصيني تين بي هنغ قال «يشرب الانسان الشاي لينسى ضجيج العالم» !

موطنه وشجرته

أصبح الشاي المشروب الأكثر رواجاً في العالم ، بعد الماء القراح ، ويزيد عدد من يشربونه في العالم اليوم عن ملياري إنسان ، ولذلك يعتبر الشاي المشروب العالمي الأول ، رغم أن الانجليز يحاولون أن يصفوه بأنه مشروبهم القومي ، وعلامة أصالتهم الانجليزية .

الشاي كالبن نبتة شرقية ، ويعتقد ان موطنه الأصلي هو الصين ، ومنها انتقل إلى جنوب آسيا . أفخر أنواعه ما زرع في الصين ، تليها سيلان (سري لانكا) والهند . وقد بدأ الصينيون بزارعته قبل ألفي عام ، بعد أن تعرفوا إلى خواصه الجيدة ، ويزرع اليوم بالاضافة للصين والهند وسري لانكا ، في الملايو واندونيسيا وباكستان وايران ، كما أن أنواعاً أقل جودة منه تزرع في تركيا وبعض بلدان أفريقيا ، وبين البلدان الأميركية تشتهر باراغواي بالشاي الذي تنتجه .

نبتة الشاي شجرة تصل بارتفاعها إلى تسعة أمتار ، لكنها تشحل بشكل دائم حتى لا يتجاوز ارتفاعها مترين ، وهي تعيش ما يقرب من مئة عام ، وتمتاز بأوراق رمحية الشكل ، دائمة الاخضرار ، ولها ازهار بيضاء ممزوجة بلون أصفر ، وذات رائحة عطرة . وتحتاج إلى تربة خفيفة ، وطقس حار ، وهواء رطب ، كما انها تحتاج إلى مطر سنوي لا يقل عن ١٢٥٠ مليمترا ، ويجب أن تظل جذورها رطبة خصوصاً في الصيف .

لفظة الشاي تطلق على الشجرة وأوراقها وعلى المشروب المصنوع منها ، والشاي سريع التأقلم ، ويمكن زراعته في أقاليم مختلفة .

تجارته وإنتاجه

لا يزرع الانجليز شجر الشاي في بلادهم ، ومع ذلك فهم يعتبرون أكثر شعوب العالم استهلاكاً للشاي ، كما انهم يكادون يحتكرون تجارته ، خصوصاً الأنواع الفاخرة منه ، وهم وحدهم يستهلكون نصف إنتاج العالم .

يصنّع الانجليز ، منذ القرن التاسع عشر ، أفخر أنواع الشاي خصوصاً السيلاني منه ، وأقدم مصانعهم في هذا المجال مصنع شاي توينتج TWAINING الذي بدأ إنتاجه سنة ١٧٠٦ ، وشاي ريدواي (RIDGWAYS) الذي بدأ إنتاجه سنة ١٨٣٦ ، ومنذ سنة ١٨٨٦ أصبح المصدر الرئيسي للشاي في البلاط الملكي في عهد الملكة فكتوريا ، وكذلك شاي لبتون (LIPTON) الذي اسسه السير توماس ليبتون قبل خمسين عاماً ، وأصبح يستهلك في ١٥٦ دولة في العالم .

تركيبه وأثره

ما يشرب من الشاي هو منقوع أوراقه ، وتقطف الأوراق وتجفف مباشرة في قاعات جيدة التهوية ، بوضعها على أرفف فوق بعضها ، وكان يجري في السابق تجزئتها ، بعد جفافها ، إلى عيدان صغيرة باليد ، أما اليوم فيتم ذلك آليا ، وبعد ذلك تخمر أو تبخر .

أما التخمير فيستغرق ستا وثلاثين ساعة ويعطينا الشاي الأسود وهو شائع في الهند وبلدان أخرى ، وأما التبخير فيتم في أربع وعشرين ساعة وينتج الشاي الأخضر ، وهذه الطريقة شائعة في الصين واليابان وبلدان أخرى .

يحتوي الشاي على الكافيين (CAFFEINE) «والتايين» (THEIN) والزيت الطيار وهناك كميات قليلة من الفلورايد وفيتامينات «ب» .

أما تأثير الكافيين فهو يبدو في تنشيط المخ وزيادة ادرار البول وكذلك افرازات العراق . وتأثير التايين انه قابض لانه يمس الأغشية الجلدية والمخاطية فيساعد على تقبضها ، ولذلك يستخدم طبياً ، بعد استخلاصه



قديماً ، كان تحضير الشاي فناً أكثر منه عِلماً . يُحل ويوزن ثم يذوقه الخبراء...

كمادة بيضاء ناعمة ، في تجميد الدم في الفم والمعدة وفي بعض أعضاء الجسم الداخلية ، ويزداد تأثيرها في مشروب الشاي كلما ازداد غليه . وفائدة الزيت الطيار انه هو الذي يعطي الشاي نكهته ورائحته الطيبة .

أن خواص الشاي كمشروب مدهشة حقاً ، فهو منعش ومرطب ، وهو يصلح للجو الحار وللجو البارد معاً . ولذلك يفضل البدو كوباً من الشاي على أي مشروب آخر ، لانه يمنحهم انتعاشاً وابترادا ، كما أن العاملين في اصقاع سيبيريا يشربونه ليمنحهم الدفء في جو تتجاوز برودته الصفر بكثير ، نزولاً . ويحتوي كوب الشاي العادي على أربع سعرات حرارية .

تعددت اسماؤه شرقاً وغرباً

«الشاي» لفظة صينية من لهجة أهل كانتون التي كانت لها علاقات تجارية جيدة مع العرب ، وعن طرق هؤلاء عرف الشرق الشاي .

أما لفظة تي « TEA » فهي صينية الأصل أيضاً ، ولكنها من لغة صينية أكثر شمولاً ، وإذا كان معظم العرب يسمونه شاياً ، فإن بعضهم يلفظه بطريقة مختلفة ، ففي بلدان الجزيرة العربية يسمونه شاهي ، وفي الغرب اتاي ، أما في العراق وايران وتركيا فيشتركون بنفس اللفظ وهو جاي ، ويكتب بالتركية هكذا (CAY) . والروس يسمونه شاي

والهنود والباكستانيون شاهي ، بينما يسميه الانجليز (TEA.) والفرنسيون (THE) والبولونيون هرباطة (HERBATA) .

تنوعت أساليب شربه

كان الصينيون ولا يزالون يشربون الشاي الأسود والأخضر ، ويضيفون له زهر الياسمين أو بعض النباتات العطرة ، والشاي الأخضر يخلطون ازهاره بأوراقه ليكتسب طعماً ونكهة عطرة أما أهل التبت فيميلون إلى مضغ أوراقه المحفوظة بعد مزجها ببعض الدهون . وعندما انتقل الشاي إلى هولندا في القرن السابع عشر ، كانت الهولنديات يضفن اليه ورق الزعفران او الدراق لاعطائه نكهة لاذعة ، وفي الجزيرة العربية يشربون الشاي ممزوجاً بالنعناع ، وكذلك يفعلون في مصر بعد غليه جيداً ليشتد سواده ويسمونه «الشاي الثقيل» ، وفي المغرب يشربون الشاي الأخضر بعد إضافة النعناع له ، أما الهنود فيضيفون للشاي ، أحياناً ، القرنفل اليابس ليعطيه لذعة يحبونها !

أما الأوروبيون فيشربون الشاي وحده ، أو ممزوجاً بالحليب ، أو يضعون معه قطعة ليمون تخفف من أثر التابين فيه .

كل الشرقيين يشربون الشاي ساخناً ، لكن في بعض بلاد أوروبا يميلون للشاي البارد أو المثلج ، خصوصاً الانجليز منهم .

وأول من ابتكر الشاي المثلج انجليزي يدعى ريتشارد بلتشيندن إذ أحجم الناس عن شراء مشروب الشاي الساخن منه في المعرض الصيفي في سانت لويس ، فابتكر الشاي المثلج فراج بين الناس وأقبلوا عليه فرحين .

كما كان أول من ابتكر وضع الشاي في أكياس صغيرة (BAGS) تاجر من نيويورك يدعى توماس ساليفان ، وتمكن بهذه الطريقة من بيع بضاعته كلها .

في معظم أنحاء العالم يصنع مشروب الشاي بابريق ويقدم بفناجين أو أكواب من زجاج أو غير زجاج ، أما في الاتحاد السوفياتي وفي بلاد الاناضول من تركيا وبعض انحاء ايران فانه يصنع بالسماور ،



موسم الشاي على الحدود الصينية – السوفياتية (المستقبل العدد ١٤٠).



درس حول تحضير وتقديم الشاي وتبدو نماذج من الساموفار (المستقبل ١٤٠).

وهو ابريق كبير يوجد في الجزء الاسفل منه فتحة يوضع فيها الفحم المشتعل وله صنبوز يصب منه الماء الغالي، أما الشاي فيوضع في ابريق صغير يوضع في أعلى السماور بدل الغطاء، لينحل الشراب بتأثير البخار.

إنتشار زراعته واستهلاكه

عرف الشاي في الصين قبل أكثر من ألفي عام تقريباً، ومنذ القرن السادس انتقلت زراعته إلى اليابان.

للهولنديين فضل تعريف الأوروبيين به، إذ قام تجار شركة الهند الشرقية الهولندية باحضار أوراقه من جاوه إلى امستردام، وقد بيع فيها بالصيدليات على انه من التوابل. وكان ذلك سنة ١٦١٠، وبعد ذلك أخذ استعماله ينتشر في سائر أنحاء أوروبا، فعرفه الانجليز سنة ١٦٦٠، وظلت شركة الهند الشرقية الانجليزية تحتكر تجارته حتى سنة ١٨٣٤، وكان يباع في انجلترا بثمن باهظ جداً بحيث لم يكن قادراً على شرائه إلا الاثرياء.

نقله الانجليز إلى مستعمراتهم في امريكا سنة ١٦٨٠، وكان عند بدء انتشاره في امريكا يباع النصف كيلو غرام منه بحوالي ستين دولاراً، لذلك كانت الاميركيات يغلين الشاي عدة مرات كما كن يأكلن أوراقه ممزوجة بالزبدة والملح!

لشرب الشاي آداب واصول

كان شرب الشاي كيفا، وصار، في كثير من بلاد العالم، عادة اجتماعية لها نظامها وآدابها.

يشرب الشاي في معظم أنحاء العالم في أي وقت من الليل والنهار وفي شرق افريقيا عندما يرحبون بالضيف قائلين «سفاكيدي كاريبو» أي مرحبا بك يضيفون «كاريبو تشاي» أي مرحبا بك لشرب الشاي باعتباره مشروب الضيافة عندهم.

أما الانجليز فمولعون باحترام آدابه واصوله، إذ يقيمون حفلات تدعى حفلة شاي (**TEA PARTY**) يكون هذا المشروب مادة الضيافة الرئيسية فيها. ويعتبر شرب الشاي الساعة الخامسة من عصر كل يوم موعداً

مهماً لا يهمله أي انجليزي عريق ، وقد بدأت هذه العادة سنة ١٨٤٠ عندما احست دوقة بدفورد بالكآبة ذات يوم ، فدعت اصدقاءها لتناول الشاي وشيء من الحلوى في تلك الساعة ، ولما رأت انها تخلع عنها سأمها درجت على اقامتها كل يوم في نفس الموعد وإنتشرت بعد ذلك بين الانجليز وعرفوها بشاي الساعة الخامسة .

وفي ايران يصبون الشاي من الاكواب في أطباق صغيرة ويرتشفونه ، بعد أن يضعون في افواههم قطعاً من السكر (قند) أما في افغانستان فإن المضيف الذي ينهي ارتشاف الشاي من كوبه ولا يريد أن يملأه ثانية عليه أن يقلبه فيفهم المضيف انه لا يرغب بالمزيد منه !

واليابانيون يعتبرون حفلات شرب الشاي من الامور المقدسة التي لا يجوز المساس بها أو تغييرها . وتشتهر مؤسسة يورانسكي بتقديم الشاي الأخضر طبقاً للتقاليد المتوارثة منذ أربعمائة سنة أو تزيد ، ويرئس هذه المؤسسة اليوم «شوسيتسو سان» سليل سان ريكيو الكبير ، وتقضي هذه الاصول برشف الشاي مرتين بصمت ، وفي المرة الثالثة يرتشف بصوت عال دلالة التلذذ بطعمه ، ويقدم معه قطع سكر ملونة ، وفنجانه من البلور الشفاف بدون اذن ويمسك باليدين كلتيهما .

وكان امره يسراً

بخلاف مشروبات أخرى ، فإن الشاي لم يلق مقاومة أو تحريماً ، بل على العكس ، فانه لاقى تحبيذاً واستحساناً ، ولذلك انتشر هذا الإنتشار الواسع في أنحاء العالم ، لكن بلداً واحد حوله من المشروب الأول إلى مشروب يحتل الدرجة الثانية وكان ذلك البلد هو المستعمرات الانجليزية في امريكا التي أصبحت فيما بعد الولايات المتحدة الامريكية .

وتفصيل ذلك أن الانجليز فرضوا ضريبة باهظة على استيراده سنة ١٧٧٣ فاستاء الاميركيون من هذا الأمر ، وقام بضعة شبان بالقاء ٣٤٢ صندوقاً من الشاي في مياه البحر كانت تحملها ثلاث سفن تابعة لشركة الهند الشرقية الانجليزية ، وكانت ترسو في ميناء بوسطن الاميركي ، وتعرف هذه الحادثة في التاريخ الاميركي بحفلة الشاي في بوسطن ، وكانت إحدى العوامل الممهدة لقيام الثورة الامريكية فيما بعد ، وقد نتج عن ذلك أن أضرب الاميركيون عن استهلاكه وأحلوا محلّه القهوة .

وقد مدحه الحكيم الصيني تين يي هنغ بقوله «يشرب الإنسان الشاي لينسى ضجيج العالم» ، كما أن ميرزا علي محمد الشيرازي المعروف بالباب نصح اتباعه بشرب الشاي لأن في ذلك ثواباً عظيماً .

وفي القرن التاسع عشر كان السياسي البريطاني وليام غلادستون يقول «إذا أحسست بالبرد فالشاي يمنحك الدفء ، وأن شعرت بالحرارة منحك البرودة ، وأن كنت كئيباً فهو يفرحك ، وأن كنت ثائراً هدأك» .

وكان مقهى «ريدجواي» في لندن في القرن السابع عشر يعلن أن شرب الشاي فيه يقضي على أوجاع الرأس والحصى ، ويفيد في معالجة انقباض المعدة .

ومنذ شيوع شرابه ، أخذ الملوك والأمراء يتنافسون بامتلاك أغلى ادواته ، ويوجد في متحف طوب قابو في اسطنبول اليوم أفخم مجموعة من أطقم الشاي من الصيني كانت في قصور السلاطين من بني عثمان كما أن المتحف البريطاني يضم أوسع مجموعة من نوعها في العالم. ■

مصادر البحث :

١ - دائرة المعارف البريطانية.
٢ - الموسوعة العربية الميسرة.
٣ - الشاي صناعته وتجارته - إصدار دار الشاي السيلاني - لندن.



تاريخ وأسماء ومعالم القرى والأحياء في الوطن العربي

إلى القراء الاعزاء :

ترغب مجلة «تاريخ العرب والعالم» أن تفتح باباً خاصاً للقراء ، لا سيما للطلاب في الثانويات والجامعات ، تدعو فيه إلى الكتابة المختصرة في موضوع : «تاريخ واسماء ومعالم القرى والأحياء في الوطن العربي» . والمجلة إذ تفتح باب هذا الموضوع تخصص مكافأة قدرها ١٠٠ ليرة لبنانية ، أو ما يعادلها للفائز الأول ، واشتراكاً سنوياً في المجلة للفائز الثاني ، على أن تتضمن المساهمة المقدمة معلومات جديدة وشيقة عن القرية أو الحي أو المعْلم وعن تاريخه واسمه وظروفه ، أو ما يحتوي من آثار عمرانية قديمة أو مظاهر حضارية ، وإذا أمكن صورة فوتوغرافية مأخوذة للحي أو القرية أو لأي مظهر عمراني أو اثري فيها ، كذلك على أن لا تتجاوز المساهمة الـ ٢٠٠ كلمة .

هذا ، وإذ تشدد المجلة على جدّة المعلومات الواردة ، تطلب من الكتاب الاعزاء ان يتقيدوا بأصول الكتابة العلمية وأن يشيروا إلى مصدر الاقتباس ، وتترك لهيئة التحرير حقها في اختيار المساهمات الصالحة للنشر ، وكذلك اختيار المساهمات الفائزة ؛ إذ من حصيلة ما يصل الينا ستختار هيئة التحرير ثلاث مساهمات للنشر في كل عدد بينها المساهمتان الأولى والثانية الفائزتان بالمكافأة .

* * *

نرجو من المشترك أن يكتب اسمه وعنوانه بخط واضح في نهاية مقاله وأن يرسله الينا بالبريد على العنوان التالي :

مجلة «تاريخ العرب والعالم» بيروت ص . ب . ٥٩٠٥
«مسابقة القرى والأحياء في الوطن العربي» .

* * *

تعتبر المواد المرسلة ملكاً للمجلة ، إذا نشرت أو لم تنشر .

وهذان مثلان أرسلهما صديقان للمجلة أتمنى أن يتمثل بهما من يريد أن يشترك في المسابقة.

صحار :

● مرفأ على ساحل عمان، تقع على خط عرض ٢٤ درجة ٢٢ شمالاً وخط طول ٥٦ درجة ٤٥ شرقاً. وكانت تقوم في مكانها مستعمرة قديمة جداً يمكن أن نرد تاريخها إلى الجاهلية.

لقد ظهر إسم صحار في التاريخ الاسلامي سنة ٨ هـ/٦٣٠م عندما سلم عمرو بن العاص السهمي وأبو زيد الأنصاري مبعوثا النبي كتابه إلى أيدي عمان جعفر وعباد الجلندي. وقد قبلا ما عرضه الرسول (صلى الله عليه وسلم) عليهما وأسلما. ولكن ظلت صحار كبقية عمان لا تتصل بالدولة الإسلامية إلا اتصالاً واهناً. ثم تغير الموقف عندما غزا عمان الوالي الأموي الحجاج بن يوسف. وفي سنة ٧٥١ م عادت عمان فاستقلت عن الدولة الاسلامية تحت الراية الأباضية (فرقة من الخوارج) واختارت الجلندي بن مسعود الأزدي أول امام أباضي لعمان وكانت عاصمته نزوة. في القرن العاشر الميلادي كانت صحار قد ارتقت رقياً كبيراً وعدت أهم بلدة في عمان وأجمل البلدان على الخليج الفارسي. كانت مزدهرة لكونها مركزاً للتجارة مع الشرق وخصوصاً للسلع الواردة من الصين وكان لها أيضاً شأن في تجارة اليمن. ولمرفأ صحار أهمية بالغة لكونه محطة لتزويد السفن المتجه إلى الشرق بمؤونتها.

ولكن هذا الازدهار لم يدم طويلاً فقد شهدت صحار عدة هجمات احتلال أخرت من مكانتها الاقتصادية. ففي سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٣م) اضطر أهل صحار إلى الفرار والهجرة خارج عمان من هجمات أي حرب قائد عضد الدولة. وفي سنة ٤٣٣ هـ (١٠٤٢ م) استولى على صحار القائد البويهي ايدكايجار وأصبحت تحت الحكم البويهي وبعده السلجوقي. وفي القرن الثاني عشر توقفت تجارة صحار مع الشرق الأقصى. وتحولت التجارة إلى عدن.

في القرن السادس عشر احتل أسطول برتغالي صحار وتمكن البرتغاليون من جعلها مركزاً لتجارتهم. ومن الضربات التي وجهت إلى صحار غارات القراصنة التي أوقفها الأسطول الانكليزي سنة ١٨١٩.

فقد تمكن محمود بن عزان زعيم القراصنة من أن يستولي على صحار مدة من الزمن برغم معارضة الامام سعيد الذي حاول بمعاونة الوهابيين طرد محمود من صحار فلم ينجح. إلا انه سنة ١٨٤٢ تمكن من القبض عليه بموافقة الانكليز. وبهذا عادت صحار تؤلف جزءاً من أمامه عمان وفي الوقت الحاضر قلت أهمية صحار بالمقارنة بعاصمة البلاد مسقط.

جغبوب :

● زاوية للسنوسي في واحة فردعه على الحدود بين طرابلس الغرب ومصر. وهي على مسيرة خمسة عشر يوماً إلى الجنوب الشرقي من بنغازي ويومين إلى الجنوب الغربي من واحة سيوه. وكانت هذه البقعة خالية من السكان عندما قرر الاستقرار فيها الشيخ محمد بن علي السنوسي لعدم قدرته على الرجوع إلى بلاده الجزائر بسبب الاحتلال الفرنسي وذلك سنة ١٨٥٥. وابتنى هناك زاوية على صخرة ناتئة تشرف على الواحة. وحفر في الصخر نبعاً وغرس الحدائق وأشجار النخيل. وكان لموقع جغبوب أهمية لتطور وانتشار الطريقة السنوسية بين قبائل البدو التي شكلت العنصر الأساسي في بناء السنوسية. ولقد توفي الشيخ محمد بن علي في جغبوب ودفن فيها عام ١٨٥٦. ويرقد إلى جانبه الشيخ محمد شريف أحد أولاده الذي توفي في سنة ١٨٩٦.

والظاهر ان نمو هذه الزاوية كان بطيئاً بعض الشيء في أول الأمر ولم يكن عام ١٨٧٤ سوى قليل من الطلاب الذين يدرسون في جامعتها. ولكن سرعان ما نمت بعد ذلك ويقول دو فيربيه انه كان فيها عام ١٨٨١ حوالى ٧٥٠ طالباً وكان فيها إلى جانب الأبنية الدينية دور صناعات ودار للأسلحة. ومن ثم أصبحت هذه الزاوية مركز دعوة إلى هذه الطريقة ومنها أخذ الدعاة في نشر العقائد السنوسية في وسط أفريقيا وخاصة في واداي.

انتقل الشيخ عام ١٨٩٠ من جغبوب إلى بلاد الجنوب بواحة الكفرة ليكون أقرب إلى واداي ولكي يبتعد في الوقت نفسه هو وأتباعه عن دائرة النفوذ الأوروبي. وظلت جغبوب مع ذلك أهم زاوية للسنوسية يحج إليها المسلمون ومركزاً ثقافياً لها. ■

بقلم ميشال اسطفان

المملكة المغربية

تتمة ما نشرنا في العدد السابق. نواصل شرح اصدارات طوابع تلك البلاد.

– المكاتب الأجنبية الفرنسية ١٨٦٢ – ١٩١١

أول مكتب فرنسي افتتح اعماله في طنجة سنة ١٨٦٢ واستعمل طوابع فرنسا الموجودة في البريد وقتئذ، وكانت تمهر بالاختام المعروفة بالأرقام، وقد كان ختم طنجة يحمل رقم « 5106 ». ثم افتتحت فرنسا مكاتب أخرى في الدار البيضاء والقصر الكبير ولاراش ومزغان وموغادور والرباط. وبسبب تدهور العملة الاسبانية جعلت توشيح الطوابع الفرنسية بالسنتيموس والبزيتاس، وأصدرت أول مجموعة في أول كانون الثاني/يناير ١٨٩١/١٩٠٠، مؤلفة من ١١ طابعاً موشحاً من ٥س إلى ٢ بزيتاس على طوابع فرنسا. ثم مجموعة من طابعين، أصدرت في ٥ شباط/فيراير ١٨٩٣ موشحة باليد « Timbre Poste » من فئة ٥ و ١٠ س على طوابع فرنسية للاجور المستحقة، لكنها استعملت للبريد العادي وأصبحت قيمتها اليوم نحواً من ٧٥٠ جنيهاً استرلينياً. وأخيراً اصدرت في سنة ١٨٩٦ مجموعة للأجور المستحقة من خمسة طوابع موشحة بالسنتيموس والبزيتاس على طوابع فرنسية للأجور المستحقة من ٥ س إلى « ١ » ب، قيمتها اليوم نحواً من ٦٥ جنيهاً استرلينياً.

وفي تشرين الأول/اكتوبر ١٩٠٢ أصدرت طوابع طبعت خصيصاً على نمط الطوابع الفرنسية (صورة ١، ٢، ٣)، تحمل اسم (Maroc) ووشحت أيضاً بالعملة الاسبانية وكانت مؤلفة من ١٢ طابعاً من « ١ » س إلى ٢ ب، أصبحت قيمتها اليوم نحواً من ٦٥ جنيهاً استرلينياً. وفي ١٠ تشرين الأول/اكتوبر ١٩٠٣، وشحت باليد في طنجة، طابعين من طوابع الاجور المستحقة الفرنسية اصدار ١٨٩٦ : (P.P.)، أي اجور مدفوعة، واستعملت للبريد العادي، ولم تعطل بأي ختم كالعادة لكي لا تغطي التوشيح اليدوي، وأصبحت قيمتها اليوم تزيد على ٦٠٠. جنيهٍ استرلينيٍّ.

وبعدها أصدرت سنة ١٩٠٩، مجموعة للاجور المستحقة من أربعة طوابع موشحة على طوابع فرنسية (صورة ٤)، من « ١ » سنتيم إلى ٥٠ سنتيم. وفي سنة ١٩١١/١٩١٧ أصدرت مجموعة عادية من ١٢ طابعاً، من الطوابع الخاصة بالمغرب (صورة ١، ٢، ٣)، بعد أن وشحتها من « ١ » سنتيم إلى « ١ » بسيطة، (صورة التوشيح ٥ و ٦).

وفي سنة ١٩١١ صدرت مجموعتان للأجور المستحقة، الأولى من ثلاثة طوابع موشحة بالتوشيح السابق بفئة ٥ و ١٠ و ٥٠ س. والثانية من أربعة طوابع موشحة على طوابع للاجور المستحقة الفرنسية بالتوشيح السابق أيضاً بفئة ١ و ١٠ و ٣٠ و ٥٠ س.



٣



٢



١

المكاتب في المناطق تحت الحماية الفرنسية ١٩١٤ – ١٩٥٦

في أول آب/اغسطس ١٩١٤ أصدرت المجموعة الأولى من ١٧ طابعاً من المجموعة الخاصة بالمغرب (صورة ١ و٢ و٣)، موشحة بسطرين (Protectorat Francais) بأحرف صغيرة جداً، من « ١ » سنتيم إلى ٥ بسيطة، على الطوابع من الفئات الصغيرة، وبسطر واحد على الفئات الكبيرة المستطيلة. ثم تبعتها أربع مجموعات،

منها مجموعتان تذكاريتان للصليب الأحمر مؤلفتان من تسعة طوابع ، ومجموعتان للاجور المستحقة من عشرة

1 بسيطة	1 سنتيم	
٦	٥	٤

طوابع ، موشحة على طوابع فرنسية صدرت ما بين سنة ١٩١٤ و ١٩١٥ .

في أول أيلول/ستمبر ١٩١٧ ، صدرت أول مجموعة مصورة تمثل مناظر ستة بلدان، مؤلفة من ١٧ طابعاً ، وهكذا درجت الاصدارات المختلفة ، منها العادية والتذكارية وللاجور المستحقة ، والموشحة بالفئات المطلوبة أحياناً ، وبالمناسبات التذكارية أحياناً أخرى ، جمعت حوالي ٤٣٦ طابعاً وأربع بطاقات تذكارية ، آخرها صدر بتاريخ ١٠ آب/اغسطس ١٩٥٥ .

٥ – البريد البحري الفرنسي في الدار البيضاء ١٩٤٣ – ١٩٤٥

في سنة ١٩٤٣ منحت السلطات الاميركية في أفريقيا الشمالية ، للبريد البحري الفرنسي في الدار البيضاء ، حق استعمال الطابع الجوي الامريكي من فئة ٦ سنت – (صورة ٧) ، بعد توشيحه بأحرف (R.F) أي الجمهورية الفرنسية ، وذلك للتخليص على المراسلات الجوية ، لبحارة القوات البحرية الفرنسية ، الموجهة إلى الولايات المتحدة وكندا . وكان التوشيح على مرتين ، ففي المرة الأولى كان قياس الأحرف عمودياً ٥ مليمترات و ٤ مليمترات في المرة الثانية ، وقد حدثت أخطاء عدة في كلتا الطبعتين . منها ما جاء توشيحه معكوساً ومنها ما جاء مكرراً ، وقد بلغت قيمة الطوابع هذه نحو الخمسين دولاراً امريكياً لكل منها .



٧

٦ – مكاتب المؤسسات الخاصة للبريد الداخلي ١٨٩١ – ١٩٠٩

كان البريد الداخلي في المغرب . ما بين سنة ١٨٩١ وسنة ١٩٠٩ يديره مؤسسات خاصة . فرنسية . والمانية ، واسبانية ، وقنصلية بريطانية وايطالية . أصدرت طوابع خاصة تستعمل بين مدينة وأخرى . في داخل البلاد فقط ، وكان الطابع يحمل اسمي مدينتي المصدر والمورد .

اصدارات مكـــاتب المؤسسات الفرنسيـــة ١٨٩١ – ١٩٠٧
الوجهة : مزغان ومراكش

في سنة ١٨٩١ أصدرت مؤسسة « **Brudo** » طابعاً من فئة ٢٥ سنتيماً لونه أحمر أو أحمر قانٍ . مخـرماً من قياس ١١ ، وآخر بدون تخريم . (صورة ٨) . قيمتها اليوم نحو ١٠ جنيهات استرلينية . وفي سنة ١٨٩٢ ، وشحت باليد ، الطابع نفسه بفئة ١٠ س . مرة بلون أسود ومرة أخرى بلون أزرق . صدر مرة مخرماً ومرة بدون تخريم .





٩



١٠



١١

وفي سنة ٩٥/١٨٩٣ . أصدرت مجموعة من ستة طوابع . من – ٥ س إلى « ١ » ب . بألوان مختلفة (صورة ٩) .

وفي سنة ١٨٩٤ . وشحت طابعاً من فئة ٥ س من المجموعة السابقة . بفئة ٢٠ س .

وفي سنة ١٨٩٩ ، أصدرت مجموعة من سبعة طوابع ، من ٥ س إلى «١» بزيتا ، الرسم الداخلي بالأسود والإطار الخارجي بألوان مختلفة ، (صورة ١٠) ، وفي السنة ذاتها ، أصدرت مجموعة للاجور المستحقة ، من سبعة طوابع ، من ٥ س إلى «١» ب ، رسم الفئات في الوسط بالاسود ، والاطار الخارجي بألوان مختلفة ، (صورة ١١) .



١٣



٢



١٤

الوجهة : موغادور ومراكش

في سنة ١٨٩٢ ، أصدرت طابعاً من فئة ٢٠ س ، لونه أحمر ، مخرم قياس ١/٢ ١١ ، وآخر بدون تخريم ، (صورة ١٢) .

الوجهة : القصر الكبير ووزان

في سنة ١٨٩٦ ، أصدرت مجموعة من سبعة طوابع ، من فئة ٥ س إلى فرنك واحد ، بألوان مختلفة ، (صورة ١٣) .

الوجهة : تطوان وشيشوان

في سنة ١٨٩٦ ، أصدرت مجموعة من سبعة طوابع ، من فئة ٥ س إلى فرنك واحد ، بألوان مختلفة ، (صورة ١٤) ، قيمتها اليوم نحواً من ٣٢ جنيهاً استرلينياً .

الوجهة : آسفي ومراكش

في سنة ١٨٩٩ ، وشحت مؤسسة (Brudo) ، مجموعة من أربعة طوابع ، أصدار ٩٥/١٨٩٣ ، بكلمة (Saffi) ، قيمتها اليوم نحواً من ٣٥ جنيهاً استرلينياً .

الوجهة : دمناط ومراكش

في سنة ١٩٠٦ ، أصدرت مؤسسة باسم : (Charles Firbach) ، طابعاً من فئة ١٠/٢٠ س ، بلون خمري ، (صورة ١٥) ، ويلاحظ حرفاً (F.C) على جانبي الطابع ، قيمته اليوم تزيد على ٤٠ جنيهاً استرلينياً . وفي سنة ١٩٠٧ ، أعادت طباعته بلون أحمر برتقالي وبالفئة ذاتها ، ولكن قيمته لم تتعدَّ شلناً واحداً .



١٥



١٦



١٧

اصدارات مكاتب المؤسسات الالمانية ١٨٩٢ — ١٩٠٠

الوجهة : طنجة وفاس

في السنة ١٨٩٢ ، أصدرت مجموعة من سبعة طوابع ، من فئة ٥ س إلى ٥ فرنك ، بألوان مختلفة ، (صورة ١٦) .

الوجهة : موغادور ومراكش

في السنة ١٨٩٥ ، أصدرت مجموعة من سبعة

طوابع بألوان مختلفة ، خمس منها من فئة ٥ س إلى «١» ب ، مخرمة بقياس ١/٢ ١٢×١٣ ، وطابعين من فئة ٥ و١٠ س مخرمة بقياس ١/٢ ١١ ، (صورة ١٧) .

وفي سنة ١٨٩٦ ، وشحت خمسة طوابع من المجموعة السابقة بفئة ١٠ س لكل منها ، ولكن بتوشيح مختلف في القياس واللون ، وأصبحت قيمتها اليوو نحو ٢٥٠ جنيهاً استرلينياً .

وفي سنة ١٨٩٨ ، وشحت ثلاثة طوابع من المجموعة ذاتها ، أصدار ١٨٩٥ ، بفئة ١٠ س على ثلاث فئات مختلفة ، أصبحت قيمتها اليوم نحو ٣٥٠ جنيهاً استرلينياً ..

وفي السنة ذاتها ، أصدرت مجموعة من خمسة طوابع بألوان مختلفة ، من ٥ س إلى ٥٠ س ، (صورة ١٨) .



١٨

١٩

5 centimes

٢٠

5 centimes



٢١

١٩٠ ، وشحت أربعة طوابع من المجموعة السابقة ، بفئة ٥ س ، على طابع من فئة ١٠ س ، مرة باللون الأسود ، ومرة أخرى باللون البنفسجي بالتوشيح ١٩ ، (صورة ١٩) ، ومرة ثالثة باللون الأسود، ثم مرة رابعة باللون البنفسجي بالتوشيح ٢٠ ، (صورة ٢٠) .

الوجهة : طنجة وارزيلا

في سنة ١٨٩٦ ، أصدرت مجموعة من ثمانية طوابع ، من ٥ س إلى ٢٥ س ، بحجم عادي ، مخرمة بقياس ١٣ ، بألوان مختلفة ، ومجموعة أخرى مثلها بحجم أكبر قليلاً ولكن من ستة طوابع مخرمة بقياس ١٤ (صورة ٢١) قيمتها اليوم نحو ٧٥ جنيهاً استرلينياً .

الوجهة : طنجة وتطوان

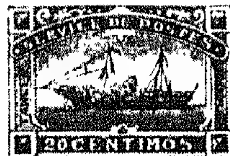
في سنة ١٨٩٦ ، أصدرت مجموعة من خمسة طوابع من ٥ س إلى ٢٥ س ، بألوان مختلفة (صورة ٢٢) .



٢٢



٢٣





٢٤ ٢٥

الوجهة : طنجة ولاراش

في سنة ١٨٩٨ ، أصدرت مجموعة من سبعة طوابع ، بألوان مختلفة ، من ٥ س إلى «١» ب . (صورة ٢٣) .

الوجهة : طنجة والقصر الكبير

في سنة ١٨٩٨ ، أصدرت مجموعة من ثمانية طوابع ، من ٥ س إلى ٢ ب ، بألوان مختلفة ، (صورة ٢٤) .

الوجهة : آسفي ومراكش

في سنة ١٨٩٩ ، أصدرت مجموعة من سبعة طوابع ، من ٥ س إلى «١» ب . مخرمة قياس ١٣ ، ثم اعادت طباعتها بأرقام أعرض ، ومخرمة بقياس ١١ ١/٢ ، بألوان مختلفة ، (صورة ٢٥) .

إصدارات مكاتب المؤسسات الاسبانية ١٨٩٤ – ١٩٠٠

الوجهة : فاس وسفرو

في سنة ١٨٩٤ ، أصدرت مجموعة من ١١ طابعاً بألوان مختلفة ، خمسة منها مخرمة بقياس ١٣ ، وثلاثة بقياس ١١ ١/٢ ، والثلاثة الأخيرة بقياس ١٤×١٤ ١/٢ . بفئات متشابهة ، (صورة ٢٦) ، قيمتها اليوم نحو ٦٠ جنيهاً استرلينياً .

الوجهة : القصر الكبير ووزان

في سنة ١٨٩٦ ، أصدرت مجموعة من ثمانية طوابع ، من ٥ س إلى ٢ ب ، بألوان مختلفة ، (صورة تشابه رقم ٢٩) ، أصبحت قيمتها اليوم نحو ٢٢٠٠ جنيهٍ استرليني .


٢٦


٢٧


٢٩


٢٨

الوجهة : فاس ومكناس

في سنة ١٨٩٧ ، أصدرت مجموعة من ثمانية طوابع من ٥ س إلى فرنك واحد ، بالوان مزدوجة ومختلفة ، مرة مخرمة بقياس ١١ ١/٢ ، ومرة أخرى بقياس ١٤ ، (صورة ٢٧) ، ومجموعة أخرى للاجور المستحقة ، من ثمانية طوابع ، من ٥ س إلى فرنك واحد ، (صورة ٢٨) .

الوجهة : تطوان وشيشوان

في سنة ١٨٩٧ ، أصدرت مجموعة من ثمانية طوابع ، من ٥ س إلى ٢ ب ، بالوان مختلفة ، (صورة ٢٩) ، قيمتها اليوم تزيد على ١٧٠٠ جنيهٍ استرليني .

الوجهة : تطوان والقصر الكبير

في سنة ١٨٩٧ ، اصدرت مجموعة من سبعة طوابع ، من ٥ س إلى ٢ ب ، بالوان مختلفة ، (صورة ٣٠) ، قيمتها اليوم نحو ٦٠ جنيهاً استرلينياً .


٣٠


٣١


٣٢


٣٣

الوجهة : مزغان وازمور ومراكش

في سنة ١٨٩٧ ، اصدرت مجموعة من ١٢ طابعاً ، سبعة منها من ٥ س إلى «١» ب ، مخرمة بقياس ١٣ ١/٢ . وخمسة طوابع مخرمة بقياس ١١ ، من ١٠ س إلى «١» ب ، بألوان مختلفة ، ولكن رقم

الفئة باللون الاسود ، (صورة ٣١) ، قيمتها اليوم تزيد على ٦٠٠ جنيهٍ استرلينيٍ .

الوجهة : موغادور وأغادير

في سنة ١٩٠٠ ، أصدرت مجموعة من سبعة طوابع ، من ٥ س إلى «١» ب ، أطرها الخارجية بألوان مختلفة ، والعلم مع رقم الفئة باللون الأحمر ، (صورة ٣٢) ، قيمتها اليوم نحو ٦٠ جنيهاً استرلينياً .

اصدارات المكاتب القنصلية البريطانية والايطالية
١٨٩٧ – ١٨٩٨
الوجهة : مزغان ومراكش

في سنة ١٨٩٧ ، أصدرت مجموعة من ستة طوابع بالوان مختلفة ، بعضها مخرم بقياس ١٤ وبعضها بدون تخريم ، والملاحظ أن العملة مكتوبة باللغة الايطالية ، (صورة ٣٣) ، قيمتها اليوم نحو ١٥ جنيهاً استرلينياً .

وفي سنة ١٨٩٨ ، وشحت ثلاثة طوابع من المجموعة السابقة ، بفئات ٨ و ١٠ و ٢٠ س ، مرة باللون البنفسجي ، وأخرى باللون الاسود ، قيمتها اليوم نحو ٤٥ جنيهاً استرالينياً .

وهناك مجموعة اعانة صدرت سنة ١٩٠٧ ، مؤلفة من خمسة طوابع مستطيلة افقياً ، الاطار بالوان مختلفة والوسط بمناظر مختلفة أيضاً ، من فئة ٥ س إلى ٥٠ س ، طبعت مرتين بالوان شتى ، ثم وشحت بفئة ٥ س مع صليب أحمر ، على فئة ١٠ و ٢٠ و ٢٠ لون آخر و ٣٠ و ٥٠ س ، قيمتها اليوم تساوي نحواً من ٧٠ جنيهاً استرلينياً .

ويلاحظ أن العملة المستعملة في جميع المكاتب ، هي الفرنسية والاسبانية فقط ، وذلك نسبة للعملة المستعملة في المناطق التابعة لها . وسنتبع في العدد القادم شروحات اصدارات المكاتب الأجنبية الأخرى بحسب الجدول .

كلمات متقاطعة

أفقياً :

(١) ملك عربي . خمرة العسل .
(٢) ضمير منفصل . بلدة في صحراء المغرب .
(٣) مدينة مغربية . يهزُّ (معكوسة) .
(٤) ضمير منفصل . مدينة مغربية .
(٥) حب الماش . نهب .
(٦) أكلوا .
(٧) ثغر مغربي . ثغر مغربي .
(٨) مدينة مغربية . أحرف العلة .
(٩) ما ترعاه الماشية . ثغر مغربي (معكوسة) .

عمودياً :

(١) متشابهان ، الضبع .
(٢) اداة نصب . فقد عقله (معكوسة). ذهب لا يدري إلى أين يذهب .
(٣) اسم فاكهة (معكوسة) . ثغر مغربي .
(٤) ري .

٩	٨	٧	٦	٥	٤	٣	٢	١	
			■						١
					■				٢
			■				■	■	٣
					■				٤
■	■	■				■			٥
							■		٦
				■					٧
			■						٨
					■				٩

(٥) مدينة مغربية (معكوسة) . شرع .
(٦) عاصمة دولة عربية .
(٧) اختبر (معكوسة) . بيت نار يخبز فيه .
(٨) مُفارق . ذو وجاهة .
(٩) مكان في مصر . طاوع (معكوسة) .

(حل الشبكة صفحة ٩١) .

معاهدات / سعيد كريدية

معاهدة سان جرمان

(١٠ أيلول ١٩١٩)

هناك في قلب القارة الأوروبية دولة صغيرة تحدها من الجنوب يوغسلافيا وايطاليا ومن الشرق سويسرا وامارة ليشتنشتاين ومن الشمال المانيا الاتحادية وتشيكوسلوفاكيا ومن الشرق هنغاريا أو المجر إنها النمسا نعم النمسا بلد شتراوس وهتلر. إنها النمسا التي كان لها دور كامل في رسم تاريخ القارة الأوروبية. فقد كانت قبل حوالي ألفي عام مقاطعة رومانية.

وفي اواخر القرن الثامن ومطلع القرن لتاسع قام شارلمان بتأسيس تحصينات على نهر الدانوب لصد غزوات المعتدين. حكمت هذه المنطقة في القرن العاشر أسرة Babenberger ثم انتقــــل الحكم إلى آل هابسبورغ الذين ظلوا يحكمون النمسا حتى نهاية الحرب العالمية الأولى.

لقد كان للنمسا وقتها نفوذ وقوة يحسب لها الساسة الأوروبيون ألف حساب حتى قيل عنها أنها من الامبراطوريات التي لا تغيب عنها الشمس فبالإضافة إلى اتحادها مع مملكة المجر لتؤلف الأمبراطورية الثنائية النمساوية – الهنغارية Austro Hyngary كـــانت تعيش على أراضي تلك الأمبراطورية قوميات متعددة كالايطاليين والتشيكيين والسلوفاكيين والصربيين والكرواتيين والبولنديين والرمان وحجر. أماالنمساويون فكانوا المانياً، لذلك كانت النمسا في ذلك الحين شبه قارة لما تحتويه من شعوب متعددة ولغات مختلفة وأراضي شاسعة.

أما ڤينا عاصمة تلك الأمبراطورية الكبيرة فقد كـانت إحدى محاور السياسة والثقافة والإقتصاد إذ عقد فيها مؤتمر أوروبي ضخم كان الأول من نوعه عام ١٨١٥. وقد وصف أحد المؤرخين ڤينا وقتها قائلاً: «أنها باريس أوروبا الوسطى»، (Its the Paris of Central Europe) لما الذي حدث وقلب الأمور رأساً على عقب وحول تلك الأمبراطورية الواسعة إلى دولة صغيرة محايدة تعتاش من السياحة والخدمات العامة؟ للإجابة على هذا السؤال نعود ـ ٦١ عاماً إلى الوراء وبالتحديد إلى العاشر من أيلول ١٩١٩ حين وقعت النمسا معاهــدة سان جرمان مع الحلفاء المنتصرين بالحرب العالمية الأولى. تلك المعاهدة التي قسمت النمسا وقلصت حجمها والتي تعتبر نقطة تحول هامة بالنسبة للنمساويين إذ لم يتمكنوا بعدها من التوسع الإقليمي. وقبل أن توقع المعاهدة قام الحلفاء بالخطوة التالية: حل الامبراطورية – الهنغارية وإنشاء دول مستقلة عليها وفصل قسميها الرئيسيين النمسا والمجر (هنغاريا) وجعل كلٍ منهما دولة مستقلة. ثم عقدوا مع النمسا معاهدة سان جرمان ومع المجر معاهدة تريانون.

أهم بنود معاهدة سان جرمان:

١- سلخ منطقة غاليشيا واعطائها إلى بولندة.

٢ - ضم منطقتي مورافيــــا وبوهيميــــا إلى تشيكوسلوفاكيا بعد أن كانتا تحت السيطرة النمساوية.

٣ - سلخ منطقتي البترول الجنوبي وتريستا وضمهما إلى إيطاليا.

٤ - إعطاء يوغسلافيا مناطق البوسنة والهرسك و الشاطئ الدلجاشى التي كانت بحوزة النمسا.

٥ - عدم انضمام النمسا إلى المانيا بأية حالٍ من الأحوال.

٦ - يسمح للنمسا بالاحتفاظ بجيش من ثلاثين ألف رجل وبإمتلاك ثلاثة زوارق بوليسية على نهر الدانوب.

٧ - على النمسا أن تدفع غرامة للتعويضات.

كـانت هـذه المعـاهـدة ضربة قاسية للنمسا إذ خسرت من جرائها ٣/٤ من مساحتها ولم يبق لها إلا ٣٢٠٠٠ ميل مربع من أصل ١١٦٠٠٠ ميل مربع كما خسرت ٤/٥ من عدد سكانها. ولم تستطع النمسا بعد ذلك تعويض خسارتها الإقليمية لا كلياً ولا جزئياً إذ تبنت السياسة الأوروبية هذه الحدود ورسختها حتى بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية. ■

المراجع

النمسا: حقائق وأرقام. السفارة النمساوية في بيروت.

كيميائي العرب الأول

جابر بن حيان

حسين زعرور

الجامعة العربية

كلية الهندسة المعمارية





هو أبو موسى جابر بن حيّان ولد عام ٧٣٧ م (١٢٠ هـ) من أب يسمّى حيّان في مدينة تسمى طوس ببلاد فارس.

عندما سقطت الدولة الأموية. وقامت الدولة العباسية عام ٧٤٩ م أي ١٣٢ هـ جاء جابر إلى الكوفة وتتلمذ على يد الإمام جعفر الصادق وتلقّى عنه أصول علم الكيمياء.

وقد جعل جابر بغداد مقرا له وزاد نفوذه على مر الأيام وأصبحت له منزلة كبيرة في قصر الخليفة وعاش في ظل الازدهار والرخاء والتقدم يحظى بتقدير الجميع وبمكانة خاصة عند الخليفة هارون الرشيد يتدفق انتاجه وتتلاحق تجاربه ويحظى بثقة أمامه وسيده الإمام الصادق وكان الإمام يلجأ إلى جابر في المسائل التي يطمح لتحقيقها فطلب من جابر أن ينسخ كتاب «الضيم» الذي ألفه الإمام على ورق لا يتأثر بالنار فنجح جابر في ذلك وحقق رغبة استاذه. وعلى مر الأيام توطدت علاقة جابر بالبرامكة واكتسب ثقتهم وهم المصرّفون للدولة وشؤونها في عهد الخليفة الرشيد.

تنوع دراسته للعلوم :

رغم عظمة الانجازات التي قام بها جابر بن حيان في ميدان علم الكيمياء فإليه يرجع الفضل في تثبيت دعائم الكيمياء كعلم مكتمل العناصر واضح الحدود... رغم هذا كله فقد كان لجابر العديد من مؤلفات الطب والرياضة والفلسفة وكان له الفضل في ارساء الاسلوب العلمي وترسيخ الاخلاق العلمية الأمر الذي استفاد منه كل الفائدة من جاء بعده من علماء العرب.

وقد اعتبر جورج سارتون جابر بن حيان العربي من أكبر مؤرخي العلوم ولقد اطلق سارتون على المدة التي تقع بين عام ٧٥٠م. و ٨٠٠م فيما يتعلق بالعلم والفلسفة في الشرق والغرب اسم عصر جابر بن حيان. ويظهر اعتزاز «جابر» بالعلم وثقته في الجهد العلمي، من قوله: «كيف يظن العجز بالعلم دون الوصول إلى الطبيعة وأسرارها.. ألم يكن في مستطاع العلم أن يجاوز الطبيعة إلى ما ورائها.. فهل يعجز عن استخراج كوامن الطبيعة؟اننا لا نطالب من لا علم له

بالتصدي للكيمياء بل نطلب ذلك من ذوي العلم الذين استوفوا أركان البحث » .

ويرى جابر أن التجربة العلمية وحدها لا تؤتي ثمارها ان لم تساندها القراءة ، ويدعمها الاطلاع . فهو يشترط على تلاميذه قراءة كتبه ثلاث مرات متتالية لكل قراءة منها هدف خاص : أما القراءة الأولى فللتأكد من صحة الالفاظ في النص ، ومن معاني تلك الألفاظ ، أما القراءة الثانية فلدراسة النص لا من حيث معانيه المباشرة . بل بغية الوصول إلى مدلولاته البعيدة الخفية لما أكثر ما يكشف تحليل النص عن معان ما كانت لتظهر لو وقف الدارس عند ظاهر اللفظ وحده ، دون الغوص إلى ما هو منطو في تضاعيفه وثناياه ، أما القراءة الثالثة فهي لتبويب المعاني وتصنيفها لعلنا نجمع الشبيه إلى شبيهه ، أو نوازن بين المتباين منها ، مما يبلغ بنا الغاية المنشودة من موضوع الدراسة .

ويجمل جابر رأيه في العلاقة بين الاستاذ والتلميذ قائلاً : « أن سبيل الاستاذ والتلميذ ، أن يكونا متعاطفين بعضهما على بعض تعاطف قبول ، وأن يكون التلميذ كالمادة والاستاذ كالصورة » .

ويؤكد جابر انه لا نجاح في عمل علمي إلا إذا كان مسبوقاً بالدراسة فالتحصيل النظري أولاً ثم التجربة والتطبيق ثانياً . ورغم أن هذا التحصيل الكامل قد يقتضي جهداً ووقتاً لكن لا مناص من ذلك إذا كان الدارس يريد أن يصل إلى الحقيقة فيقول جابر « اتعب أولاً تعباً واحداً ، واجمع ، وأنظر ، واعلم ، ثم اعمل ، فإنك لا تصل أولاً ، ثم تصل إلى ما تريد » .

إنجازاته

يعتبر جابر بن حيان ، بحق ، أول رجل ظهر في العالم جدير بأن يطلق عليه لقب «كيميائي» . غير انه لم يكن كيميائياً فحسب ، بل كان كذلك فيلسوفاً ، وعالماً في التاريخ الطبيعي ، وطبيباً ، وقد نبغ في هذا كله . بالرغم من أن اسمه قد ارتبط في تاريخ العلم أساساً بما أنجزه من اكتشافات في علم الكيمياء .

(أ) في الكيمياء : كان جابر شغوفاً بالكيمياء . وعالماً فيها بالمعنى الصحيح . فقد درسها دراسة وافية . وقد كان أساس مجده هو تغيير أوضاع علم الكيمياء واقامته على التجربة والملاحظة والاستنتاج .

وابتكر جابر شيئاً جديداً في الكيمياء فادخل ما اسماه بعلم الموازين ، والمقصود به معادلة ما في المعادن من خصائص . وكان جابر أول من استحضر حامض الكبريتيك بتقطيره من الشبه واسماه زيت الزاج وهو عمل عظيم في تاريخ تقدم الكيمياء والصناعة ، ودرس خصائص مركبات الزئبق واستحضرها وقطرّ الخل للحصول على حامض الخليك المركزّ وقد أدرك جابر أن درجة الغليان في حامض الخليك أدنى من درجة غليان الماء وتوصل إلى نتيجة أن للسوائل المختلفة درجة غليان مختلفة . وقد عرف استخدام ثاني أوكسيد المنغنيز في صناعة الزجاج لازالة اللون الأزرق أو الأخضر كما عرف تحضير الزرنيخ وقد اهتم أيضاً بتنقية المعادن من الشوائب المختلطة بها .

وكان جابر بن حيان خبيراً في العمليات الكيميائية الشائعة ، كالاذابة والتبلر والتقطير والتكليس والاختزال وغير ذلك وكثيراً ما كان يصفها ويبين الغرض منها والتغييرات التي تحدث فيها ويشرح أفضل الطرق لاجرائها وفقاً لنتائج تجاربه . ولجابر بحث في السموم تحت اسم « السموم ودفع مضارها » .

(ب) في باقي العلوم : كان جابر بن حيان يؤمن بقيمة الفلسفة فيضع اصولاً للتفكير الفلسفي ويناقش الوجود . متعرضاً لأفكار الزمان والفعل والانفعال والتناهي والإتصال والإنفصال إلى غير ذلك من الأفكار الفلسفية ولجابر بن حيان نظرية تكوين الكون بكل ما فيه .

وقد بقي جابر في الكوفة ، يواصل بحثه العلمي ، وتجاربه المثمرة ، ويسجل تجاربه وأفكاره في كتب أفادت العلم لسنوات طوال ، حتي توفي وهو في التسعين من عمره . بعد أن ترك آثاراً علمية خالدة ، واشعل سراجاً لم تخمد جذوته ، بل ظل محمولاً على سواعد متينة تعمل على تذكيته ونشر ضوئه ، وجاء من بعد جابر بن حيان ، غير قليل من العلماء الذين استفادوا بجهوده ، وثمرات تأليفه ، وزادوا عليها من نتائج تجاربهم وتفكيرهم وبحوثهم وهكذا استحق جابر بن حيان ذلك التقدير الذي عبر عنه مؤرخ العلم الغربي برتيلو . عندما قال : « لجابر ابن حيان في الكيمياء ، ما لأرسطو في المنطق » . ■

الشطرنج عند العرب

بقلم محمد مراد سكر

الشطرنج عند العرب اسم كبير يتطلب لايفائه حقه مجلداً وليس مقالاً موجزاً، كما نحاول في هذا العدد من «تاريخ العرب والعالم».

ولقد ذكرنا في مقالاتنا السابقة ما للعرب من فضل في نشر الشطرنج في العالم أجمع، كما ذكرنا انهم كانوا السباقين إلى التأليف في هذا المضمار. ترى هل عرف العرب الشطرنج قبل العصر الإسلامي؟ من الصعب تأكيد ذلك. فليس للشطرنج أي ذكر في الشعر الجاهلي بينما ذكره كثير من الشعراء في العصر الاسلامي. غير ان أحد أصدقائنا ذكر لنا ان امرأ القيس تصدى للشطرنج في قصيدته التي مطلعها:

لمن طلل بين الجدية والجبل
فحل قديم العهد طالت به الطبل

والتي يصف بها حبيبته فيقول:

حجازية العينين مكية الحشا
عراقية الأطراف رومية الكفل
تهامية الأبدان عبسية اللمى
خزاعية الأسنان درية القبل

إلى أن يقول:

ولاعبتها الشطرنج خيلي ترادفت
ورخي عليها دار بالشاه بالعجل
فقالت وما هذا شطارة لاعب
ولكن قتل الشاه بالفيل هو الاجل
فناحيتها منصوب بالفيل عاجلاً
من اثنين في تسع يسرع فلم أمل
وقد كان لعبي كل دست بقبلة
أقبل ثغراً كالهلال إذا أفل

إلى آخر القصيدة وعدد أبياتها ٥٥ بيتاً.

أما صحة هذه القصيدة أو نسب هذه الأبيات الشطرنجية على الأقل، فلست أملك ما يؤكد لي صحتها ونسبها وأترك ذلك للمتعمقين في الشعر الجاهلي.

أما في العصر الإسلامي فقد أتى ذكر الشطرنج على لسان كثير من الشعراء، ولكن هل عرف الشطرنج أيام الرسول عليه السلام أم بعده وبعد الفتوحات الاسلامية؟ فليس لدينا أي تأكيد يحدد لنا ذلك. وتدل الأسماء التي أطلقها العرب على قطع الشطرنج انهم أخذوها عن الفرس مثل شاه، فرز (أي وزير) وكانت في الأصل (بيل)، رخ، بيدق، الخ... والمعروف ان العرب افتتحوا فارس سنة ٦٤٢م. ومن الطبيعي أن يكونوا قد تعلموا هذه اللعبة أثناء فتوحاتهم.

روى الامام الشافعي ان سعيد بن خبير الذي عاش مدة في أصفهان (حوالي سنة ٧١٠م) كان يلعب الشطرنج حاضراً ومستدبراً (أي مولياً ظهره للرقعة) كما روي عن أبي هريرة الصحابي أنه كان يجيد الشطرنج حاضراً ومستدبراً، والمعلوم ان أبا هريرة توفي سنة ٥٧ للهجرة. كما ذكروا ان الخليفة عمر بن الخطاب المتوفي سنة ٢٣ للهجرة كان يمر على لاعبي الشطرنج فيسلم عليهم ولا ينهاهم. وقد قرأت في أحد الكتب الأجنبية ان الخليفة عمر بن الخطاب مر على أناس كانوا يلعبون الشطرنج، وما ان رأوه من بعد حتى غطوا الرقعة برداء، فلما اقترب منهم سألهم ماذا تحت الرداء فشرحوا له قصة غوا وطالخاند وان هذه اللعبة ليست إلا اعادة لهذه القصة انما بالعاب مختلفة، فأجابهم لست أرى ما يمنع ذلك في الدين.

ويروي ابن أبي حجلة المغربي التلمساني في كتابه «نموذج القتال في نقل العوال» ان النبي (صلعم) كثيراً ما كان يقف متفرجاً على أتباعه من المسلمين الأوائل وهم يلعبون الشطرنج (بكل تحفظ)، ولو صدق هذا القول الأخير، فهذا يعني ان العرب كانوا يعرفون الشطرنج في العصر الجاهلي، على الأقل في أواخره.

بعد دخول الشاطورنجا إلى فارس أيام كسرى أنو شروان سنة ٥٣١ – ٥٧٩م. طرأ عليها بعض التعديل وأصبح يلعبها اثنان بينما كان يلعبها في السابق أربعة، كل لاعب له زاوية من الرقعة يضع عليها أحجاره، وقد أطلق الفرس عليها إسم خطرنج الذي نقله العرب وأصبح شطرنج. ويرجع الفضل إلى العرب في تحسين هذه اللعبة والتفنن فيها والدفع بها خطوات واسعة إلى الأمام. فقد برع العرب كثيراً في هذه اللعبة لدرجة انهم كانوا يعتبرون النقلات الأولى غير ذات بال فيضعون حاجزاً يقسم الرقعة قسمين ويرتب كل لاعب أحجاره كما يريد بعد أن يكون قد اتفق مسبقاً مع خصمه على عدد النقلات الأولى التي سيقوم بها كل منهما منفرداً خلف الحاجز، ثم يرفع الحاجز ويبدأ اللعب. وكانت هذه تدعى «الطبيقة»، ومن يلعب الشطرنج يعرف الصعوبة التي تعتري اللاعب لمتابعة جولة كهذه.

وقد قسم العرب اللاعبين إلى خمسة أقسام، العليّة (أو العالية) وهم أساطين الشطرنج الذين يصعب التغلب عليهم، ويأتي بعدهم من يستطيع أن يربح جولتين أو ثلاثاً من أصل عشرة مع هؤلاء الأساطين أو الأساتذة كما نسميهم اليوم، ثم الذين يستطيعون أن يلاعبوهم بدون فرز أو بدون حصان أو بدون رخ وهؤلاء الفئة الخامسة.

وهذا يدل على براعة العرب في الشطرنج، إذ حتى يستطيع أحد اللاعبين أن يتغلب على آخر بدون قطعة مهمة كالفرز أو الحصان يجب أن يكون من الفطاحل الذين لا يشق لهم غبار.

وقد ذكرت الكتب العربية كثيراً من الأوضاع في الشطرنج، كانت تدعى المناصب (جمع منصوبة) وهو ما يعرف اليوم بالمسائل والدراسات الشطرنجية، وقد نقل الغربيون كثيراً من هذه الدراسات وتأثروا بها حتى انه لم يبرع أحد منهم لم يطلع عليها.

كان القرن العاشر عهد ازدهار للشطرنج عند العرب إذ برز منهم كثيرون مثل: الصولي، العدلي، العاري، ابن دندن، علاء الدين الملقب بعلي الشطرنجي التبريزي، المسيس، الرازي الشطرنجي (غير الرازي الطبيب) وغيرهم. وكان أشهرهم العدلي الذي حافظ على شهرته كأحسن لاعب خمس سنين، ولعله أول بطل في الشطرنج. كما ان الخليفة هارون الرشيد كان من أحسن اللاعبين، وإليه يرجع الفضل في انتشار الشطرنج في مملكته. كما كان المعتصم بالله، الابن الثالث لهارون الرشيد، من أبرع اللاعبين، وقد ترك المعتصم بالله المتوفى سنة ٨٤٣م. عدة مسائل في الشطرنج نقلها الغربيون واسترشدوا بها.

والمعلوم ان أغلب الخلفاء كانوا يلعبون الشطرنج ويشجعونه مثل المنصور والأمين والمأمون وغيرهم. وكان الأمراء والوزراء والندماء والعبيد يلعبونه أيضاً، مثل الأميرة العباسة (أخت الرشيد) وجعفر البرمكي ومحمد البيدق (سمي هكذا لقصر قامته). كما ذكروا ان الخليفة يزيد بن عبد الملك (المتوفي سنة ١٠٥هـ) كان يلعب الشطرنج مع أحد جواريه المسماة «حبابة» التي كانت تجيد اللعب. وذكروا ان أبا حنيفة (٨٠ – ١٥٠هـ) كان ممن يقولون ان الشطرنج مكروه ليس حراماً. ولسنا نريد أن نخوض كثيراً في هذا الموضوع بل نتركه لرجال الدين. ونحن في مقالنا هذا نتوخى التاريخ، والتاريخ فحسب.

يقول حسن توفيق فايق في كتابه «كنانة الشطرنج العصري» لجبرائيل نصرة بك المهندس سنة ١٩٢٧، ص ٤٠٠ و ٤٠١ ما يلي:

ازدهر الشطرنج في العصر الاسلامي مبكراً. فقد وجد في القرن الأول الهجري من كان يلعبه باتقان في الحجاز، إذ روي عن أبي هريرة الصحابي المتوفي سنة (٥٧هـ) وعن سعيد بن جبير التابعي المتوفي سنة (٩٥هـ) انهما كانا يلعبان الشطرنج باجادة، حاضراً واستدباراً (ربما لم يلعب قبلهما استدباراً). وفي القرن الثاني انتشر الشطرنج في باقي الأقطار العربية فوصل العراق ومصر واشتهر به في بغداد أبو حفص الشاعر بين ١٨٠ و ٢٠٠ هـ. رغم انه كان أعمى. وفي مصر كان الامام الشافعي المتوفي سنة ٢٠٤ هـ. يلعب بإجادة حاضراً ومستدبراً.

وفي غضون القرنين الثالث والرابع بلغ الشطرنج أوجه بالعراق حيث نبغ أساطين الفن وجهابذة المؤلفين، وكان أولهم أبو العباس أحمد العدلي ببغداد بين (٢٣٠ و ٢٥٠ هـ) وهو أول من ألّف كتاباً عن الشطرنج، ثم تلاه الرازي الشطرنجي (بين ٢٥٠ و ٢٩٠ هـ) ثم محمد بن أحمد الماوردي (٢٨٠ – ٣٠٠ هـ) ثم أخيراً واسطة عقدهم وفخر الشطرنجيين جميعاً الأديب الكبير أبو بكر محمد ابن يحيى الصولي المتوفي سنة ٣٣٥ هـ. وقد نادم ثلاثة من **الخلفاء** العباسيين وألّف كتابين عن الشطرنج.

ويوجد بدار الكتب الملكية بمصر مخطوط لمؤلف مجهول عنوانه «كتاب الشطرنج مما ألّفه العدلي والصولي». وظهر بخراسان أبو الفرج محمد بن عبيد الله اللجلاح، إذ كان موجوداً بشيراز (٣٤٠ – ٣٦٠ هـ) وألّف رسالة عن الشطرنج، وكان اللعب قد ذاع وانتشر حتى وصل الأندلس واليمن فاشتهر بالأندلس أبو زيد أبو بكر محمد بن عمار الشاعر المتوفي (٤٧٧ هـ)، وهو الذي لاعب الأدفنس (الفونس) ملك قشتالة وغلبه. واشتهر باليمن أبو الطامي جياش بن نجاح أمير تهامة (المتوفى ٤٩٨ هـ). وفي القرن السادس اشتهر بالأندلس أبو زيد أبو بكر بن زهر الحفيد المتوفي ٥٩٦ هـ. وكان يجيد اللعب مستدبراً. وفي القرن السابع ظهر أبو رزيقة المغربي، وكان من مجيدي اللعب بالاستدبار وانتقل إلى صقليا ثم إلى ايطاليا فكان أول من لعب باستدبار في أوروبا حيث فعل ذلك بفلورنسا ٦٦٤ هـ. فأثار دهشة العالم الأوروبي.

أما القرن الثامن فكان غنياً بمشاهير اللاعبين في جميع الأصقاع. مثلاً بدمشق وجد شخص يدعى النظام العجمي كان يمكنه أن يلاعب ثلاثة أشخاص في آن واحد (٢ مستدبراً وواحداً حاضراً) حوالي ٧٣٠ هـ، وبمصر علاء الدين بن قيران الأعمى (٧٥٠ هـ) وبتركستان تيمورلنك الأعرج أمير المغول (المتوفى ٨٠٧ هـ) وكان بحاشيته من يدعى علاء الدين التبريزي وعلت همتهما عن اللعب بالشطرنج العادي فاستنبطا الشطرنج الكبير ١٠ × ١٠ بزيادة قطعتين هما الدبابة والجمل، غير ان اللعب بطريقتهما الجديدة لم يدم بعدهما. وفي القرن العاشر اشتهر بمصر محمد ابن الورد والشهابي أحمد الاسكندراني وقد اتفق لهما أن سافرا إلى الأستانة لملاعبة مشاهير لاعبيها، ثم عادا لمصر. وفي القرن الحادي عشر نبغ بالشام شخص يدعى ابن السمان الدمشقي ووصل صيته إلى الأستانة، فاستدعاه السلطان محمد ورتبه نديماً له ضمن حاشيته وتوفي بالأستانة (١٠٨٨ هـ).

وفي القرن الثاني عشر حضر إلى مصر الأديب خليل أفندي البغدادي وكان لاعباً ماهراً في الشطرنج وتعرّف بمراد بك (من المماليك) وتلاعبا (١١٨٠ – ١٢٠٠ هـ) ولم أعثر في مباحثي على أسماء خاصة أذكرها بعد هذا التاريخ فوقفت إلى هذا الحد. (انتهى كلام حسن توفيق فايق). ويقول زكي فاضل في كتابه «لمحات في الشطرنج»:

«استهوت لعبة الشطرنج في العصر الاسلامي كثيراً من الملوك والوزراء والعلماء والأدباء فافتتنوا بها، وسنذكر بعضاً منهم على سبيل المثال لا الحصر: فمن الخلفاء والملوك يزيد بن عبد الملك وأخوه هشام من الأمويين وهارون الرشيد وولداه الأمين والمأمون والواثق والمهدي من العباسيين والملك محمود القزنوي من القزنويين بالأفغانستان والمستنصر بالله من الفاطميين، ويوسف صلاح الدين من الأيوبيين، وتيمورلنك من ملوك المغول بالتركستان، والملك جلال الدين محمد الأكبر من ملوك الهند، والملك أبو الطامي جياش ابن نجاح من ملوك اليمن والسلطان سليم والسلطان **عبد الحميد من آل عثمان، ومراد بك محمد من أمراء المماليك**...

حل الكلمات المتقاطعة

	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩
١	ا	ل	ح	س	ن		ب	ت	ع
٢	ا	ن	ا		ا	د	ر	ا	ر
٣			ف	ا	س		ج	ر	ي
٤	ا	ن	ت		م	ر	ا	ك	ش
٥	م	ج		س	ل	ب			
٦	ع		ا	ق	ت	ا	ت	و	ا
٧	ا	س	ف	ي		ط	ن	ج	ه
٨	م	ك	ن	ا	س		و	ي	ا
٩	ر	ج	ي		ن	ا	ر	ه	و

دوريات جديدة



الأرض

نشرة تحليلية نصف شهرية تصدر عن مؤسسة «الأرض» للدراسات الفلسطينية في دمشق.

صاحبها ورئيس تحريرها المسؤول: حبيب قهوجي.

تقع النشرة في ٥٦ صفحة ويحتوي العدد الخامس منها الذي صدر في ١٩٧٩/١١/٢١ (السنة السابعة) على المواضيع التالية:

- أزمة حكم في الكيان الصهيوني.
- أزمة الحركة الصهيونية.
- الصناعة الصهيونية (١٩٦٥ – ١٩٧٨) الجزء الثاني.

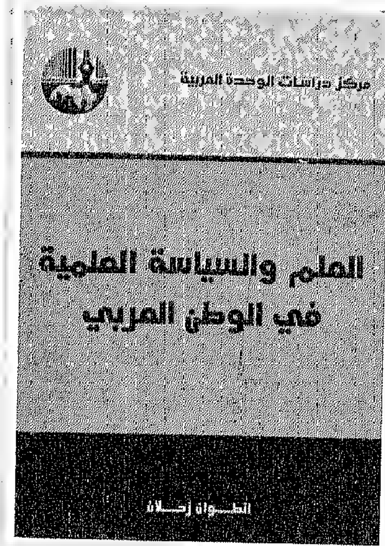
كما يحتوي الملحق على المقالات التالية المترجمة من الصحف العبرية:

- أمن اسرائيل في الثمانينات (دافار).
- ولد واحد من خمسة أولاد في اسرائيل موجود تحت خطر الفقر (بديعوت احرونوت).
- مبدأ عدم الإنسحاب (دافار).
- النيل: حل نموذجي لضائقة المياه الإسرائيلية (يديعوت احروندت).

والباب الأخير يحتوي أهم أخبار الكيان الصهيوني خلال اسبوعين.

هدفها خدمة ذوي الشأن والاختصاص والاسهام بجهد متواضع في مساعدة الاعلام العربي على تثقيف الرأي العام الثقافة الصحيحة بالشؤون الاسرائيلية والصهيونية.

وهيئة التحرير تعتمد المصادر الاسرائيلية بالذات، تدرسها وتحللها بأقصى قدر من الموضوعية مستفيدة من معرفة أعضائها وخبرتهم بشؤون التجمع الاستيطاني الاسرائيلي ولغته وتركيبه. ■



العلم والسياسة العلمية في الوطن العربي

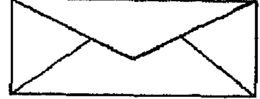
صدر عن مركز دراسات الوحدة العربية مؤخراً كتاب «العلم والسياسة العلمية في الوطن العربي» للدكتور انطوان زحلان.

ويجيء هذا الكتاب نتيجة جهود متلاحقة قام بها المؤلف على مدى عشرين عاماً في تجميع المعلومات والبيانات - التي لم ينشر معظمها من قبل - وعلى أساسها يقدم تحليلاً منهجياً للتجربة العربية في مجال تطوير العلم والمؤسسات العلمية منذ عام ١٩٤٥. وقد شهدت العقود الثلاثة الماضية زيادة هائلة في عدد المواطنين العرب الذين تابعوا دراساتهم العلمية وكذلك في عدد الجامعات ومراكز البحث العربية. ومن ثم فقد تراكمت تجربة غنية تقتضي اجراء دراسة نقدية لتوجيه النشاط العلمي في المستقبل.

ويتضمن الكتاب تحليلاً مفصلاً لنطاق العلم ومداه وتمويله. ويتبين منه أن الجانب الأكبر من النشاط العلمي في الوطن العربي يتركز في الطب والزراعة، وأن البحث في ميدان العلوم الأساسية ما زال محدود النطاق. وفضلاً عن ذلك، يتناول الكتاب بالبحث القوى البشرية العلمية في الوطن العربي من حيث انتاجيتها وتوفرها. وعلى الرغم من السياسات التعليمية للدول لعربية التي أدت إلى نمو سريع في عدد العلماء والتكنولوجيين، فانه يبدو أن تطور المرافق الأساسية والهياكل التنظيمية وظروف العمل المتواضعة في الجامعات والمؤسسات العربية هي السبب وراء هجرة الكفاءات المستمرة.

ويناقش الكتاب بإسهاب الجهود الكبيرة الاقليمية والدولية التي تدعم تطوير العلم العربي. ويتضح من الدراسة أن الهيئات الوطنية لتقرير السياسة العلمية هي نتاج مبادرات محلية ودولية. ويتناول الكتاب السياسات والبرامج المطبقة في اطار الخطط الإجتماعية والاقتصادية. ويتبين أن السياسات الرسمية للعلم تخالف واقع التنمية سواء على صعيد العدد الهائل من الصناعات والأشغال المدنية الجديدة، أو على صعيد الاحتياجات الأساسية للإنسان.

ويستند الكتاب إلى مجموعة منوّعة وواسعة من المعلومات والبيانات غير المنشورة والتي قام المؤلف بتجميعها على مدى عشرين عاماً. ■



بريد القراء

● حسين زعرور – الجامعة العربية – بيروت – لبنان .

■ الموضوع الذي ارسلتموه عن «جابر بن حيان» محاولة طيبة شكراً لمساهمتكم وسننشر رسالتكم في أقرب فرصة ممكنة .

● جاك لحود – بجدر فل – البترون – لبنان .

يقول : «اتقدم منكم شاكراً للجهود التي تبذلونها في كافة الميادين في مجلتكم «تاريخ العرب والعالم» . نظراً لما تقدموه من فائدة . ومعرفة كانت تنقص المكتبة العربية وإننا لكم لمساندون في كل ما تنشرونه» .

● المهندس نزار عرنوق – طرطوس – سورية .

يقدم تمنياته الصادقة بدوام النجاح لمجلة «تاريخ العرب والعالم» ويؤكد بأن المجلة قد شقت طريقها في عالم الصحافة الصعب وعلى مستوى رفيع ..

■ نشكر الأخ الدكتور نزار عرنوق على شعوره النبيل تجاه المجلة راجين أن نوفق في خدمة امتنا العربية .

● ادي يبرودي – الجديدة – مركز الهاتف – لبنان .

اقترح تجليد اعداد المجلة كل سنة . وأبدى اعجابه بمواضيعها التاريخية .

■ نشكر الأخ أدي على اقتراحه ونؤكد له بأن اقتراحه هو الآن قيد التنفيذ . وشكراً لعواطفك الطيبة .

● عبد الحكيم محمد كشاد . طرابلس – ليبيا .

يقول : «إلى النافذة العظيمة مجلة تاريخ العرب والعالم» والتي تعتبر حقيقة ثابتة . نافذة على حقيقة تاريخنا العريق والحديث وتاريخ العالم . ونحن نفتخر بأن تكون لنا هذه المجلة الرائعة المزدهرة بالمواضيع والدراسات التي يحتاج اليها القارئ العربي . فالتحية لكل عامليها ومخرجيها . تحية محبة وتقدير على جهودهم الكبيرة في تقديم ما يفيد القارئ العربي . هذه المجلة الجيدة والتي نتمنى لهم ولها عمراً طويلاً» .

■ نشكر الأخ عبد الحكيم على عواطفه الطيبة ونؤكد له بأننا مستمرون في تأدية رسالتنا المتواضعة ما دام لنا أصدقاء ومشجعون مثله .

● خالد عبد الله البرواري التنجي – نينوي – العراق .

يشكر جهود جميع المحررين والكتاب في المجلة ، كما يرسل تهانيه الحارة بمناسبة الأعياد ويدعو للمجلة بدوام التقدم والإستمرار سنة بعد سنة وقرناً بعد قرن !

■ **ونحن بدورنا نشكر للأخ خالد عواطفه الطيبة النبيلة ونؤكد له بأننا سنستمر في جهودنا لخدمة القارئ العربي في جميع أنحاء الوطن .**

● **جرجيس عبد الله سليم – نينوي – العراق .**

تهنئة أخرى من الأخ جرجيس بمناسبة الأعياد ورأس السنة وتمنياته الطيبة للمجلة وللعاملين فيها .

■ **شكراً مرة أخرى يا أخ جرجيس على تمنياتك الطيبة ونأمل أن نكون دائماً في مستوى المهمة الصعبة التي نحمل اعباءها .**

● **محمد أسامة حلباوي – دمشق – سورية .**

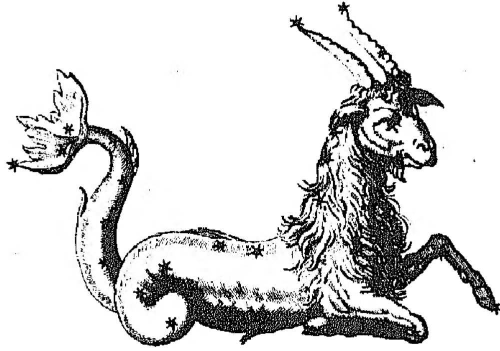
يهنئ أسرة المجلة على جهودهم لاخراج المجلة بهذه الحلّة الجذّابة ويطلب ارسال اعداد تنقصه . نشكر لكم عواطفكم ، أما بصدد ما ينقصكم من أعداد فنرجو ارسال ثمنها ، كما هو على الغلاف ، فنرسل لكم ما تطلبونه لاكمال مجموعتكم .

تاريخ البروج

مي تنير

برج الجدي

٢٣ ديسمبر/ كانون الأول ـ ١٩ يناير / كانون الثاني



يرمز إلى برج الجدي بصورة الجدي ولكن نصفه الأسفل هو على شكل ذنب السمكة . وهذا هو الرسم الحقيقي للنجوم التي تكون برج الجدي .

يعرف هذا البرج في أساطير الشرق القديم بأنه «باب الالهة» من حيث تدخل أرواح الرجال لتنتقل إلى السماء وهو البرج المقابل لبرج السرطان الذي يعرف بأنه «باب الرجال» .

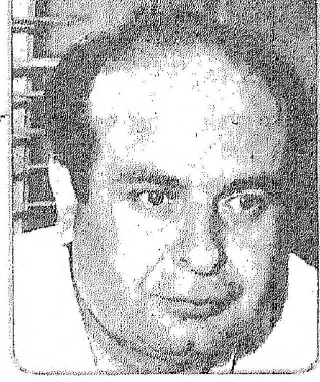
مواليد هذا البرج متناقضون في حياتهم وعملهم عموماً من غير أن يعني ذلك أنهم فاشلون أو مترددون . فهم يتحلون بالمسؤولية والإنضباط وأحياناً كثيرة يميلون إلى النشاط البراغماتي العملي غير المدروس من جميع جوانبه . طموحهم الوصول إلى أعلى منصب في سلم الوظائف . فهاجسهم التقدم في مجالي العمل والحياة بأي ثم ولكن بصبر وبتؤده وبعد التفكير والتدقيق بكل خطوة ينوون القيام بها على المدى القريب . وهذا ما يمنعهم من الوصول بسرعة إلى تحقيق طموحاتهم التي يحلمون بها ليلاً نهاراً . يبحثون عن الإستقرار في مجال أعمالهم وهو ما يتناقض مع طبيعة هذه الأعمال . لذلك يمر مواليد هذا البرج بفترات عصبية حادة نتيجة هذا التناقض .

من الناحية العاطفية ينجح مواليد هذا البرج عادة في حياتهم الزوجية والإجتماعية لأنهم يتصفون في معظم الأحيان بالهدوء والروية على الصعيد العاطفي . حتى إزاء أكثر المواقف تعقيداً وحدّة . وهم إجمالاً لا يخلصون لشريك حياتهم تحت كل الظروف .

إستناداً إلى أبحاث العلماء فإن برج الجدي له تأثير مباشر في الجلد والعظام .

من الشخصيات العالمية المشهورة في التاريخ القديم والحديث والمولودة تحت برج الجدي نذكر :

عالم الكهرباء الأميركي بنجامين فرانكلين – الممثلة الأميركية آفا غاردنر – القديسة البطلة الفرنسية جان دارك – ماوتسي تونغ – عالم الفيزياء الانكليزي نيوتخا – عالم البيولوجيا الفرنسي لويس باستور – الممثل الأميركي غاري غرانت – الأديب الأميركي ادغار ألن بو – الرئيس الأميركي الـ ٢٨ وودرو ويلسون (١٩١٣ – ١٩٢١) – محمد علي كلاي – ألفيس برسلي – ريتشارد نيكسون – ستالين – آل كابوني وأنور السادات .



رأي حر

الدكتور أنيس صايغ

الفكرة لرئيس التحرير، واحدة من مشاريعه الكثيرة لتطوير «تاريخ العرب والعالم» بعد أن طوت سنتها الأولى. وكالعادة، يلبي الأصدقاء والزملاء دعوته لهم بأن تُخصَّص صفحة يتناوبون فيها على تسجيل خواطرهم، سريعة ومقتضبة، ككتّاب لهم تجاربهم وأفكارهم وآراؤهم في علم التاريخ، تدريساً أو تأليفاً.

لكن رئيس التحرير يريدها الصفحة الأولى من المجلة، وهم يريدونها الصفحة الأخيرة. وبين الأولى والأخيرة، في العدد الواحد، مسافة طويلة، تتعدّى التسعين أو المئة صفحة التي يحتويها العدد.

هو يريدها الصفحة الأولى احتراماً منه لكتّابه المختارين وتكريماً، وهم يريدونها الصفحة الأخيرة تواضعاً واعترافاً به رباناً لباخرةٍ يلازم المقدمة في كل الأحوال.

أو لعل هناك أسباباً أخرى، له ولهم؟!

ألا يعني استيلاء الكتّاب على مقدمة المجلة – هم يقولون بخبث – إراحة رئيس التحرير من مهمة كتابة الافتتاحية؟ وكتابة الافتتاحية همٌّ يحمله أي رئيس تحرير طيلة الشهر في صحوه ومنامه. إذ عليه أن يقول أكثر ما يجب أن يقوله من كلام في أقصر مسافة ممكنه. وعليه أن يقول كل شيْ وبالتالي يجب ألا يخصّ بكلامه موضوعاً واحداً. وعليه أن يحيط بحديثه مقالات العدد كلها دون أن يحابي مقالاً أو يتجاهل مقالاً. بعبارة أخرى، تفوق صعوبة كتابة صفحة الافتتاحية أحياناً إعداد العدد بكامله.

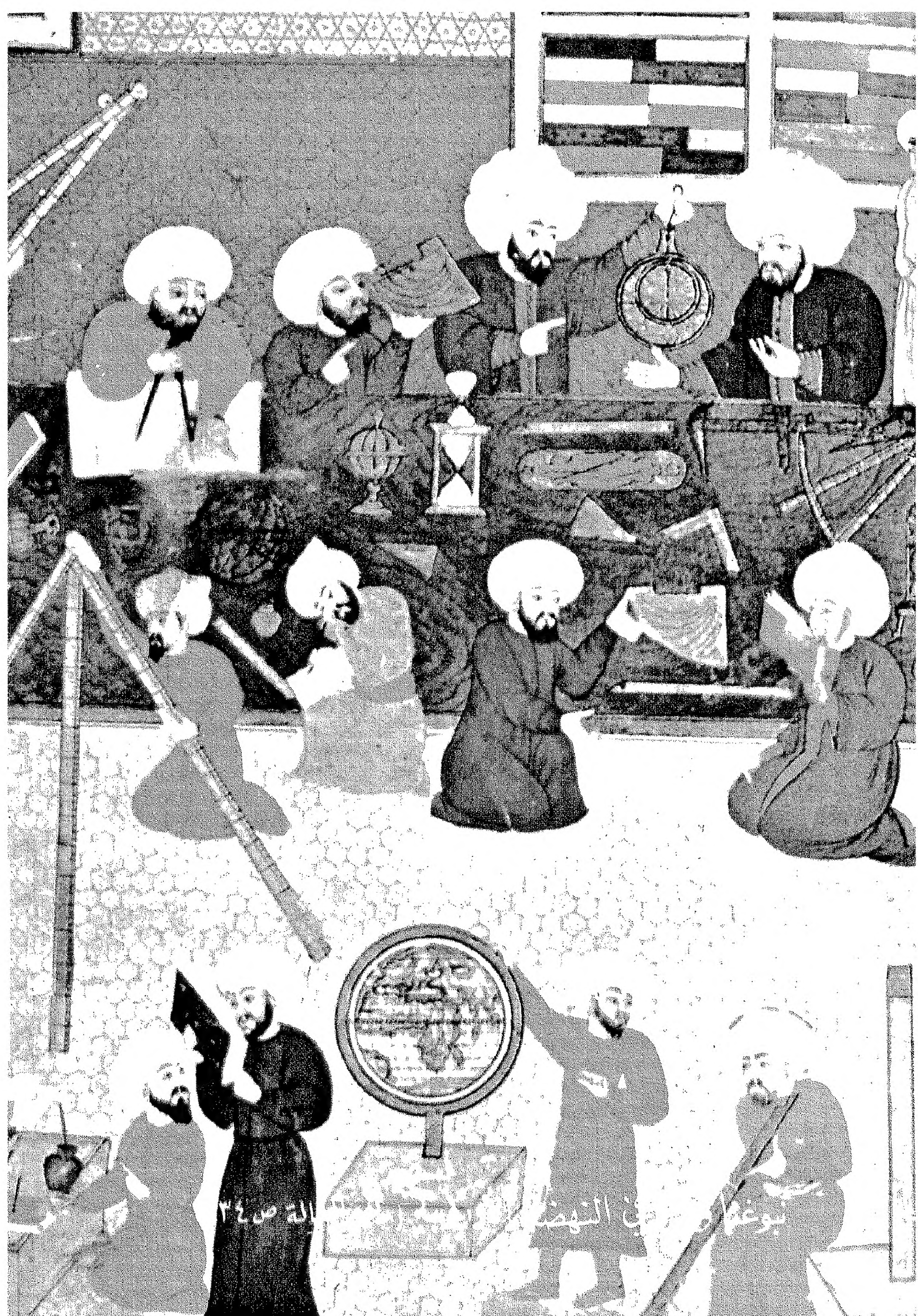
ويرد رئيس تحريرنا – بخبث مماثل لهم: ألا يعني تأخير خواطر مؤرخيه وأساتذته الكبار إلى آخر المجلة إتاحة لهم للتأخير في تقديم هذه الخواطر إلى أطول وقت ممكن؟ فهو يعلم – الخبرة علّمته ذلك جيداً – أن الكاتب –كل كاتب– يريد من المحرر أن يماطله إلى آخر لحظة. بل أن الكاتب –كل كاتب– يريد من محرر المجلة – أية مجلة – أن يستنبط محاولة توفّق بين نقيضين: يريد الكاتب ان يقدّم مقاله، زمنياً، بعد زملائه، ومن جهة أخرى يريد لمقاله عناية قبل زملائه. وبكلام آخر: يريد الكاتب من المحرر محاولة خاصة، أو قل وضعاً خاصاً مميزاً مثل تلك الأوضاع التي حدثنا التاريخ أن الدول كانت تطالب بها لرعاياها وللطوائف المحسوبة عليها أيام الامبراطورية العثمانية. فكيف يصحّ، بل وكيف يمكن، للمحرر أن يمنح هذا الوضع الخاص لكاتب ما وهو يعلم أن كل كاتب يطالب به؟!

إذن أين نكتب هذه الخواطر المقترحة والتي تأمل مجلة «تاريخ العرب والعالم» إن تكون واحدة من تقدماتها الجديدة إلى قارئها في عامها الثاني؟

كان اقتراحي المتواضع، حلاً لهذا الإشكال، وبصفتي مستشاراً للمجلة [المشورة الجيدة يعود ثوابها إلى رئيس التحرير الذي يعمل بها، والمشورة السيئة يعود الطعن بها عليّ لأني أنا الذي أسديتها!] أن نلغي هذا الاقتراح: أن نسدّ الباب قبل أن نفتحه. لكن يبدو أن لا رئيس التحرير ولا كتّابه أعجبهم اقتراحي. وأريد الفهم كلهم اتفقوا أن أكون أنا البادئ.

شيْ وحيد أودّ أن أعد به القارئ وأؤكد عليه: مهما كانت المشورة التي أقدمها للمجلة ولرئيس تحريرها، فإنني أجزم بأن «تاريخ العرب والعالم» ماضية في تلبية رغبات قرائها وحاجاتهم ضمن تخصصها والتزامها وإمكاناتها، وأنها تسير بخطى ثابتة نحو الأفضل. لكن شرط نجاحها في ذلك مرهون بمدى تقبلّ القارئ لها واتصاله بها. فكلما لاحقها القارئ، وطالبها، أصبحت هي أكثر قدرة على أداء مهمتّها.

لا ننسى، أخيراً، أن للقارئ في هذه المجلة الفتية أكثر مما لفاروق البربير. فالقارئ هو الذي يملكها. أما فاروق البربير فهو الذي يديرها ويحررها، فقط. ■



نبوغ في النهضة الة ص ٣٤

